من هدى القرآن

٧

تفسير سور

مريم - طه - الأنبياء

تأليف

آية الله السيد محمد تقي المدرسي



سوره مریم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

فضل السورة :

1 ـ في كتاب ثواب الأعمال باسناده عن أبي عبد الله (ع) قال :

«من أدمن قـراءة سـورة مـريم لم يمت حـتى يصـيبه ما يغنيه في نفسه وماله وولـده ، وكـان في الآخرة من أصحاب عيسى بن مريم عليهما السلام ، وأعطي من الأجر مثل ملك سـليمان بن داود في الدنيا».

تفسير نور الثقلين / ج 3. ص 319

2 ـ في مجمع البيـان أبي بن كعب عن النـبي صـلى الله عليه وآله وسلم قال :

«من قرأها أعطي من الأجر بعـدد من صـدق بزكريا وكـذب به ، ويحـيى ومـريم وموسى وعيسى وهارون وإبراهيم واسحق ويعقوب وإسماعيل عشر حسـنات ، وبعـدد من ادعى لله ولـدا ، وبعـدد من لم يدّع وله ولدا».

تفسير نور الثقلين / ج 3. ص 319

3 ـ ومن خواص القرآن روى عن النبي (ص) أنه قـال :

«من قرأ هذه السورة اعطي من الحسنات بعدد من دعا لله ولـدا سـبحانه لا إله إلا هو ، وبعـدد من صـدّق زكريا وعيسى وموسى وإبـراهيم وإسـماعيل وإسـحاق ويعقـوب عشر حسـنات ، وعـدد من كـذب بهم ، ويبـــني له في الجنة قصر أوسع من الســماء والأرض في أعلى جنة الفـــــــردوس ، ويحشر مع المتقين في أول زمرة السابقين ، ولا يمـوت حـتى يســتغني هو وولـــده ، ويعطى في الجنة مثل ملك سـليمان (عليه السـلام) ومن كتبها وعلقها عليه لم ير في منامه إلّا خــيرا ، وان كتبها في حائط الــبيت منعت طوارقه ، وحرمت ما فيه وإن شربها الخـائف أمن».

تفسير البرهان / ج 3. ص 2

الإطار العام

كــان الاتجــاه العــام لســورة الكهف هو بحث علاقة الإنسان بزينة الحياة الدنيا ، فجـاءت سـورة مـريم لـتركّز الضــوء على علاقة الإنســان بالأســرة والأولاد أيّ قضــية الامتداد البشري وإطارها السليم.

وثمة ملاحظتان :

الأولى : يؤكد الإســلام على ضــرورة تحديد الإنســان لعلاقته بالطبيعة في إطار علاقته الكـبرى بربه وربها ، لان الأخـرى ، هي الـتي تحـدد أعماله وسـلوكه وكيفية تكـوين علاقاته.

ويجب أن يضحي بكـلّ شـيء من أجل هـذه العلاقة ، فهو عبد لربه يحبّه ويحب من يحبّه ويبغض من يبغضـــــه. فعلاقة الإنســـــان بالطبيعة امتدادية وليست ذاتية ، فلأن الله أمرنا أن نعمّر الأرض ونبـني الـبيت ، ونكـوّن العائلة ، ونحبّ أولادنا أو نشــفق عليهم. فانّا نقــوم بكــلّ ذلك في حدود أوامر الله وتوجيهاته.

ولقد جـاءت سـورة مـريم لمعالجة هـذه الحقيقة ، ولذلك جاء في الحديث :

«**من أدمن قـراءة سـورة مـريم لم يمت حـتى يصيبه ما يغنيه في نفسه وماله** ..»

والإدمـان يشـير إلى العمل بهـذه السـورة ، وتكـييف حياة الإنسـان وعلاقاته وفقها ، ومن يفعل ذلك فانّه خـيرا في علاقاته وحينما يـأمره الإسـلام أن تكـون العلاقة بالطبيعة وزينة الحياة (من أموال وبـنين وما أشـبه) علاقة امتدادية ، في إطـار العلاقة مع الله ، فليس لأنه يريد للإنسـان الحرمـان من نعيم الـدنيا وطيباتها ، إنما يريد له أن يستفيد من ذلك أكبر فائدة ممكنة ، لأن الله هو خـالق الحيـاة والبشر ، وهو أعلم بما يصـلحهم ويعـود عليهم بـالخير ، وبالتـالي هو القـادر على أن يرسم لهم المنهج السليم في السلوك والعلاقات.

الثانية : إن هنـاك فرقا بين الوصـفة الطيبة والـدواء الذي تشـتريه بموجبها ، فبينما تشـير هي أن الـدواء فقط يقـوم بملاحقة ميكـروب المـرض للقضـاء عليـه. والكتب التربوية والأخلاقية تشـبه إلى حد بعيد الوصـفة الطبية ، بينما القـرآن دواء وشـفاء لأمـراض السـلوك البشـري ، فآياته تلاحق الجـراثيم والأمـراض النفسـية في قلب الإنسان وتقضي عليها ، لذلك لا يكتفي القرآن أن ينصحك بكيفيّة تكـوين علاقاتك مع أولادك فحسب وانما يتعمّق حتى يصل إلى جذر المشكلة النفسـية ويقتلعها ، فيضـرب الأمثال ويبيّن حقائق التاريخ ويحللها.

وقد سـميت هـذه السـورة بمـريم لأن علاقة مـريم الصديقة بابنها عيسى (ع) كانت علاقة فريدة ونموذجية.

سورة مريم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْـدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نـادى رَبَّهُ نِـداءً خَفِيًّا (3) قـالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْـتَعَلَ الـرَّأْسُ شَـيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِـدُعائِكَ رَبِّ شَـقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَـوالِيَ مِنْ وَرائِي وَكـانَتِ امْـرَأَتِي عـاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَـدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَـرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْـهُ رَبِّ رَضِـيًّا (6) يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَـلْ لَـهُ مِنْ قَبْـلُ سَـمِيًّا (7) قـالَ رَبِّ أَنَّى يَكُـونُ لِي غُلامٌ وَكـانَتِ امْـرَأَتِي عـاقِراً وَقَـدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَـرِ عِتِيًّا (8) قـالَ كَذلِكَ

---

4 [وهن] : الوهن هو الضعف ونقصان القوة.
5 [عاقرا] : لا تلد.
8 [عتيّا] : إذا غيّره طول الزمان الى حال اليبس والجفاف.

قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً (9) قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَـةً قـالَ آيَتُـكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَـوِيًّا (10) فَخَـرَجَ عَلى قَوْمِـهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11)

فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا

بيّنات من الآيات :

دعاء زكريا :

[1] (**كهيعص**)

اختلف المفسرون في هـذه الحـروف وما ترمز إليه ، وربما كانت اشارة إلى الألفـاظ الـتي تـدل على الـذكر أو الحـديث الـذي كـان زكريا (ع) ينـاجي به ربه ، وجـاء في حديث ان هذه الكلمات رمـوز الى أسـماء الله الحسـنى ، فقد روى سـفيان بن سـعيد الثـوري عن الامـام الصـادق عليه السلام ـ حديثا مفصلا جاء فيه ـ :

«(**كهيعص**) : **معنــاه أنا الكــافي الهــادي الــوليّ العالم الصادق الوعد**» [1]

وجاء في حديث مـأثور عن الإمـام المهـدي عجل الله فرجه :

«ان هـذه الحـروف ترمز الى واقعة كـربلاء الفجيعة ، فالكاف اسم كربلاء ، والهـاء هلاك العـترة ، واليـاء يزيد ــ لعنه الله ـ وهو ظالم الحسين ، والعين عطشه ، والصاد ،

(1) تفسير نور الثقلين ج 3 ص 320.

صبره» [1]

[2] (**ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا**)

بين الإنسـان وربه خطّـان ــ صـاعد ونـازل ــ فالخط الصاعد هو الدعاء ، أما الخط النازل فهو الوحي السماوي ، وحسب ما أتصوره فان هذه الآية تشـير الى كلا الخطين ، فمن جهة ذكر الله لعبـده عن طريق الـوحي أو الكتـاب السماوي ، ومن جهة ثانية ذكر زكريا ربه طالبا رحمته عن طريق الـدعاء ، وقد قـال المفسّـرون في معـنى هـذه الجملة :

«**اذكر كيف رحم الله عبـده زكريّا**» وبتعبـير آخر : هـذا ذكر عن رحمة الله لعبده زكريا.

[3] (**إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا**)

في غمرة الأحداث الرسالية ، والصـراعات المبدئية ، لم ينس أن له شعورا آخر هو الشـعور الانسـاني ، وأن له رغبة أخرى هي رغبته في الامتـداد عـبر الأولاد ، يحملـون رسالته من بعده ، فقد كبت هـذا الشـعور طـويلا ، وحينما أظهره كان خفيّا ، ربما لسببين :

الأول : حذرا من ألسنة الناس ، فقد كان رجلا مسنّا ، وكانت امرأته عجوزا عاقرا.

الثاني : إن من شـأن العبد الصـالح أن لا يـرى لنفسه حقا على الله ، بل يـؤمن بـأن كل ما يعطيه الـرب فهو تفضل منه وإحسان.

[4] (**قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي**)

عند ما يشـيخ الإنسـان فـان عظامه تصـبح متراخية هشّة ويشعر بالضعف الداخلي.

---

(1) المصدر.

(**وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً**)

أي تحـول الى البيـاض ، والتعبـير بكلمة «اشـتعل» تعبـير بلاغي يلفت النظر الى المشـاق والصـعوبات الـتي لاقاها في عمره الطويل ، كما توحي أيضا بسرعة الشيب في رأسه.

(**وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا**)

أي لم أكن شـقيا بسـبب دعائك ، فكلما طلبت منك حاجة أجبتها لي ، وهـذا الأسـلوب يمثل غاية التـأدّب في التوجه بالدعاء الى الله سبحانه.

شروط الوراثة :

[5] (**وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي**)

والموالي هم أولاد العم والخال والأقـارب البعيـدون ، ويبـدو انهم لم يكونـوا موضع رضى زكريا لفسـقهم أو ضعف ايمانهم.

(**وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا**)

[6] (**يَـرِثُنِي وَيَـرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُـوبَ وَاجْعَلْـهُ رَبِّ رَضِيًّا**)

لم يكن أحد من موالي زكريا (ع) أهلا لوراثته ، لـذلك طلب من الله سـبحانه وتعـالى أن يرزقه وليا تكـون فيه هذه الصفات الثلاث :

1 / أن يرث ماله وعلمه ظاهرا وواقعا.

2 / أن يرث عائلته ، فبعض خصائص الفرد شخصيّة ، بينما بعضـها الآخر مرتبط بالعائلة الـتي تمثل خطا معينا في الحياة.

3 / أن يكون مرضيا عند الله وعند الناس.
وهذه هي الصفات التي ينبغي أن تكون في الـوارث ، وزكريا لم يقل ولدا بل قال وليا ، وهذا طلب عام ، فليس المهم الولد بل المهم أن يكون الوارث امتـدادا للمـوروث حتى لو كان من غير ولده.

[7] ﴿**يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّـرُكَ بِغُلامٍ اسْـمُهُ يَحْـيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا**﴾

سـوف نرزقك ولـدا ، يحمل مواصـفاتك ، ورسـالتك ، وسوف يقوم بعمل جديد لم يسبقه اليه أحد ، وهذا منتهى رغبة الإنسان في الولد : أن يكــون وارثا له ومكملا لخطّه ، فإذا قام بعمل اسلامي ولم ينتصر فيه ، فان ابنه يواصل هـذا العمل ، بنفس الانـدفاع والحمـاس الـذي كـان عنـده حتى يكتب له النصر ، وكان زكريا وارث أموال كثيرة عـبر زوجته التي كانت من نسل النبي سليمان (الــذي وهب له الله ملكا عظيما ، ولم يكن له مثيل) ، وكــان يخشى على هـذه الأمـوال أن تصـرف في أي طريق غـير طريق الله ، وكان في ذات الوقت الحبر الأعظم ، وخشي ان يرثه في هذا المقام الديني واحد من أولاد عمه غير اللائقين بمقـام قيادة الأمة.

وقد اســتجاب الله له دعــاءه ، وآتــاه من لدنه فضلا حيث رزقه يحيى. ذلك الوليّ الذي ليس فقط ورث أمجاد الماضي التليدة ، بل ويفتح عهدا جديدا حافلا بالمكرمات ، إذ لم يجعل الله له ســميا ، ولعــلّ في الآية اشــارة الى أمرين :

أولا : ان يحيى (ع) سوف يحقق المزيد من الانجازات ، لا توجد في التــاريخ الرســالي الســابق له ، بلى .. ان يحيى قاوم السلطات الجـائرة الـتي اسـتولت على قيـادة النصارى ، وضحى بنفسه في هذا السبيل ، وكان مثله بين أتباع عيسى (عليه السـلام) مثل الامـام الحسـين (ع) في أمة جده محمد (ص).

ثانيا : ان على الإنســـــان أن يتطلع الى ولد يــــــرث الماضي ، ويصنع المستقبل كما يحيى (ع).

[8] (**قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا**)

كيف يكــون لي ولد ، بينما الشــروط الطبيعية اللازمة غير متوفرة ، فامرأتي عاقر لا تلد أساسا ، وأنا عجــوز قد تجاوزت مرحلة الفتوّة والشباب كثيرا؟!

[9] (**قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ**)

فالله عزّ وجـلّ الـذي خلق الكـون كما خلق القـوانين الطبيعية الحاكمة فيه ، وهو قـادر على تغييرها حين يشـاء بلا صعوبة.

(**وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً**)

حينما يفكر الإنســــــان في نفسه : كيف خلقه الله وأوجـده من العـدم؟! فانه يـدرك أن الله على كل شـيء قدير ، وبالتـالي يتلاشى تعجبه من بعض الظـواهر الغريبة غـير المألوفـة. فلما سـكن روع زكريّا ، واطمـأنت نفسه قال : آمنت بك ، ولكن كيف أواجه النـاس إذا قـالوا : من أين أتت هذه الأسرة العجوز بهذا الولد؟!

حكمة الاعتزال :

[10] (**قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قـالَ آيَتُـكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا**)

عــادة ما تكــون الآية وجودية كناقة صــالح ، وعصا موسى ، أما أن يعـتزل النـاس ولا يتكلم معهم فهـذه آية غريبة ..

لقد فكرت بهـذا الموضـوع ووصـلت الى هـذه النتيجة وهي : أن السكوت والصمت في بعض الأحوال يكون أبلغ أثرا من أيّ كتاب أو كلام لسببين :

1 / لأن هذا السكوت يجعل صاحب القضيّة غير عابئ بما يقول السفهاء عنه ، وصامدا أمام محـاولات التشـكيك من قبل الأعداء.

2 / ولأنه يجعل النـــاس يعـــودون الى أفكـــارهم ، ويتحملون مسئوليتها ، فليس بالضــرورة أن يتكلم الداعية ويهــدي النـــاس بلســـانه دائما ، بل يلـــزم عليه أحيانا أن يــدعهم بــدورهم يفكــرون ، وإذا فكــروا فــإنهم كثـيرا ما يصلون الى الحقيقة ، لذلك بعد الثلاثة أيـام اسـتغل زكريا (ع) الموقف ، وأخذ يتحدث مع الناس في مواضـيع أخـرى غـير قضـية ولادة يحـيى (ع) وما يحيط بها من ملابسـات كانت تستغرق منه وقتا طويلا لتبيينها للناس.

وهكـــذا فـــان العمل في ســـبيل الله يتطلب تجـــاوز الجدال في القضايا الشخصية الى معالجة القضــايا العامة ، ونشر القيم الرسالية ، ويشير القـرآن الكـريم الى هـذه الفكرة فيقول

[11] (**فَخَرَجَ عَلى قَوْمِـهِ مِنَ الْمِحْـرابِ فَـأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**)

كانت الفـترة الـتي اعـتزل النـاس فيها ، واعتكف في المحـــــراب يعبد الله ولا يتكلم مع أحد ، كافية لكي يفكر النــاس ، ويتــأمّلوا ، وبالتــالي ينتبهــوا الى موضــوع طالما يغفل الإنسـان عنه في غمـرة أحـداث الحيـاة وشـؤونها ، وهو قـدرة الله الّـتي تـدبر الكـون ، وتـدبّر أمـور العبـاد ، ولــذلك وجد زكريا (ع) الأرضــية مهيّــأة لأن يــدعوهم الى الالــتزام بحكم الله وشــريعته ، وهــذا هو معـنى التســبيح العملي.

يا يَحْيى خُذِ الْكِتـابَ بِقُـوَّةٍ وَآتَيْنـاهُ الْحُكْمَ صَـبِيًّا (12) وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكاةً وَكانَ تَقِيًّا (13) وَبَـرًّا بِوالِدَيْـهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِـيًّا (14) وَسَـلامٌ عَلَيْـهِ يَـوْمَ وُلِـدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15) وَاذْكُـرْ فِي الْكِتـابِ مَـــرْيَمَ إِذِ انْتَبَـــذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكانـــاً شَــــرْقِيًّا (16) فَاتَّخَـــذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجابـــاً فَأَرْسَـــلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَـــراً سَـــوِيًّا (17) قـــالَتْ إِنِّي أَعُـــوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18) قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا (19) قـالَتْ أَنَّى يَكُـونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْــنِي بَشَــرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قـــالَ كَـذلِكِ قـالَ رَبُّكِ هُـوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَـهُ آيَـةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكانَ أَمْراً مَقْضِيًّا (21)

---

16 [انتبذت] : أصله الطرح وهي بمعنى تنحت ناحية وجلست.
20 [بغيّا] : زانية.

يحيى مثل الوريث الصالح

هدى من الآيات :

في اطــار الحــديث عن الإنســان من بنيه ، تحــدثت الآيـات الأولى من ســورة مــريم عن زكريا ، ذلك الشــيخ الطاعن في السن ، والذي ظلت في قلبه رغبة كامنة بثّها لربه ، فوهب له الله يحيى (ع).

وها هي الآيات القرآنية تـبين لنا صـفات يحـيى ، ومن خلال صـفاته يتـبيّن لنا كيف ينبغي أن يكـون الولد ، وكيف ينبغي أن يتطلع الوالد الى ولـــــده فيما يرتبط به ، وفيما يرتبط بالمجتمع.

وهنــاك وجه آخر لهــذه العلاقة وهي علاقة الأم بابنها حيث يبينها الســياق من خلال قصّــة مــريم ، تلك الوالــدة الرســالية الــتي وهب الله لها غلاما زكيّا ، وكــانت مثلا ، وقدوة ، وأسوة لكل الوالدات.

ومن خلال العرض القرآني لصفات يحيى وقصّة مريم ، تتبيّن لنا عدة أمور :

الأمر الأول : ان التربية المثالية الـــتي يتـــوجب على الوالد أن يقــوم بها تجــاه ابنه ينبغي أن تســير في عــدة خطوط :

1 / أن يتطلع الوالد الى أن يكـــون ابنه امتـــدادا له ، ومجسّدا للميزات التي تتصف بها عائلته ، فالإنسان وريث حضــــارة قد تعب من أجلها الآخـــرون ، وقد تـــراكمت التجارب البشرية حتى تحـولت الى حضـارة ورثها الفـرد ، كما ان تجاربه هو ، ومكاســبه ، وخبراته ، قد تجمعت هي الأخـرى ، وتـراكمت عنـده وتحـوّلت الى قواعد سـلوكية ، وقيم انسـانية ، وعمرانية ، كل ذلك يتجمع عند الإنســان ، وعليه أن يسلمها الى الجيل الثـاني ، وهـذه هي مسـئولية الإنســـان كما هي رغبته الفطرية ، وان رغبة الإنســـان الفطرية تتلخص في كلمة وهي : أنه يريد أن يـــــرى إذا أغمض عينيه ، ورحل عن الحيــاة ، من يتــابع مســيرته ، ويجسد قيمه ، ويحتفظ بخبراته ومكاسبه.

2 / ينبغي أن يكـون الوالد عالما ، بـأن الجيل القـادم سـوف لا يكـون بالضـبط مثل جيله ، بل سـيكون جيلا له خبراته ، وعليه مسئولياته ، وله ظروفه الخاصة ، وبالتالي ينبغي أن تتوجه تربيته لابنه باتجــاه بنــاء الجيل القــادم ، حسب ظروف ومتغيرات ومسئوليات ذلك الجيل ، ليعيش أبنـاؤه لمبـادئهم المتطـورة كما يعيشـون ماضـيهم التليد ، ولكي لا يكون لهم بعد واحد هو تكـرار الماضي ، واجـترار ما فيه ، بل يكون لـديهم بعد آخر هو بنـاء الحاضر والتطلع للمستقبل.

3 / أن يربي الإنسان أبنـاءه على الارتبـاط بالماضي ، وعـدم الانفصـال عنه ، وأحد نتـائج ذلك هو : أن الأب عند ما تقعد به الســنون عن العمل ، ويصــبح جليس الــبيت ، فان ابنه لا يتركه وحده ، بل يحنّ اليه ، ويكون بارا به.

وهكذا فان الصفات الـتي تتكـون عند الأبنـاء هي : أن يكونوا امتدادا للحضارة التليدة وحماة لها ، بل يكونوا بنـاة لحضارة جديدة ، وهذه الصفات الثلاثة تجسّدت في

يحيى (ع).

الأمر الثــاني : ان القــرآن الحكيم يضــرب لنا أمثلة مثــــــــــيرة ، تتجسد فيها نوعية خاصة من طبيعة ذلك الموضوع الذي يريد أن يبيّنه.

فاذا أراد أن يضرب مثلا لعلاقة الأب بابنه فانه لا يأتي أب وأي ابن ، أو يضرب لنا من واقعهما مثلا ، كلا .. فذلك لا يثير الإنسان ، بل يبيّن قصّة تاريخية ، ذات نوعية فريدة ويضربها مثلا ، لا لكي تبقي في الذاكرة فقط ، وانما أيضا لأن ذلك المثل يبقى مثــالا بــارزا كالشــمس لا يحتــاج الإنسان للبحث عنها ، وفي هـذا المـورد يـذكر لنا القـرآن قصة يوسف ووالده يعقوب والده ، وإذا أراد أن يضرب لنا مثلا عن تطلعات الأب تجاه ابنه ، وصفات الابن تجاه هـذه التطلعات فانه يضرب مثلا من قصة زكريا مع ابنه يحـيى ، وإذا أراد أن يضـــرب لنا مثلا عن علاقة الأم بابنها فانه لا يبحث عن أيّ أمّ في العالم ، وإنما يضرب المثل من قصة مريم الصدّيقة التي كـانت متحـررة من الـدنيا ، ولكن الله سبحانه لم يشأ لها أن تبقى هكذا متحررة فـأراد أن يبتليها بالابن وهذه هي سنة الحياة. لقد شاء أن يقول لها : عليك أن تتحمّلي مسئوليتك كأم ، الى جنب مسـئولياتك كمربيّة ، وهادية للناس ، أو متعبّدة وزاهدة في المسـجد ، وهكـذا بيّن القـرآن الحكيم الحـالات النفسـية ، والحـالات المادية الصـعبة الـتي يجب أن تجتازها الأم وتبقى صـامدة ، وهل هنــاك حالة أصـعب من فتــاة عمرها عشر سـنوات ، لم تتزوج ، ولم تر بشرا ، حملت فهجرت بيتها ، وتركت أهلها الى الصحراء ، فجاءها المخاض الى جـذع النخلة ، وهي لا تعرف ما ذا تصنع؟!

فلتكن هذه المرأة مثلا لكل النساء لكي لا يتهربن من مسـئوليات الأمومة الـتي هي مسـئولية الحيـاة الطبيعية ، بل ينتظــرن العاقبة ، تلك العاقبة الــتي انتظرتها مــريم ورأت كما رأى الناس كيف كانت حسنة وخيرا ورحمة.

الأمر الثـالث : الجمع بين رسـالية الإنسـان وطبيعته ، فلكي تكون رساليا ليس من الضروري أن تترك طبيعتك ، ومسـئوليتك الاجتماعية في الحيـاة ، بل يمكن أن تكـون رساليا ، وفي نفس الوقت أبا أو ابنا أو أما ، وتحتفظ بكل المسؤوليات الاجتماعية التي يقوم بها أي فرد عادي.

بيّنات من الآيات :

(**وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**) :

[12] (**يا يَحْيى خُـذِ الْكِتـابَ بِقُـوَّةٍ وَآتَيْنـاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**)

ولد يحيى وأعطاه الله الرسالة ، وأمره بأن يجعل كل حياته ، وجماع عزمه ، وشدّة بأسه في الالتزام بتبليغ هذه الرسـالة ، فقد يأخذ الإنسـان شـيئا وهو غـير مطمئن الى طبيعته أو نتيجته ، بينما يبحث فـرد آخر عن نفس الشـيء ، ويأخذه بقوة وهو مطمئن به ، مصمّم على الـدفاع عنه ، وهكذا أمر الله يحيى بأن يأخذ الرسالة ، ولعلّه لـذلك بقي يحـيى حصـورا فلم يـتزوج ، شـأنه شـأن عيسى (ع) بل أعطى كل حياته للرسـالة الالهية ، متحـديا الحالة المادية التي طغت على بني إسرائيل ذلك اليـوم وانغماسـهم في الشهوات العاجلة.

ونتسـاءل : لما ذا أعطى الله يحـيى الحكم صـبيا؟ والجواب :

أولا : إكراما لوالـده العظيم ولكي يكـون آية لبـني إسرائيل ، وللناس جميعا ، ولأنه جاء ليصحح مسيرة الأمة بعد انحرافها ، وقد استشـهد في سـبيل الله ، وكـان من الطـبيعي أن يكـثر الطغـاة الـدعايات المضـلّلة حوله ، فأعطاه الله آية لصدقه.

ثانيا : لأنه منذ نعومة أظافره كـان في مسـتوى تلقّي الوحي ، فقد جاء في حديث مـأثور عن أبي الحسن الرضا (ع) :

«ان الصبيان قالوا ليحيي اذهب بنا نلعب ، قال : ما للعب خلقنا ، فأنزل الله تعالى : (**وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**)».[1]

حينما طلب زكريا من الله سبحانه وتعالى أن يرزقه وليا فان أقصى ما كان يأمله هو أن يكون إنسانا رساليا ، ولكن الله تفضل عليه ، وفضله على الآخرين ، فأعطاه ولدا يحمل مسئولية الرسالة ، وجعله إماما للناس ، ولمّا يزل صبيا.

وهكذا فلنعلم بأننا إذا أخلصنا لربنا ، ودعوناه دعاء خفيّا ، متضرعين اليه ، آنئذ لا يستجيب الله لنا دعاءنا فقط بل ويعطينا أكثر مما كنّا نأمل.

(**وَكانَ تَقِيًّا**) :

[13] (**وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكاةً وَكانَ تَقِيًّا**) هذه هي الصفات النفسية التي كانت عند يحيى :

الصفة الأولى : هي أنه كان يحنّ على الناس ، إننا نجد أن أكثر الناس يعيشون لأنفسهم ، وقليل أولئك الذين يعيشون للناس جميعا ، بعيدين عن السجن المحيط بذواتهم ، وهذه هي الصفة الاجتماعية المثلى التي يجب أن يتحلى بها الابن ، وعلى الوالد أن يربّي ابنه على الروح الجماعية ، فلا يقل له : لا تخرج مع أولاد الجيران لأنهم يضربونك ، أو لا تدعهم يرون هذا المتاع عندك لئلا يطلبونه منك ، فهذا مثل للتربية الخاطئة ، بل على العكس من ذلك إذا أعطيت لابنك درهما قل له : إذا اشتريت شيئا تقاسمه مع زملائك ، فيجب أن تربي ابنك منذ نعومة أظفاره على أن يحن على الناس ، ويرى نفسه مسئولة عن الآخرين.

وينبغي أن يكون هذا الحنان في اطار توحيد الله سبحانه ، فقد يكون للحنان جانب سلبي ، وهو أن يحن الإنسان على الآخرين فيخضع لهم ، ويخرج عن حدود

---

(1) تفسير نور الثقلين ج 3 ص 325.

الله ، وهذا خطأ ، انما يجب عليه أن يحن عليهم ، ويخضع لله ، وهكذا كان يحيى ، ولعل الآية تشير الى ذلك.

الصفة الثانية : التقـوى. والأحـاديث كثـيرة عن تقـوى يحـيى (ع) وكيف كـان يخـاف الله ويخشـاه ، يقـال : بـأن زكريا كـان يمنع ابنه يحـيى من أن يحضر مجالسه لأنه لم يكن يحتمل مواعظ والـده ، ولكن يحـيى جـاء واختبأ تحت المنبر ، فصعد زكريا وأخذ يخـوف النـاس نـار جهنم ، وإذا به يجد يحيى من تحت المنـبر باكيا ، ويهيم على وجهه في الصحراء ، فأخذ النـاس يبحثـون عنه في كل مكـان ، فلم يجـدوه الّا بعد فـترة جالسا على مـاء ، يبكى بكـاء مـرّا ، ويناـاجي ربه ، ويـدعوه أن ينجيه من نـار جهنم ، وقد ورد في حديث شريف ، عن أبي بعير قـال قلت لأبي عبد الله (ع) عن قوله في كتابه «**حَناناً مِنْ لَدُنَّا**» قال :

«**انه كان يحيى إذ قال في دعائه يا رب يا اللـه! ناداه الله من السماء لبيك يا يحيى سل حاجتك**» [1]

[14] الصفة الثالثة :

(**وَبَرًّا بِوالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا**)

انه كان يحسن معاملة والديه ، ويعتني بهما. ويبدو ان هذه الصفات الثلاث التي وردت في الآية وهي : الحنـان ، والتقـوى ، والـبرّ ، تنبع جميعا من صـفة واحـدة وهي : العلاقة الايجابية مع أبيه وأمه ومجتمعة.

ان الولد المشاكس يسمّيه القرآن جبارا ، والجبّار هو الـذي يعيش لنفسه فقط ، وحسب أهوائه ، ويتصـرف حسب بغضه وحبه ، ويـرى نفسه أعلى من الآخـرين ، ولكن يحـيى لم يكن جبـارا ، ولم يكن عصـيا ، أي لم يكن يهدف العصيان والتمرد

---

(1) المصدر ص 326.

على والديه أو على الناس.

[15] (**وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا**)

ان من الأمور التي كان قد طلبها زكريا هي أنه قال : «**وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا**» ، وفي هذه الآية نرى استجابة الله تعالى لهذا الطلب ، فقد عاش يحيى سالما ، ومعه السلام ، فالمجتمع أحبّه ، والله أحبّه ، وفي المستقبل ـ بعد موته ـ سوف يحبه الناس.

ان يحيى قد استشهد في سبيل الله ، ولكن الشهادة في نظر الإسلام تعتبر سلاما بالنسبة إلى المؤمن ، فالإنسان إذا كان يجب أن يموت ولا بد! فلتكن ميتته الشهادة ، ليحصل على السلام الذي يعني النجاة والخير ، بلى ان للإنسان ثلاثة مواقع صعبة عليه أن يمرّ بها : يوم يولد ، و(**يَوْمَ يَمُوتُ ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا**) ، وإذا كان في هذه الأيام الثلاثة محاطا من قبل الله بالسلام فانه سعيد حقا ، جاء في حديث مأثور عن الامام الرضا (ع) انه قال :

إن أوحش ما يكون هذا الخلق في ثلاث مواطن ، يوم يولد ويخرج من بطن أمه فيرى الدنيا ، ويوم يموت فيرى الآخرة وأهلها ، ويوم يبعث فيرى أحكاما لم يرها في دار الدنيا ، وقد سلّم الله عز وجل على يحيى في هذه الثلاثة المواطن ، وآمن روعته فقال : «**وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا**» وقد سلّم عيسى بن مريم على نفسه في هذه الثلاثة المواطن فقال : «**وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**» (1)

(**وَكانَ أَمْراً مَقْضِيًّا**) :

[16] (**وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا**)

تلك كانت قصة يحيى وأبيه عليهما السلام ، وبعدها يبدأ ربنا سبحانه في سرد

(1) المصدر ص 327.

قصّـــة مـــريم وابنها عيسى عليهما الســـلام حيث جلست مريم في مكان شرقي ، في الغرفة التي بنيت في شـرق بيت المقــدس ، ولعــلّ معــنى «انتبــذت» تنحت عنهم ، تواضـــعا لله ، وجلست مكانا لا يـــتردد عليه أحد ، كما ان اختيارها للجـــانب الشـــرقي ربما كـــان لأنه الأقـــرب الى الطهارة لشروق الشمس عليه.

[17] (**فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً**)

أي جعلت حجابا بينهم وبين نفسها لكي تتفرغ لعبادتها بإخلاص دون أن يشغلها أحد ، ولعل الآية توحي بأن صـلاة المرأة في المخدع أفضل من غيره ، وجاء في الحديث : «**مسجد المرأة بيتها**».

(**فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا**)

هنا ارتاعت مـريم الصـديقة الطـاهرة (عليها السـلام) فلأول مرة في حياتها ترى بشرا سـويّا يأتيها ، ولم تعـرف لما ذا أتى؟ وما هو هدفــه؟ خصوصا وإنها قد احتجبت عنه ، ومجرد دخوله عليها من دون إذنها كان أمرا عجيبا.

وتمثّل الروح هو ظهوره في هيئة معيّنة ، والهيئة التي أرادها الله لروحه كـانت على هيئة بشر سـوي ، متكامل ، لعله لامتحان مـريم الصـديقة العـذراء ، باعتبـار ان البشر السوي أكثر إثارة لغرائز المرأة.

[18] (**قـالَتْ إِنِّي أَعُـوذُ بِـالرَّحْمنِ مِنْـكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا**)

كانت شجاعة ، وكـانت مؤمنة ، وعـرفت كيف تتعامل في الموقف الصــعب ، فتــوجهت الى ذلك الرجل قائلة : إنّي أعوذ بالرحمن منك لو كنت تقيّا ، فحذّرته من

الله حـتى يرتـدع عمّا قد يريد من الفاحشة ، والاسـتعاذة بالله دليل عمق الإيمـان ، إذ أن كثـيرا من المؤمـنين قد تـــذهلهم المفاجـــأة عن الركـــون الى ربهم في الموقف الصـعب ، أما مـريم فلقد اسـتعاذت منه بالله الـرحمن ، فهدفت أمرين :

تقوية إرادتها ، وبعث الرعب في قلب الطرف الآخر ، ثم ذكرته بأن عمله مخالف للتقوى.

[19] (**قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَـكِ غُلامـاً زَكِيًّا**)

[20] (**قالَتْ أَنَّى يَكُـونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْـنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا**)

هنا نرى ان مريم لا تزال محتفظة بكل أعصابها أمـام هذه المفاجأة وهي في سن مبكر فأخـذت تحـاور الملك ، وتقول : إنّي لست متزوجة ، كما أنّي لست باغية ، فكيف أرزق ولدا!

[21] (**قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ**)

لأن الله قـــال : بـــأن ذلك عمل هيّن بالنســـبة إليه ، وهدفه من ذلك هو أن يكون هذا الوليد آية له على خلقه ، ويبـدو أن الملك العظيم حمّلها مسـئولية بهـذا القـول ، إذ بين لنا أن عليها أن تتحمل صعوبة الحمل والـولادة ، وتهم الناس وما أشبه من أجل هداية الناس ، لأن وليدها سوف يصبح آية لله على الناس.

(**وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا**)

بالاضـافة الى ذلك فهو رحمة للنـاس ، علمه رحمة ، ورسالته رحمة ، واعماله رحمة ، ولعل الملك العظيم هدّأ خاطرها بهـذه الكلمة ، فـإن آيـات الله قد تكـون من نـوع آخر ، بينما وليـــدها المنتظر ســيكون رحمة للنـــاس ولها أيضا.

(**وَكانَ أَمْراً مَقْضِيًّا**)

وانتهى جبرائيل الملك الـذي تمثل لمـريم في صـورة بشر سـويّ من الاجابة على تسـاؤلات مـريم ، وقـال : إن ذلك أمر من الله ، أما كيف يحـدث هـذا؟ ولما ذا يحـدث؟ هذا أمر قد قضاه الله سبحانه وتعالى وقدّره.

فَحَمَلَتْـهُ فَانْتَبَـذَتْ بِـهِ مَكانـاً قَصِـيًّا (22) فَأَجاءَهَا الْمَخـاضُ إِلى جِـذْعِ النَّخْلَـةِ قـالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْـلَ هـذا وَكُنْتُ نَسْـياً مَنْسِـيًّا (23) فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَـرِيًّا (24) وَهُـزِّي إِلَيْـكِ بِجِـذْعِ النَّخْلَـةِ تُساقِطْ عَلَيْـكِ رُطَبـاً جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْـرَبِي وَقَـرِّي عَيْنـاً فَإِمَّا تَـرَيِنَّ مِنَ الْبَشَـرِ أَحَـداً فَقُولِي إِنِّي نَـذَرْتُ لِلـرَّحْمنِ صَـوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَـوْمَ إِنْسِيًّا (26) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَـيْئاً فَرِيًّا (27) يا أُخْتَ هـارُونَ ما كـانَ أَبُـوكِ امْـرَأَ سَـوْءٍ وَما كـانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) فَأَشـارَتْ إِلَيْـهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي

---

22 [قصيّا] : القصي البعيد ، والقاصي خلاف الداني.
25 [جنيّا] : الجني بمعنى المجني من جني الثمر إذا قطعتها.
27 [فريّا] : عظيما.

الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتانِيَ الْكِتابَ
وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ
وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا
بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا (32) وَالسَّلامُ
عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33)

يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا

هدى من الآيات :

تحـدثنا في الدرسـين الماضـيين للسـورة عن العلاقة بين الإنســان وبين والــده أو والدته ، وانّه يجب أن يكــون في إطــار التقـوى ، ذلك ان المحـور الأساسي في حيـاة البشر ينبغي أن يكون العبودية المطلقة لله سبحانه.

ولكن يطــرح هــذا الســؤال : لما ذا ينبغي أن تكــون علاقتنا بأبنائنا ، بل كل علاقاتنا في إطـار التقـوى وعبودية الله؟

والجواب :

أولا : ان سنّة الحياة وطبيعتها هي : ان كل شيء من الله والى الله : (**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْـهِ راجِعُـونَ**) بمعـنى أن الحيـــاة الطبيعية والفطرية قائمة بالعبودية المطلقة لله ، إذن يجب أن تكـــون علاقاتنا انعكاسا للحيـــاة الطبيعية الموجودة في الكون.

من الذي وهب لي ابنا؟

ومن الذي قدّر لهذا الابن أن ينمو؟
ومن الـذي يسـبغ هـذه النعم ان شـاء ، أو يمنعها ان شاء؟ أو ليس الله؟!
ثانيا : حينما تسوأ علاقتنا بأبنائنا بسبب ظلمهم ، تبقى علاقتنا بالله سليمة ، وإذا اعتمدنا على التقـوى آنئذ لا نجد ركنا نلتجئ اليه سوى الله.
ونسـتوحي من هـذه الآيـات أيضا معـنى الفـرج بعد الكرب ، وبالذات في بناء الأسـرة الأصـعب من كل بنـاء ، الـزواج هو تحمّل مسـئولية الحيـاة بكل أبعادها ، فـالزواج والولوج في امتحانات عسيرة ، ومتعـددة الجـوانب ، ومن دون ثقة كاملة بنصر الله قد تتهاوى ارادة الإنسان وتخـور عزائمه ، ولهذا يضرب القـرآن هنا مثلا للفـرج بعد الكـرب الذي أصاب مريم.

بيّنات من الآيات :

المخاض الصعب :

[22] (**فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا**)
حينما أرادت مريم أن تتزهّد لتعبد الله ، انتبـذت مكانا شرقيّا ، قريبا ، في بيت المقدس في غرفة فيه ، واتخذت من دونهم حجابا ، وأخـــــذت تتبتل الى ربها ، ولكنها بعد الحمل انتبذت مكانا قصيّا ، أضف الى ذلك أن الحمل كان صعبا ومجهدا ، لأنها لم تـرد (عليها السـلام) أن يظهر ذلك للناس ، لذلك ابتعدت عنهم.
[23] (**فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ**)
كم طـالت الفـترة بين حمل مـريم وبين مخاضـها؟ هنـاك أحـاديث عديـدة : بعضـها يقـول : سـتة أشـهر وهو الحديث الأقوى ، وبعضها يقول تسع ساعات ، لأنها حملت في

بداية النهــار ، وفــرغت من حملها في نهايته ، وبعضــهم يقول ساعتين ـ الله أعلم ـ وانما نحن مع هـذه الآية الـتي تصـور لنا حالة صـعبة كـانت تعيشـها مـريم (ع) بحيث ان المخـاض يجبرها على أن تلتجئ الى جـذع النخلة ، فحينما جاءها المخـــــاض ، لم تجد دارا أو بيتا تلتجئ اليه ، وانما وجدت شيئا واحدا وهو جذع نخلة.

(**قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا**)

فتاة عذراء ، تركت الدنيا ولم تر مسئوليات الحياة ، ـ سواء كانت مسئوليات البيت أو مسئوليات المجتمع ـ لأنها كـانت متعبــدة ، ومتحــررة من علاقــات الــدنيا ، ويأتيها المخـاض ، وهـذه أول تجربة لها في الحيـاة ، فلم تعـرف كيف تتصرف تجاهها ، كما انها كانت وحيـدة في الصـحراء ، ولم تجد من يمد لها يد العون! آنئذ شعرت بمشقة بالغة وكرب عظيم فقالت :

(**وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا**)

والإنسان يريد الحياة وما فيها من علاقـات ليشـاع له الــذكر الطيّب بين النــاس ، ولــذلك يتحمل الإنســان كل الصــعوبات ، فهو يخــوض الحــرب مثلا ، ويعــرض نفسه للمـوت من أجل أن يقـال : ان فلان بطل شـجاع ، ولكن مـريم تناست حـتى هـذه الرغبة في ذاتها ، وتمنت لو انها كانت نسيا منسيا.

والنسي المنسي ، هو الذي نسي ونسي أنه قد نسي ، فصــار وكأنه لم يكن أبــدا ، فقد ينسى الإنســان شــيئا ، ولكنه يتذكر أنه قد نسي شيئا ، فيفكر حتى يتذكر ، أما ان تنسى وتنسى انك قد نسـيت ، فهـذا هو النسي المنسي ، وكـأن مـريم (عليها السـلام) تمنت لو نسـيت ولم يبق لها أي أثر يذكر.

الخلف الطيّب :

[24] (**فَناداها مِنْ تَحْتِها**)

اختلف المفسـرون فيمن ناداهـا؟! هل كـان جبرائيل باعتبـار ان مـريم كـانت واقفة على ربـوة وجبرائيل كـان واقفا تحت الربوة ، لذلك كان هو المنادي ، أو كان عيسى ، وأتصـوّر أن المنـادي هو عيسى الوليد الجديد ، وهـذا ينسجم مع سياق الحديث القـرآني ، بينما جبرائيل لم يكن اسمه مذكورا في سياق هذه الآيات.

(**أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا**)

يبدو أن مـريم حينما حملت فكـرت في ما بعد الحمل .. ما ذا سـيحدث؟ ما ذا سـيقول عنها النـاس؟ وحينما وضـعت تركـزت هـذه الفكـرة في ذهنها فاحتـارت ما ذا تفعل؟ والى أين تذهب؟ لذلك فان أول كلمة قالها عيسى لها هي : ألا تحـزني ــ أي لا تحملي همـوم المسـتقبل ــ وهكـذا يجب أن تكـون المـرأة بالنسـبة الى مسـئوليات الحياة الزوجية ، فبعض النساء يقلقن من شؤون الحيـاة ، ويفكـرن كثـيرا في مستقبل الطفل ، وهـذه الأفكـار غـير صـحيحة ، لأن الـذي خلق هـذا الطفل ، وقـدّر للمـرأة أن تكـون أمّا سـوف يعينها عليه ، وعلينا أن نعيش لحظتنا ، بالرغم من ضرورة التخطيط للمسـتقبل ، إلّا أن التخطيط عمل الفكر بينما الهم عمل القلب ، وليس من الصـحيح أن نتحمل هـذه اللحظة خـوف همّ المسـتقبل ، وحـزن الماضي ، فتصبح الحيـاة فيها جحيما ، ويبـدو من السـياق ان كلمة السـريّ أقـرب الى مفهـوم النهر الرافد ، إذ أنه (ع) أشار إليها بوجود نهر في أسفل الربوة ، هذا من جهة ومن جهة ثانية فقد أشار إليها ما ذا تطعم وقال :

[25] (**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِـذْعِ النَّخْلَـةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا**)

1 ـ في الأحاديث أن مريم رفعت رأسها الى السماء ـ وقالت يا إلهي في الأيام العادية التي كنت فيها شابة ، ولا أعاني فيها مرض ولا ألم ، كان الطعام ينزل عليّ من السماء بدون صعوبة ، والآن في هذه الحالة عليّ أن أهز جذع النخلة حتى تتساقط عليّ رطبا جنيا؟! لما ذا؟! فجاءها الوحي أو قال لها عيسى ـ لا أعلم بالضبط ـ انه في ذلك اليوم كانت علاقتك فقط بي وما كنتي تعرفين إلّا الله ، أما الآن فقد توزعت علاقتك بين الله وابنك ، ولذلك لا بدّ أن تهزي جذع النخلة.

2 ـ وهناك تفسير آخر لهذه الآية وهو : أنّ على الإنسان أن يتحمل صعوبات الحياة ، ومن دون التعب لا يحصل الإنسان على شيء ، فقسم من التعب عليك ، والقسم الآخر الله سبحانه هو الذي يدبره ويقدره.

(**تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا**)

في الأحاديث (إن أفضل ما تطعم النفساء من الأطعمة الرطب) لأن الرطب يحتوي على كل المواد التي يحتاجها الجسم ، وبنسبة احتياج الجسم ، يقول بعض العلماء ان في التمر 13 مادة حياتية وخمسة أنواع من الفيتامين ، لهذا تطعم المرأة الواضع في بعض الدول التمر لمدّة أربعين يوما.

[26] (**فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً**)

لا تفكري بهذا الولد كيف يصبح في المستقبل؟ انه سوف يصبح قرة عين لك.

(**فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا**)

لقد بدأت مساعدة عيسى لوالدته من تلك اللحظات الأولى ، والسبب هو ان

عيسى كـان معجـزة في الحيـاة ، أما في سـائر الحـالات الطبيعية ، فان على الولد أن يساعد أمه متى كبر واشـتدّ عـوده ، ويجب أن تفكر الأم وهي تخـوض غمـرات الحيـاة الصعبة أن مستقبلها سيكون مضـمونا بسـبب هـذا الولد ، وان بعد العسر يأتي اليسر ، والعبرة التي نستلهمها هي : ان الصيام في الشرائع السابقة كان مقرونا بعدم التكلم ، فعيسى أشار لمريم بأن تقـول للنـاس : انـني صـائمة من دون أن تقـــول كلاما ، لأنها إذا تكلمت بطل صـــومها ، وبالرغم من انّ هذا النوع من الصوم قد نسخ في شـريعة النبي محمد (صلى الله عليه وآلـه) الّا ان بعض ايجابياته لا تزال باقية حيث جاء في رواية مأثورة عن الامام الصـادق (ع) :

ان الصـوم ليس من الطعـام والشـراب وحـده ، ان مريم قالت : «**إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً**» ـ أي صمتا ـــ فـاحفظوا ألسـنتكم ، وغضـوا أبصـاركم ، ولا تحاسـدوا ولا تنازعوا [1]

وانما تستعمل الاشارة بدليل الآيـات التالية الـتي تفيد بـأن مـريم أشـارت بيـدها الى ولـدها ليعلم القـوم انها لا تتكلّم.

التهمة المفتراة :

[27] (**فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ**)

امـرأة عـذراء ، غـير متزوجة ، صـغيرة السن ، تحمل ولدا رضيعا!!

(**قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا**)

أي عظيما عجيبا.

---

(1) وسائل الشيعة ج 7 ص 390.

ويبـدو أنّهم في البداية لم يتهموها بالفاحشة ، ولكنّهم شيئا فشيئا اتهموها بها بصورة غير مباشرة :

[28] (**يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا**)

لقد ذكّروها بأنها أخت هـارون ، والواقع ان مـريم لم تكن أختا لهارون ، وانما كانت من عائلة زكية طاهرة نقية يقف في رأسها هارون أخو موسى (عليه الصلاة والسلام) ومن المعروف انه حينما كانوا يريدون أن ينسبوا أحدا الى عائلة كـانوا ينسـبونه الى عشـيرته ، ولأن هـارون كـان مشهورا بالتقوى والطهارة ، لذلك قالوا لمـريم : «يا أخت هـارون» وهـذا الأسـلوب معروفا أيضا في اللغة العربية ، حيث ان العرب حينما كانوا يريدون أن ينسبوا شخصا الى عشيرته يقولون له : يا أخا فلان.

قالوا لها : نحن نعرف أباك ، فلم يكن سـيء الخلق ، وأمك لم تكن بغيّا ، فمن أين هذا الطفل؟! ومن هذه الآية نستطيع أن نستوحي مدى تـأثير الوراثة والتربية في حيـاة الإنسـان ، لأنهم عرفـوا ان العائلة الزكية يجب أن تخـرج منها امرأة زكية ، والعكس صـحيح غالبا ، فمن عائلة غـير شريفة لا يستبعد أن تخرج منها امرأة غير شريفة.

[29] (**فَأَشارَتْ إِلَيْـهِ قـالُوا كَيْـفَ نُكَلِّمُ مَنْ كـانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا**)

كيف نكلم من لم يــزل في المهد طفلا؟! فظنّـوا ان مـريم انما تسـتهزئ بهم ، ولكن لم يلبث عيسى أن نطق بكلام فصيح ، وبيّن :

أولا : ثلاث صـفات أساسـية لنفسه : عبوديته لله ـــ وهي أصل كل خير ـ وانه يحمل كتابا ، وهو نبي.

ثانيا : ثلاث قيم لرسالته ودعوته : (البركة ، والصلاة ، والزكاة).

ثالثا : ثلاث سمات ، لسلوكه وأخلاقه (**وَبَرًّا بِوالِـدَتِي ، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً ، شَقِيًّا**)
رابعا : ثلاث نتائج له ولمن يتبعه (**وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ ، وَيَوْمَ أَمُوتُ ، وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**).

من هو عيسى بن مريم :

[30] (**قالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتـانِيَ الْكِتـابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا**)

ولد عيسى بن مـــــريم (عليه الســــلام) وهو يحمل الصفات المثلى ، وبالتالي كان قدوة لنا ، وانما نلقي على هذه الآية الضوء لكي نقتـدي بما يمكن أن نقتـدي به من ، صفاته (عليه السلام) ، فما هي تلك الصـفات؟ في البداية قــــال : إنّي عبد الله ليؤكد صـــــفة العبودية في نفسه ، وبالتالي ينسف قاعـدة عبـادة البشر ، تلك القاعـدة الـتي كـــانت من الممكن أن تترسخ في ذهنية بـــني إســـرائيل بســبب الــولادة المعجــزة أولا ، وتكلّمه في المهد ثانيا ، ومعرفته بالكتاب صبيّا ثالثا.

وقد يتســـــاءل البعض كيف نقتـــــدي بعيسى (عليه السلام) في هـذه الصـفات ، وهل على الأم مثلا أن تبحث عن رسالة لابنها حتى يصبح نبيـا؟ الجـواب : كلّا .. ان ذلك ليس مهمة الأم ، ولكن على الأم أن تربي ابنها لكي يصبح مبلّغا ، داعيا الى الله مثلما كـانت امـرأة عمـران ، عند ما نــذرت ما في بطنها محـــررا ، فلما ذا لا تفكّر كل امـــرأة حامل منذ البــدء أن تجعل ابنها محــررا عــاملا في ســبيل الله؟!

ان المرأة إذا فكرت منذ البدء أن يكـون ابنها الـذي لا يزال في رحمها عاملا في سـبيل الله ، وداعيا الى الحق ، فان الله سبحانه وتعالى يبارك لها في هذا الولد.

قــالوا لأم الشــيخ الأنصــاري (وهو أحد كبــار علمائنا الزاهدين) : ان ابنك قد

أصـبح مرجعا دينيا كبـيرا!! فلم تتعجب وقـالت : لقد كنت أتوقع ذلك ، فقــالوا لها : كيــف؟ فقــالت : لأني لم أكن أرضـعه إلا وأنا على وضـوء ، حـتى أنه في منتصف الليل عند ما كـــان يســـتيقظ طالبا الحليب ، كنت أنهض من الفراش لأتوضأ ثم ألقمه ثديي.

ان هذه الأم كانت منذ البداية تنشد لابنها ذلك المقـام الأسمى ، فأعطاها الله ما طلبت بفضله.

رسالته؟

[31] (**وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ**)

لقد كـان عيسى يشع بـالخير ، ويتفجر المعـروف من جوانبه كما العين المعطاء.

وهكذا يجب أن يربي الإنسان أولاده على حب الخير ، والعمل للآخــرين وان يكونــوا أبــدا مركز الحب وينبــوع البركة ، أينما حلوا حلت معهم البركة.

واننا نقـرأ في التـاريخ ان فاطمة الزهـراء (ع) وقفت في محرابها ذات ليلة تصــلي وتــدعو حــتى مطلع الفجر فدعت الله لكـلّ النـاس باسـتثناء نفسـها وأولادها ، وكـان ابنها الحسين (ع) وهو صبي الى جنبها فقال لها :

«**يا أماه دعوت لكل الناس ما عدانا؟ قالت : نعم يا بني .. الجار ثم الدار**»

انظروا الى تربية فاطمة الزهـراء (ع) لابنها ، انها منذ البــدء ربّت أبناءها على حب الآخــرين ، وفعل الخــير الى الناس جميعا ، وهكذا كان عيسى (ع) مباركا ، أينما كـان ، يفعل الخير ، ويدعو اليه.

(**وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا**)

والصلاة والزكاة هما أسمى ركيزتين بعد عبادة الله وحده وتوحيده ، وقد استدل عيسى على صدق رسالته بهاتين الركيزتين ، حيث ان اقامة الصلاة وإيتاء الزّكاة فريضتان معروفتان.

أخلاقه؟

[32] (**وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا**)

الجبار هو الذي لا يرى لأحد حقا عليه ، بينما يفرض على الناس حقوقه ، أما الشقي فهو الذي يسبب لنفسه البلاء ، والصفات الثلاث التي هي سلوك النبي عيسى (عليه السلام) تعود في الواقع الى جذر واحد ، وهو الخروج عن شح الذات الى أفق الحق ، والعيش للناس وليس للذات ، وجعل الحق وليس النفس واهوائها محورا.

وإنّ في هذه الآية تأكيد على دور الأم وضرورة البر بها ، وقد وصّى أنبياء الله جميعا بها خيرا ، والبرّ بها دليل الايمان ووسيلة الزلفى الى الله ، وقد أكد الإسلام على دورها ، وضرورة البر بها ، فهذا النبي محمد (صلى الله عليه وآله) يسأله رجل :

«**من أحق الناس عليّ؟ قال : أمك ، قال : ثم من؟ قال : أمك ، قال : ثم من؟ قال : أباك**» [1]

ومرة جاءت أم سلمة الى رسول الله تشكو اليه حالة بنات جنسها وتقول : ان كل الفخر للرجال ، فيقول لها الرسول (ص):

«**بلى .. إذا حملت المرأة كانت بمنزلة الصائم ، القائم ، المجاهد بنفسه وماله في سبيل الله ، فاذا وضعت كان لها من الأجر ما لا يدري أحد ما هو لعظمه ، فاذا**

(1) وسائل الشيعة ج 15 ص 270.

أرضــعت كــان لها بكل مصة تعــدل محــرر من ولد إسماعيل ، فاذا فرغت من رضاعه ضرب ملك كـريم على جنبها وقال : استأنفي العمل فقد غفر لك» [1]

[33] (**وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**)

فحقيقة السعادة أو الشقاء تتجسد منذ لحظة الولادة.

وإنّه بعد ما وضح عيسى (عليه الســـلام) أهـــداف ومحتـوى رسـالته المبدئية ، أراد ان يكمل هـذه الاهـداف بتوضيح الإطار الاجتماعي لرسالته ، بأنه لم يرسل جبارا ، فيعـثى في الأرض فســادا ، بل أرسل رحمة الى النــاس وســـلاما ، يحمل الســـلام إليهم منذ لحظة ولادته ، الى لحظة بعثه للحياة مرة اخرى.

وكلمة اخـيرة : ان هـذا الـدرس يلخّص قيم الرسـالة فيما يرتبط بدور الام ، وكيفية تربيتها لوليدها.

وان وراء كل قصة في القرآن قيمة حضارية.

---

(1) جامع السعادات ج 2 ص 261.

ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِـذَ مِنْ وَلَـدٍ سُـبْحانَهُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُـونُ (35) وَإِنَّ اللَّـهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْـتَقِيمٌ (36) فَـاخْتَلَفَ الْأَحْـزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْـلٌ لِلَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْ مَشْـهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِـرْ يَـوْمَ يَأْتُونَنا لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (38) وَأَنْذِرْهُمْ يَـوْمَ الْحَسْـرَةِ إِذْ قُضِـيَ الْأَمْـرُ وَهُمْ فِي غَفْلَـةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (39) إِنَّا نَحْنُ نَـرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها وَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (40)

لما ذا الامتراء وكيف نزيله؟

هدى من الآيات :

كنا مع عيسى (عليه السلام) وقد بشّر برسـالته صـبيا ، وأمر الناس بأن يعبدوا ربهم.

والقرآن الحكيم يوقفنا هنا ليبيّن لنا حقيقة هامة وهي : إنّ الخلاف العقائــدي الــذي انتشر حــول عيسى (عليه الســلام) ، إنما كــان بســبب عــدم معرفة الله ، والجهل بصــفاته وأســماءه وبقدراته الواســعة المطلقة ، وبكيفية خلقه للأشـياء ، وإن هـذا الخلاف ينبع من ضـعف الايمـان بالآخرة.

أن خلق الله للكــــون إنما هو خلق أرادي إذ يقــــول للشيء : كن ، فيكون دون أدنى تأخير ، لذلك فربنا تعالى لا يحتــاج الى أن يتخذ ولــدا أو معينا يرثه ، بل هو الــذي يــرث ما في الســموات وما في الأرض جميعا ، والــذين قاســوا ربهم بأنفســهم لم يعرضــوا الفــرق الشاسع بين طبيعة المخلوق وصفات الخالق ، لذلك قالوا : عيسى ابن الله.

والايمان بالآخرة يسقط الخلافات الدينية ، لأن قسما كبيرا من هذه الخلافات نابع من الأهواء والشهوات ، ومن عدم تحمل مسئولية العلم ، ومن إن الذين كلّفوا ببيان العلم اختاروا شهواتهم على دينهم فباعوا علمهم ببضع دراهم معدودة.

فالقرآن الحكيم يذكر الناس بيوم القيامة أبدا ليبيّن إن هذه الخلافات تتبخر إذا كان الايمان بالمعاد إيمانا راسخا ، ذلك أن الإنسان يختلف مع الآخرين في الدين حينما لا يتخذ الدين محورا لحياته ، بل تكون أهواؤه وشهواته هي المحور أما لو اتخذ الدين محورا بحث عنه بجد وفكّر بموضوعية. فإنّ الله سيؤيده لمعرفة الحقائق بسهولة.

بينات من الآيات :

كن فيكون :

[34] (**ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ**)

أي إن هذه القصة التي نقلها القرآن الحكيم عن عيسى كانت قول الحق الذي لا ريب فيه ، أما الناس فإنهم يمترون ويجادلون فيه لعدم معرفتهم بالله وبالبعث ويوضح القرآن ذلك فيما يلي من الآيات :

[35] (**ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ**)

إن من الصفات الألوهية صفة القدرة والهيمنة والخلق ، فكيف يتخذ الخالق من مخلوقيه ولدا له؟!

الولد واحد من إثنين : أما أن يكون ولدا بالتبنّي أو بالولادة ، فالولد بالتبنّي إنما يكشف عن حاجة الأب الى ذلك الولد ، والله سبحانه أسمى من أن يتخذ ولدا بالتبنّي لأنه قادر لا يحتاج إلى شيء.

أما لو افترضـــنا أن الولد بـــالولادة فهنـــاك نظرية فلسـفية معقـدة تقـول بـأن الكـون قد خـرج من الله كما تخرج أشعة الشمس من القرص ، وكما تخرج الأوهام من القلب ، وكما يصدر الماء الرافد من النبع ـ فسبحان الله! ـ إن هذا إلّا قول جـاهلي بعيد عن صـفة الألوهية والربوبية وتنـــاقض في ذات الـــوقت ، إن طريقة خلقه ســـبحانه للأشـــياء هي مجـــرد الارادة والمشـــيئة ، فقد خلق الله المشـــيئة ثم خلق الأشـــياء بالمشـــيئة .. يقـــول : (**كُنْ فَيَكُـونُ**) وليس لفظة (كن) تعـني التلفظ بها ، وإنما هي مجـرد الارادةـ وليس خلقه للأشـياء عن طريق الممارسة والمعالجة ، حتى يخرج شيء من شيء فيسـمى بـالولادة وإنما عن طريق الأمر والإبـداع ، إذن فنســبة الأولاد إلى الله خطأ ، وإذا صـحت هـذه الفكـرة فلا بد أن تصح في الكـون كله فنقـول بـأن السـماوات والأرضـين وما فيهما أولاد لله ، لأنها كلها خـرجت من الله ــ سـبحانه ــ حسب هذا القول الجاهلي ، وهـذا قـول متنـاقض في ذاته فكيف يكون المخلوق خالقا؟!

حينما يلد شيء من شـيء فلا بد أن يكـون الوليد من جنس الوالد ومما لا جـدال فيه أن الابن فيه كل الصـفات الموجـودة في والـده ، وليس في مجـال البشـرية فقط وإنما كل شـيء ، فأشـعة الشـمس صـفاتها نفس صـفات الشــمس ، والمــاء الــذي يخـرج من النبع صــفاته نفس صـفات النبع .. وهكـذا فلا بد أن تكـون الأشـياء المخلوقة في الكون تحمل صفات الخالق .. (صفة الحياة .. الخلــود .. الثبات وعدم التغيّـر) وهـذه الصـفات غـير موجـودة في الخلق وإنما هي صـفات منحصـرة في الخـالق فقـط. ولو افترضـنا وجودها في المخلـوق إذا لما كـانت هنالك حاجة الى الخالق!

وأساسا فـان هـذه الفكـرة متناقضة يرفضـها العقل ، والله سـبحانه ينسف هـاتين الفكـرتين معا في آية واحـدة حينما يقول :

«**ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ**»

ولما ذا يتخذ الله ولـــدا؟ إن ذلك ليس من صـــفات الألوهية ، فالله سبحانه غني عن

كل شـيء ، وغـير محتـاج الى شـيء ، فما حاجته الى أن يتخذ من بين مخلوقاته ولدا؟!

ومن جهة ثانية ان خروج الولد من الله لا بد أن يكون عن طريق التناسل أو الانقسـام وهـذا غـير وارد لأن الله سـبحانه غـير مـركّب من أجـزاء وإلا أفتقد صـفة الكمـال المطلق التي تشهد له بها كل ذرة من ذرأت هذا الكون.

(**إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**)

إنَّ الله خلق الكـون بهـذه الطريقة أنه يقضي أمـرا فيقول له : كن فيكون ، وليست خلقته بصدور شـيء عنه أو ولادته منه سبحانه. [1]

[36] أما رسالة عيسى فلم تكن رسالة تـدعو النـاس الى عبادته ، وإنما تدعوهم الى عبـادة الله وحـده ، وكيف يدعو الإله الى عبادة غيره لو كـان عيسى إلها ـ حاشا لله ـ؟!

الصراط المستقيم :

(**وَإِنَّ اللـهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُـدُوهُ هـذا صِـراطٌ مُسْتَقِيمٌ**)

هناك تساؤل : ما هي العلاقة بين الجملـتين في هـذه الآية الجملة الأولى الـتي تقـول (**وَإِنَّ اللـهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُـدُوهُ**) والجملة الثانية الـتي تقول : (**هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ؟**)

إن العلاقة هي علاقة العمل بـالفكر ، وبالتـالي علاقة الحياة الدنيا بـالآخرة ، إن إيمانك بالله وعبوديتك المطلقة له هما اللـذان يرسـمان خريطة مسـيرتك في الحيـاة ويعطيانك الضوء الكافي لتحركك نحو الله ، (**هذا صِـراطٌ مُسْتَقِيمٌ**) فاذا عبدت

(1) عالج المؤلف هذا البحث بتفصيل في كتاب «العرفان الإسلامي».

الله وحده فسوف ترسم لنفسك الصراط المستقيم الذي يؤدي بك الى الله ، أما إذا لم تعبد ربك فان حياتك سـوف تكـون منحرفة ، ولا يمكنك أن تصل الى أهـدافك ، وهـذه هي العلاقة بين الجملتين.

بالرغم من إن هذه كانت رسـالة عيسى الى قومه إلّا أنّ قومه اختلفـوا فيه اختلافا واسـعا حـتى أن قسـطنطين إمبراطور الروم جمع ألفين ومائة وسـبعين من الأسـاقفة في مجمع كبـير وطـرح عليهم سـؤالا خلاصـته : من هو عيسى؟

فاختلفوا بينهم الى عشرات الآراء ، بعضهم قـال : إن عيسى هو الله نـــزل الى الأرض ، ثم رجع الى الســـماء وبعضهم قال : إن عيسى إنما هو ابن الله ولنا إلهان هما : الأب والابن ، وبعضـــهم قـــال : إنه واحد من ثلاثة الأب والابن وروح القـدس ، وبعضـهم قـال : هو جـزءان : جـزء إلهي وجزء بشري ، وبعض قـال : إنه عبد الله .. وهكـذا ، ولم يتفق منهم ســوى ثلاثمائة ونيّف اجتمعـــوا على رأي واحـد. فـاعتبره الامـبراطور الـرأي الحـائز على الأكثرية النسبيّة (حوالي سدس الآراء فقط) وجعله الـرأي السـائد الذي لا يزال أقوى النظريات الشائعة اليوم بينهم.

وفي الحقيقة إن هـــؤلاء اختلفـــوا في عيسى هـــذا الاختلاف الشاسع ، بالرغم من إن القضـية كـانت واضـحة جـدا [فالـذي خلق الكـون هو الـذي خلق عيسى وطريقة خلقه لعيسى هي نفس طريقة خلقه للكـــــــــون (**كُنْ فَيَكُونُ**)] وهذه الآية تشير الى الاختلاف بالرغم من أنها لا توضح أسبابه.

الحزبية طريق الضلالة :

[37] (**فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ**)

النــاس العــاديّون كـانوا على الفطــرة ، ثم بعد ذلك ظهرت بينهم أحزاب مختلفة

ولم يكن هدف تلك الأحـزاب (الحقيقـة) إنما كـان هـدفهم شيئا آخر وهو (أنفسهم أو طائفتهم) ولعله ـ لـذلك ينسب القرآن الاختلافات الى التحزب.

في البداية ينشأ التحــــزب ثم يتبعه الاختلاف ، فلكي أجمع أنا مجموعة من النـاس حـولي ولكي يجمع منافسي مجموعة أخـــرى من النـــاس حوله ، فلا بد أن نخلق نوعا من الاختلاف بيننا حــتى أكــون أنا شــيئا وهو شــيئا آخر ، وخيـال البشر يسـتطيع أن يكشف أبـدا بعض الفروقـات ، وأن يخلق بعض الأمـــور الخلافية ، لأن الخلاف ليس أصلا إنما هو فرع للمتحور الـذاتي. ولكن تتبخر هـذه الخلافـات التحزبية المصطنعة في يوم القيامة.

(**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ**)

يـذكرنا القـرآن بـأن هـذا الخلاف لم يكن خلافا دينيا ، ولم يكن من أجل الله ، إنما كـــان من أجل شـــهواتهم وأهوائهم بدليل وصفهم بـالكفر ، (**فَوَيْـلٌ لِلَّذِينَ كَفَـرُوا**) وعبارة (**مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ**) تشير الى موقفهم يـوم القيامة.

[38] (**أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا**)

لو تراهم ولو تسمعهم في ذلك اليوم الذي يـأتون فيه الى الله سبحانه لاكتشفت بأن الظـالمين في هـذه الـدنيا كانوا في ضلال مبين ، فبدل أن يبحثـوا عن طريقة لانقـاذ أنفسهم من نـار جهنم ، ومن أهـوال يـوم القيامة ، فـإنهم أخـذوا يبحثـون عن الـدنيا وعن بعض الشـهوات البسـيطة والأنانيات والخلقيات الضيقة.

(**أَسْــمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِــرْ**) أي ليكن ســمعك وبصــرك متوجها إلى هؤلاء في ذلك اليوم حتى ترى وتسمع واقعهم وهم يقفون خـائفين مـرتجفين في المشـهد العظيم أمـام الله سبحانه وتعالى.

(**لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**)

إن الظــالمين اليــوم في ضــلال ظــاهر يمنعهم عن إحساسهم بذلك عدم تصـورهم للمصـير ولو تصـوروه لما اختلفـوا ، بل اتخـذوا الـدين مقياسا لهم ، ولتحـاكموا إليه بدل أن يختلفوا فيه.

[39] (**وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ**)

أعمالهم ـ أفكارهم ــ طاقـاتهم تـذهب سـدى ، ويبقى لديهم شيء واحد يكون زادهم الى القيامة ، وهو الحسرة والندامة ، لأنه في ذلك اليوم لا يجدون طريقة للعـودة ولا يجــدون فرصة أخــرى لتصــحيح مســيرتهم وإصــلاح ما أفسدوه من أنفسهم.

(**وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**)

لكن النـاس اليـوم في غفلة عن ذلك اليـوم ، وهم لا يؤمنون ، وعند ما يزعمـون أنهم مؤمنـون فـإنهم يكـذبون لأنهم لو كــانوا كــذلك لما اختلفــوا ، ولما تحزّبــوا ، بل اعتصموا جميعا بحبل الله.

في الحديث الشـريف ، أنه يـؤتى يـوم القيامة بكبش أملح فيوضع بين أهل الجنة وأهل النــار ، بعد أن يســتقر أصـحاب الجنة في نعيمهم وأصـحاب النـار في جحيمهم ، فينادي المنادي يا أهل الجنة هل تعرفون هـذا الكبش؟ إنه الموت ، فيذبح ، فآنئذ تكـون الحسـرة الكـبرى لأهل النـار لأنهم لا يموتون فيتخلصون من العــذاب ، ولا يخفف عنهم العـذاب فيسـتريحون ، وإنه لو ظل المـوت موجـودا في الآخرة لمات أهل الجنة فرحا بنقل الموت عنهم وبقـاءهم خالدين في الجنة ، ولمات أهل النار حسرة على خلـودهم في النار.

الله الوارث :

[40] (**إِنَّا نَحْنُ نَــــرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها وَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ**)

هــذه الأرض وما عليها من مبــاهج ومتع ليست لهم ، انها بالتـالي تعـود إلينا فنحن الوارثـون لها ، وهم بـدورهم يعودون إلينا ليحاسبوا فلما ذا التحـزب والاختلاف من أجل هذه المتع الزائلة؟ من هنا نقـول : إن الخلافـات البشـرية خصوصا تلك الــتي تتقــولب ضــمن الأديــان والرســالات السماوية يجب أن ننسفها بطريقتين :

الطريقة الأولى : بتــذكرة النــاس بــربهم ، ليؤمنــوا بخالق الكون.

الطريقة الثانية : بتذكرة الناس بيوم القيامة.

ولو عـــرف النـــاس ربهم لانتهى الخلاف النـــابع من الجهل ، ولو عـــرف النـــاس أنهم ســـيبعثون في القيامة لانتهى الخلاف النـــابع من الجهالة ولأن الخلاف اما يـــأتي من الجهل وأما من الجهالة ، لا غيرهما فانه يتلاشى مع معرفة الله والايمان بالآخرة.

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِــدِّيقاً نَبِيًّا (41) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْــكَ شَــيْئاً (42) يا أَبَتِ إِنِّي قَــدْ جــاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَــوِيًّا (43) يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّــيْطانَ كـانَ لِلـرَّحْمنِ عَصِـيًّا (44) يا أَبَتِ إِنِّي أَخـافُ أَنْ يَمَسَّـكَ عَـذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا (45) قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْــــــراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَــــــهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْـتَغْفِرُ لَـكَ رَبِّي إِنَّهُ كـانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَــزِلُكُمْ وَما تَــدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسى

---

46 [واهجرني مليّا] : فارقني دهرا طويلا.
47 [حفيا] : برّا لطيفا.

أَلاَّ أَكُونَ بِـدُعاءِ رَبِّي شَـقِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَـزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)

وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ

هدى من الآيات :

علاقة الإنســـان بربه يجب أن تكـــون فـــوق علاقاته الأخرى بل تكون موجّهة لسائر العلاقـات ، وإطـارا لسـائر الروابط الاجتماعية ، وفي طليعتها رابطة الإنســـــــــان بأسرته.

ومن القضايا الطبيعية في حيـاة الإنسـان ، اسـتلهامه من أبيه : الفكــرة والخــبرة ، فالأجيــال البشــرية تتلاحق ويرث كل جيل ، أفكار السابقين ، ويورثها للاحقين ، والله سبحانه قد أركز في الإنسان غريزة التقليد واتبـاع الآبـاء ، كما أركز في الآبــاء غريــزة التعليم لنقل أفكــارهم الى أبنائهم بل وإكراههم عليها.

بيد إن هذه الغريزة التي هي من السنن الكونية يجب أن لا تـــترك بعيـــدة عن التوجيه ، بل على الإنســـان أن يوجهها في ذاته ويوجهها في الآخرين ، فـالابن الـذي يطيع والــده ويتبعه من دون تفكــير لا يكــون فقط عــاجزا عن ابتـداع تجـارب جديـدة ، بل يكـون أيضا غـير صـالح لنقل التجربة فالتجربة ينقلها جيل يكتوي بنارها ، ويعرف قيمتها ويسـتهلمها بإرادته وحريته ، أما الجيل الــذي يضــطر الى قبول تجربة السابقين

واستلهام أفكارهم فانه لا يمكنه أن يعـرف قيمة التجربة ، وبالتالي لا يمكنه أن يستفيد من هذه الخبرة شـيئا كثـيرا ، إذ يصبح آلة عمياء لا يستوعب الحقائق التي تجري حوله.

من هنا .. يركز القـرآن الحكيم في هـذه الآيـات على مسـألة نقل الأفكـار من الجيل السـابق الى الجيل اللاحق ويحدد في ذات الوقت طريقة التعامل بين الأجيال.

كثـيرا ما يفكر الجيل الناشئ فيجد أن أفكـار الأجيـال السابقة إنما هي أفكار خاطئة وغير سليمة ، ولذلك يتوجه هذا الجيل نحو التغيير والإصلاح وتطوير الأفكار والأساليب ، فيحدث الصراع بين الأجيـال ، كل جيل يوجه الحيـاة الى طرف معيّن وهذا ليس من مصـلحة المجتمع ، فـالمجتمع الــذي يعيش صــراع الأجيــال ينهــار بســرعة ولا تكتسب الأجيال الناشئة فيه تجارب الأجيال السابقة.

وفي هذه الآية الكريمة نجد القرآن الحكيم يركز على طريقة التعامل بين الأجيال ليقول : حـتى لو كـان الخلاف حــول محــور أساسي كعبــادة الله فينبغي أن يتم عــبر أساليب مرنة ، لذلك نجد إبراهيم يوجه خطابه لأبيه قائلا : «**سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي**».

ولكن إذا لم تنفع المرونة ينبغي أن يكـون الاعـتزال ، لأنه هو الحل الأخير ، فحينما وجد إبراهيم إن أبـاه لم يهتد ، وإن قضــية التوحيد لا يمكن أن تخضع لأهــواء والــده ولضلالات الأجيال السابقة ، فانه قرر أن يثور. ولكن كيف كانت ثورته؟

إنه لم يقتل أبـاه ، ولم يتمـرّد عليه ، وإنما اعـتزل ما يعبد بعد أن جادله بالحسنى وأعتقد أن هذين الاسـلوبين ، الأسـلوب المـرن ثم أسـلوب الاعـتزال هما أمثل طريقة للتعامل بين الأجيــال في قضــايا الصــراع وفي حــالات التغيير.

هناك ملاحظة تبدو في هذه الآيـات وهي : إن القـرآن الحكيم يركز الضـوء هنا على مشـهد واحد فقط من قصة إبــراهيم الخليل (عليه الصــلاة والســلام) ، وهو مشــهد الحوار مع أبيه ، بينما ترك سائر المشاهد كمشهد صـراعه مع النظام القائم ومع المجتمع الجاهلي ، ولعل السبب ان هذه السورة تركز على موضـوع علاقة الإنسـان بأسـرته ، وعلاقته بالأقربين إليه.

كما إن القـرآن الحكيم يـبيّن حقيقة أخـرى وهي : إن الإنسان الـذي يـترك أهله ويعـتزلهم لوجه الله ، فـان الله سـبحانه سـوف يعوضه بـآخرين ، أحسن منهم ، والقـرآن الحكيم يؤكد هــذه الفكــرة في هــذا المشــهد من حيــاة إبراهيم الخليل ، حيث يبيّن بأن الله قد عوّضه عن أسـرته السابقة بأسرة جديدة ، وجيل جديد ، ووهب له إسـماعيل وإسـحاق ويعقـوب وذريّة طيّبة منهم ، ونجد تكـرارا لهـذه الفكرة في الدرس القادم.

بيّنات من الآيات :

[41] (**وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا**)

كان إبراهيم قدوة وكان صـدّيقا ، صـدّق بكل ما أنزله الله ، ان بعض النـاس يصـدّقون ويعملـون بما أنـزل الله ولكن بشرط أن لا يتعارض ومصالحهم ، أو لا يكون صـعبا ، بينما إبراهيم كان صدّيقا آمن بكل ما أنزله الله من هدى وبرامج برغم كل الضغوط والصـعوبات ، وكـان نبيّا مرسلا من قبل الله.

[42] (**إِذْ قالَ لِأَبِيـهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُـدُ ما لا يَسْـمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً**)

لقد وصل إبراهيم بفطرته وبهـدى ربه الى نتيجة وهي : إن عبادة الآلهة الحجرية خطأ لأنها لا تبصر ولا تسـمع ولا تستطيع أن تفعل شيئا.

في كثــير من الأوقــات يصل أبنــاء البشر الى نقطة محورية فطرية واضـحة ولكنهم بعدئذ يـتركون الأمر ، ولا يفكـرون تفكـيرا جـدّيا في متابعة ما توصـلوا إليه ، بل كل إنسان يعيش في مجتمع فاسد تبرق له بعض الأحيـان من هدى ربه بارقة هدى ، لو سار وراءها لاهتدى ، ولذلك نرى إن هـؤلاء الـذين يعيشـون في أقاصي الأرض بعيـدين عن هــدى الرســالات الإلهية ، تبقى لله عليهم حجة تتمثل في أنهم في بعض لحظـات حيـاتهم يصـلون الى بعض النتـائج الأولية ، ويجب أن تكـــون لـــديهم الشـــجاعة الكافية للاستمرار في الأخذ بها والبحث عمّا وراءها ، أما إذا كانوا جبنــاء فلله عليهم حجة ، لما ذا جبنــوا ولما ذا لم يهتــدوا بنور عقلهم حين أضاء لهم الطريق؟

بعد رحلة قفل أبو ذر الغفـــــــاري راجعا الى قبيلته ، واتجه الى صنمها يتبرك به كعادتهم حين يعودون من سفر يبدءون بأصنامهم فبرقت في نفسه بارقة هـدى؟! فسـأل نفسه : إن الصــنم ليس إلا صــخرة صــمّاء ، فلما ذا أعبد الحجر الأصم؟ وما عساه أن يفعل بي؟ فقــرر أن يجربه ، ففكر في خطة بـأن يضع أمـام الصـنم شـيئا من الطعـام والشـراب ، فـاذا أكل وشـرب فلا بد أنه على حق وهكـذا فعل ، فوضع أمامه قـــدحا من اللبن وجلس عنـــده ناحية يراقب ، فلم يطعم الصنم شيئا فقال : ربما يخجل مــني ، فــذهب واختبأ وراء صــخرة وأخذ يراقبه ، وبعد فــترة إذا بثعلبـان يأتيـان ويشـربان اللبن ، ثم يتبـولان على الصـنم ويغادران المكان دون أن يمسهما الصـنم بـأذى فأنشد أبو ذر يقول :

أربّ يبول الثعلبـان برأسه	لقد هـــان من بـــالت عليه الثعـــــــــــــــــالب

فترك عبادة الأصنام.

إن مثل هــذا المشــهد كــان يتكــرر عند كثــيرين في التاريخ الجاهلي ، ولكن لم يكن أحدهم يمتلك شجاعة أبي ذر ، لذلك فـأنهم كـانوا يسـايرون الأوضـاع الفاسـدة ، ولا يجدون في أنفسهم حرجا من ذلك؟

إن الإنسان قد يفكر تفكيرا حرّا وعلى أثر تفكيره هذا يكتشف انحرافا كبيرا فيهتدي بسببه الى كل البرامج الرسالية ، فاذا عارضة والداه في تلك النقطة ستتكشف له سائر النقاط وتصبح هذه النقطة البسيطة بداية المسيرة طويلة ، هكذا نجد إبراهيم يقول لوالده : «**يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً**» ..

وحينما اكتشف إبراهيم تلك النقطة تشجع واستمر في محاولات الكشف ، فكشفت له نقطة أخرى وهي : إن إتباعه لأبيه خطأ ، لأن أباه يعبد صنما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني شيئا.

إن هذه قفزة جديدة لا يصل إليها الإنسان عادة ، خصوصا الإنسان الذي يعيش في جوّ عائلي مغلق يفرض عليه إتباع والده ، لكن إبراهيم وصل الى تلك القفزة بشجاعته وباتباعه لفطرته ...

ولاية الشيطان :

[43] (**يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ**)

إن مقياس الطاعة والتقليد هو العلم ، فاذا كنت أنا أعلم منك فلا بد أن تكون أنت الذي تطيعني وليس العكس! ..

(**فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا**)

واجه إبراهيم (ع) أباه بهذه الشجاعة ، حيث طلب منه أن يتّبعه لأنه يمتلك العلم ، وهذه إشارة بأن الاعتبار الأول في القيادة العلم ، وليس شرطا عمر القائد أو منزلته.

[44] (**يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا**)

عرض إبراهيم على أبيه في البداية أن لا يعبد الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ، وهنا يقول له : لا تعبد الشيطان ، فالشيطان هنا هو الذي يتجسد لهم على صورة صـنم ، أو على شكل ووساوس نفسية فيزين لهم عبـادة غـير الله ، وما دام الشـيطان عصـيا لله ، فهو ـ بطبيعة الحـال ـ لا يهدي الى سبيل الرشاد ، بل يقود الناس على ما هو عليه من العصيان.

لما ذا وضع الله كلمة (الرحمن) في مقابل الشـيطان ، ولم يضع مثلا «الــرب»؟ ربما لكي يوضح حقيقة هامة ، وهي إن الشيطان هو حالة ضد الرحمة ونقيض لها.

وعموما فليس المقصود من عبادتهم الشيطان مجـرد عبـادة الصـنم الـذي لا يضر ولا ينفع ، بل المقصـود أيضا عبادة الشيطان المتمثل في الطواغيت أو سـدنة الأصـنام الذين ينتفعون مباشرة من عبادة هؤلاء.

[45] (**يا أَبَتِ إِنِّي أَخـافُ أَنْ يَمَسَّـكَ عَـذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا**)

إن الإنسـان الـذي يريد أن يجمع بين الحق والباطل ، بين الهـدى والضـلال ، بين الخـير والشر ، فانه سـيجد أن الخير والهدى قد تبخرا ولم يبق معه سوى الشر والضلالة ، إذ لا يمكن أن يجتمع عند الإنسـان الخـير والشر معا ولا بد أن يـــذهب أحـــدهما وإذا تمـــادى البشر في عبـــادة الشـيطان فـان الله يسـلب منه ضـوء العقل فيصـبح وليا للشـــيطان الى الأبد ، وهــذا عــذاب عظيم يمس الــذين يتبعون الشيطان.

ولعلّ الآية تنفي ـ بصـورة إيحائية ـ فكـرة ضـالة يبثها الشــيطان في روع تابعيه خلاصــتها : إن الله يبغضه وإنما الشيطان يحميه من غضب الـرب .. ويسـفه السـياق هـذا الزعم.

أولا : بـأن الله هو الـرحمن. ولا يبغض أحـدا لذاته بل بسبب فعاله القبيحة.

وثانيا : إنّ إتباع الشيطان عذاب وشر مستطير وليس فيه أية فائدة.

هذا هو حوار إبراهيم الذي يتميّز بعدة سمات :

أولا : إنه حوار هادئ.

ثانيا : إنه يتـدرج ويتصـاعد شـيئا فشـيئا ، ففي البداية يقول لم؟ ثم يقول لا تعبد ، ثم يقول اتبعـني ، ثم يقــول : إنه يخشى أن تكون وليّا للشيطان.

في الواقع إن عم إبراهيم الـذي يخاطبه إبـراهيم (ع) بـالأب لأنه كـان يعيش في بيته كـان فعلا وليا للشـيطان ، بيد إن إبــراهيم لم يجابهه بالحقيقة مــرة واحــدة ، ولكن لننظر الى الآخر ما ذا يقول في حوارة ...

الإرهاب في المحيط العائلي :

[46] (**قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ**)

لم يقل أراغب أنت عن الحق يا إبـــراهيم ، لأن الحق والباطل لم يكن محــورا لعمل «آزر» عم إبــراهيم ، إنما قال عن آلهتي لأنه أراد أن يفرض سيطرته وهيمنته.

(**لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ**)

هذا هو الإرهاب العائلي يقول : لأن لم تنته لأرجمنّك ، وأرجمنك اما بمعـــنى أن أقــذفك بالحجــارة كما يـــرجم مرتكبوا الكبائر ، وهو أشد أنواع الاعدام ، واما بمعنى اني لأرجمنّك بالضــلالة فــأقول إنك مــارق ، أو أتهمك بتهمة كبيرة أمام المجتمع. ومن سـياق الآية يتـبيّن أن المقصـود هو المعنى الثاني للرجم وليس الاعدام.

(**وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا**)

في البداية هـدده بـالرجم والتشـهير ، ثم أمـره بـأن يهجره ، أي يخـرج من بيته نهائيا وهـذه عملية نراها اليـوم عادة بين الآبـاء ، حيث يقـوم الواحد منهم بطـرد ولـده إذا وجد لديه عملا ثوريّا أو أنه ينتمي الى حركة إســـلامية أو يقوم بنشاطات سياسية ...

مواجهة الإرهاب :

[47] عند ما رأى إبراهيم إن الأمر قد وصل الى هـذا الحد ، وإنه إذا هجر أســرته فانه ســوف تتكــرس فيهم ضلالتهم ، لذلك :

(**قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ**)

لعلّ إبـراهيم (ع) كـان يريد أن يتبع تكتيكا آخر بعد أن وصـلت مواجهته الصـريحة مع أبيه الى طريق مســدود ، وهو أن يبحث عن وســائط خــير يمكن أن يقنعــوا الأب بدعوته الحقة ، وهـذه الفكـرة الـتي نسـتوحيها من الآية تفيـدنا كثـيرا في حياتنا العملية ، إذ أن كثـيرا من الشـباب الـذين تتفتح بصـائرهم على الهداية والايمـان يريـدون أن ينقلــوا تلك الهداية الى آبــائهم أو أعمــامهم أو إخــوانهم الكبــار ، ولكنهم غالبا ما يصــطدمون بــالحواجز التقليدية الـتي تحـول دون تقبل هـؤلاء ممن هم أصـغر منهم سـنّا وتجربة ، فلا يكـون أمـام الأولاد إلا أن يلجـأوا الى الطـرق غـير المباشـرة فيبحثـون عن أصـدقاء أو معـارف لآبـائهم يشترط فيهم كبر السن والـوعي الثـوري ، ليقومـوا بـدور الوسيط في تبليغ الرسالة.

(**سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا**)

قال إبراهيم لأبيه سأطلب لك المغفرة من الله ، فهو يحبني ويبرّ إليّ ، وكان إبـراهيم في اسـتغفاره يريد هداية أبيه ، كما جاء في آية أخرى ، فلما تبيّن له إن أبـاه لا يريد أن يهتدي وأنه مصرّ على الضلال تركه وشأنه.

[48] (**وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا**)

يقول إبراهيم لأبيه أنت تريد أن تطـردني من الـبيت ، وتقول لي واهجرني مليّا ، حسنا ـ فأنا بدوري سوف أعـتز لكم وأترككم ، ولكن حين أترككم ، فـأن عنـدي ملجأ آخر ألتجأ إليه وهو الذي يبعد عني الشـقاء حينما أدعـوه وألتجأ إليه ، بلى إنه الله ربّي.

الأسرة الفاضلة :

[49] (**فَلَمَّا اعْتَـزَلَهُمْ وَما يَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللـهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ**)

لقد أصبح إبراهيم مؤسسا لحضـارة ، ولخط فكـري ، فوهب له الله من رحمته إسحاق ويعقوب.

(**وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا**)

إن الله وهب لإبـراهيم إسـحاق وإسـماعيل أخـوين ، ولكن القــرآن يقــول وهبنا له إســحاق ويعقــوب ليــبين استمرارية الخط الرسالي.

[50] (**وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا**)

لقد أصبح هؤلاء مضـرب الأمثـال في العـالم ، فحينما يريد الناس أن يضربوا مثلا لأسرة فاضلة ، فأنهم يضربون إبراهيم وأبنـاءه مثلا لـذلك ، ولا يـزال هـذا الأمر منذ أكـثر من خمسة آلاف سـنة وإلى هـذا اليـوم ، فهنـاك أكـثر من ألفي مليون إنسان في العالم يكرمـون إبـراهيم (ع) عـبر التاريخ ، وهذا بعض معاني لسان صدق عليّا أي ان

الناس يلهجون بذكرهم ، وصـحيحا ما يلهجـون وصـادقا ما يقولون.

وهكذا نجد إبـراهيم (ع) تـرك والـده وقومه وهجـرهم ولكن بعد أن أتمّ الحجة عليهم ، وحـــــاول بكل جهـــــده هدايتهم ، وحين تركهم عوّضه الله بأفضل منهم ، وجعلهم قدوة صالحة للآخرين.

إذن فعلاقتنا بآبائنا وبمن حولنا يجب أن تكـــون علاقة رسالية يوجهها التوحيد والايمان بالله تعالى.

وفكرة أخـيرة : إن المجتمعـات الثورية الرسـالية هي المجتمعــات الــتي لا تخضع للارهــاب ، ولكن كيف يمكن للإنسان أن يتحرر من الإرهاب وكيف يقاومه؟

إن ذلك يكــون عن طريق بنــاء أســرته على أســاس الحرية ، لأنّ الفرد الذي يخضع في بيته لإرهاب والــده ، لا يمكنه أن يقاوم إرهـاب النظـام ، فإرهـاب النظـام صـورة لإرهاب الأسـرة ، وإذا تحـرر الإنسـان من إرهـاب الأسـرة واستطاع أن ينقذ نفسه من ذلك المجتمع الضيق الخانق ، فانه يستطيع غـدا أن يقـاوم إرهـاب السـلطات الجـائرة ، وأمّا الذي يخضع لوالده كليا خشـية بطشه اليـوم فكيف لا يخضع للنظام الفاسد غدا؟!

إن الأسرة هي الأم الحقيقية للمجتمع لذلك فأن قصة إبراهيم مع والده تـبين لنا : إن الخطـوة الأولى في تحرير المجتمع هي تحرير الأسرة من الإرهاب والضغط الفكـري ..

وَاذْكُـرْ فِي الْكِتـابِ مُوسى إِنَّهُ كـانَ مُخْلَصـاً وَكـانَ رَسُـولاً نَبِيًّا (51) وَنادَيْنـاهُ مِنْ جـانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنـــاهُ نَجِيًّا (52) وَوَهَبْنا لَـــهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخـــاهُ هـارُونَ نَبِيًّا (53) وَاذْكُـرْ فِي الْكِتـابِ إِسْـماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا (54) وَكـانَ يَـأْمُرُ أَهْلَـهُ بِالصَّـلاةِ وَالزَّكـاةِ وَكـانَ عِنْـدَ رَبِّهِ مَرْضِـيًّا (55) وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كـانَ صِـدِّيقاً نَبِيًّا (56) وَرَفَعْنـــاهُ مَكانـــاً عَلِيًّا (57) أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللـــهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْـراهِيمَ وَإِسْـرائِيلَ وَمِمَّنْ هَـدَيْنا وَاجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا (58) فَخَلَـفَ مِنْ بَعْـدِهِمْ خَلْـفٌ أَضـاعُوا الصَّـلاةَ وَاتَّبَعُـوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59)

---

59 [غيّا] : جزاء الضلال.

القدوات الرسالية

هدى من الآيات :

لكي تكون علاقات الإنسان إيمانية سـليمة مع أسـرته ، وبالــذات مع والــده وأبنائه وأخواته فانه يحتــاج إلى أن يقتدي بأولياء صالحين يتخذ من حياتهم أسوة لتصرفاته.

وفي سـورة مـريم يـذكرنا القـرآن الحكيم ببعض تلك القـدوات الصـالحة ، كما يضـرب لنا مثلا من أمثلة السـوء الذين عكسوا الآية ، وكـانت علاقـاتهم سـيئة بالنسـبة الى أسرهم.

فمن جهة نــــرى موسى (ع) يتخذ من أخيه هــــارون مســـاعدا له في تبليغ رســـالته ، وتربطه مع أخيه علاقة رســالية هــدفها تبليغ الرســالة الالهية ، وذلك لأنه كــان ملخصا قد أخلص نفسه لله ، وانصــهر في بوتقة الايمــان فانزاحت عنه سلبيات البشر ، لذلك فهو لم يفكر أن يتخذ من أخيه وسيلة للفخر والغـرور أو أن تكـون علاقته بأخيه مصـلحية شخصـيّة ، بل إنه اسـتفاد من هـذه العلاقة من أجل الرسالة.

ونرى إسماعيل الذي كان صادق الوعد مع الآخـرين ، تربطه بأهله علاقة فريـــدة ، حيث انه كـــان يـــأمر أهله بالصــلاة والزكــاة ، ولــذلك فقد كــان مرضــيّا عند الله سبحانه.

إن هـؤلاء زكريا وابنه يحـيى ، ومـريم وابنها عيسى ، وكــذلك موسى وأخــاه هــارون ، وإســماعيل وأهل بيته إبراهيم وأبناءه ، يجب أن يصبحوا قدوات لنا.

من جهة أخرى نرى في الطـرف الآخر ذرّيتهم الـذين كـان ينبغي أن يكونـوا لا أقلا مثلهم أو في مسـتواهم ، قد ضيّعوا الصلاة ، وتركوا عبادة الله ، واتبعوا شهواتهم.

بيّنات من الآيات :

موسى النبيّ المخلص :

[51] (**وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى**)

ذكر موسى ، وذكر ســائر الأنبيــاء في القــرآن ، إنما كان من أجل أن يتخذوا قدوة وأسوة.

انّ من المســــــتحبات الأساســـــية ، بل أحيانا من الواجبات ، الصلاة على محمد وآل محمد لأننا حينما نــذكر رسـول الله (ص) فاننا نتـذكر صـفاته وسـلوكه ، وبالتـالي نبحث في حياتنا عمّا يوافق حياة الرسول ونهتدي بهـداه ، وهكــذا يســتحب ذكر النبــيين والســلام عليهم بين الحين والآخر لتوثيق الصــلة الروحية بهم ، وذلك بهــدف إتبــاع نهجهم الصــائب والقــرآن الحكيم يؤكد هــذه الفكــرة هنا فيقــــــول : (**وَاذْكُــــــرْ فِي الْكِتـــــابِ مُوسى**) ، (**وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْـماعِيلَ**) ، (**وَاذْكُـرْ فِي الْكِتـابِ إِدْرِيسَ**) .. إلخ لكي نشـعر بأننا لســنا وحيـدين في رحلة الايمـان الطويلة ، فحينما نتحــرك ومعنا إبــراهيم وعيسى ويحيى وموسى وإسماعيل فاننا سوف نستلهم منهم

الاستقامة والصمود كلما ضعفنا أو أصابنا الوهن.

(**إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً**)

لقد كـــانت علاقة موسى بالله خالصة ، وإذا كـــانت علاقتك أيها المؤمن بالله كـذلك ، فـأن لك علاقة أيضا مع موسى ، إذ أنه سيصـــبح أخا لك في الايمـــان. وقـــدوة صالحة.

(**وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا**)

فموسى هو أخوك في الإيمـان وأبـوك بالاقتـداء ، من جهة هو أخوك لأنه كـان مخلصا لله في علاقته ، ومن جهة أخرى هو بمنزلة أبيك لأنه كان نبيا ورسولا إليك.

[52] (**وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ**)

إن الإنسان ليشـعر بالاطمئنـان حينما يـرى إن واحـدا من بـني جنسه قد تقـرب الى الله بهـذا المسـتوى ، حيث ناداه الله وتحدث معه بصـورة مباشـرة من جـانب الطـور الأيمن والطور هو الجبل.

(**وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا**)

لو أن أحـدا كـان على مسـافة منك وهو يحـدّثك فـأن ذلك لا يعتـــبر نجـــوى ، بينما حين يقـــترب منك ويكلمك حينذاك يصبح حديثه نجوى. لقد قرّب الله موسى وتنـاجي معه ، فـأيّ مسـتوى هـذا الـذي يرتفع إليه الإنسـان حينما يتكلم الله معه ويناجيه؟!

إن الإنسـان لا يمكن أن يصـبح الله ، ولكن يمكنه أن يصبح قريبا من الله ، وهذا هو أفضل كرامة له على سائر خلق الله.

[53] (**وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا**)
ان من النعم العظيمة الـــــــتي تفضل الله بها على موسى انّه اســتجاب لدعائه فجعل أخــاه هــارون نبيّا معه ليؤازره في مهمته العظيمة.

إسماعيل صادق الوعد :

[54] (**وَاذْكُــرْ فِي الْكِتــابِ إِسْــماعِيلَ إِنَّهُ كــانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا**)
لقد جــاء في الحــديث الشــريف ان إســماعيل هو إسماعيل بن حزقيل وليس إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، وانه قد تواعد مع شـــــــخص خلف جبل ، فنسي الرجل موعده ولكن إسماعيل ظلّ ينتظره في مكانه عاما كاملا. وحــدث ان مر الشــخص صــدفة في نفس المكــان فوجد إسماعيل ينتظره ، فلذلك سمّي بصادق الوعد.

ثلاث قواعد في التربية :

[55] (**وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا**)
لقد كان يسـتفيد من علاقة الأبـوّة الـتي تربطه بأبنائه من أجل الله لكي يأمرهم بالاتصال الدائم معه عن طريق الصلاة والزكاة.
في هذه القطعة من الآية ثلاث ايحاءات :
الإيحـاء الاول : ان من أهم أركـان التربية العائلية هي تربية الأبنـاء على الصـلاة ، لأنها أسـاس سـائر الأعمـال الصالحة ، وهي تقرّب الإنسان الى الله.
ليس من المهم أن تلقّن طفلك كل صــغيرة وكبــيرة من الواجبـــــات والاخلاقيـــــات ، بل الأهم من ذلك هو أن تربطه بالله برابطة الايمــان ، وذلك عن طريق الصــلاة ، فاذا

أصبح الولد مؤمنا صـادقا في طفولته ، فانه سـوف يبحث عن الواجبات بل المندوبة عند ما يكبر ، اما إذا كان ايمانه غـير ثـابت من الأسـاس ، فلن ينفعه علمه بكل تعـاليم الدين.

ان الصـلاة عملية منتظمة والقيـام بها خمس مـرات في اليوم شيء صعب ، لذلك فان الإنسـان يحتـاج الى ان يتعوّد عليها من الصـغر ، وإذ ذاك تصـبح جـزءا من حياته ، وضرورة لا يستغني عنها.

الإيحـاء الثـاني : الزكـاة قد تكـون بمعـنى الفريضة الخاصة التي تتعلق بالغلّات الأربع والانعام الثلاث والنقدين ، وقد تعـني مطلق العطـاء والإنفـاق ، وهي بنوعيها تـربي الأبناء على الخروج من الذات الى الاهتمام بالآخرين.

الإيحاء الثالث : اننا نجد في سورة مريم تكرار معـنى : الرضا وما يخالفه من التجـبر والشـقاء ، وهـذا التكـرار يعود لسببين :

الاول : أن الإنســان يجب ان يــربي طفله على أن يكـون متكامل الشخصـية ، حـتى يكـون مرضـيّا ، يرضى الناس عنه في سلوكياته وتصـرفاته ، وبتعبـير علمي يجب تنمية حسّ التوافق الاجتماعي عند الطفل تنمية سـليمة ، لكي لا يصــبح غــير مبــال بــالآخرين ، بل يفكر فيهم ويرضيهم.

الثــاني : ان طبيعة الإنســان ان يكــون مقبــولا في المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه ، ومن واجب الوالدين ان يربّيا أولادهما بحيث تكـون هـذه الصـفة الطبيعية فيهم متجهة الى الله ، أي في حدود تقوى الله ومناهج رسالته.

إدريس الصديق :

[56] (**وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِـدِّيقاً نَبِيًّا**)

اما إدريس فان القرآن يذكرنا بصفة من صفاته الــتي يجب أن تتوفر عند الإنسـان وهي كونه صـدّيقا. والصـدّيق صــيغة مبالغة من صــفة الصــادق وهو الــذي يصــدق في المواقف الصعبة ، ويكون الصدق صبغة لحياته كلها.

يمكن ملاحظة ان ذكر الأنبيـاء في عـدة آيـات يكـون مسبوقا بصفات مختلفة ، فترى مثلا (**وَكـانَ رَسُـولاً نَبِيًّا كـانَ صـادِقَ الْوَعْـدِ وَكـانَ رَسُـولاً نَبِيًّا**) ، (**إِنَّهُ كـانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا**). مما يـوحي إلينا فيما يبـدو : ان من أسـباب نبوة هؤلاء هي تلك الصفات الفاضلة التي تحلّوا بها.

فمن دواعي نبوة أحدهم رسالته ، فحينما يبدأ شخص بحمل رسالة الله بفطرته ، فان الله يختاره نبيا ، لقد كان إبراهيم منذ طفولته يحاور والده ويتكلم معه حـول عبـادة الأصـنام ، وكثـير من الأنبيـاء كـانوا يحملـون الرسـالة قبل النبـوة ، وذلك لان الرسـالة موجـودة في وجـدانهم ، فـإذا حملها الإنسـان ورأى الله منه الصـدق فانه يرزقه النبـوّة.

وأمّا لما ذا سبقت كلمة (الرسول) كلمة (النـبي) في الآية (رسولا نبيـا) للاشـارة الى ان وسـام الرسـالة اقـدس من وسام النبوة وأعلى درجة.

وبالنســبة لإســماعيل ربما كــان صــدقه لوعــده هو السبب الذي أهّله لحمل الرسـالة ، كما أن صـفة الصـدق هي الــتي أهّلت إدريس لحمل رســالة الله ، حيث ان الله يختــار رســله من الصــادقين العــاملين ، ولا يختــار من لا تتوفر فيهم هذه الصــفات فيقــول ربنا : (**اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ**).

[57] (**وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا**)

إذا أردت العلو ، فكن صـــــــــدّيقا مثل إدريس ، لان الصـادق يحبه النـاس ويرفعونه ، فـيرتفع بين جماعته الى منزلة عالية.

الذرية الصالحة والخلف الصالح :

[58] (**أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللـهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَإِسْرائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا**)

هؤلاء هم الذرية الصالحة التي يجب أن تكيف أسرتك وفق هـداها. ولعل تأكيد القـرآن الحكيم على كلمة الذرية هنا يشير الى هذه الفكرة.

(**إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آيـاتُ الـرَّحْمنِ خَـرُّوا سُـجَّداً وَبُكِيًّا**)

ان الصـفة الهامة الـتي وجـدت في هـؤلاء بعد هداية الله واجتبائه لهم هي علاقتهم بالله وقربهم الروحي منه ، وهذا أعلى وسام يحمله الإنسان المؤمن الصادق.

ان المؤمـنين حينما تتلى عليهم آيـات الرحمـان وما فيها من أوامر ونـواهي وبـرامج واخلاقيـات ، فـإنهم يسـجدون دلالة على تقبلهم ، وعلامة على اسـتعدادهم لتطبيقها.

ان السـجود هو إظهـار الخشـوع خارجيا ، اما البكـاء فهو إظهار الخشـوع نفسـيا ، لان نفسـية الإنسـان تتفاعل مع الموعظة فتجري دموعه ، وهـؤلاء قد خشـعوا بهيـأتهم وكذلك بنفوسهم فخروا سجدا وبكيّا.

[59] (**فَخَلَفَ مِنْ بَعْـدِهِمْ خَلْـفٌ أَضـاعُوا الصَّـلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**)

وهـؤلاء هم النمـوذج الآخر وهم الأمثلة السـيئة ، فقد أضاعوا الركن الاساسي للدين مما سبب فسـاد حيـاتهم ، والركن الأساسي هو الصلاة.

والقرآن لم يقل تركوا الصـلاة ، بل أضـاعوا الصـلاة ، وهذا يشمل بالاضـافة الى معـنى تـرك الصـلاة معـنى آخر وهو تحويل الصلاة الى هيئة فارغة لا محتوى فيها ،

فالصلاة الحقيقية هي صـلاة المؤمـنين الـذين يقـول عنهم ربنا ســـبحانه : (**الَّذِينَ هُمْ فِي صَـــلاتِهِمْ خاشِـــعُونَ**). وهؤلاء الذين أضاعوا الصـلاة واتبعـوا أهـواءهم وشـهواتهم فـإنهم سـوف يسـيرون في طريق الغواية والضـلالة بـدل الهدى ..

إِلاَّ مَنْ تــابَ وَآمَنَ وَعَمِــلَ صــالِحاً فَأُولئِكَ يَـدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (60) جَنَّاتِ عَـدْنٍ الَّتِي وَعَـدَ الرَّحْمنُ عِبـادَهُ بِـالْغَيْبِ إِنَّهُ كـانَ وَعْـدُهُ مَأْتِيًّا (61) لا يَسْــمَعُونَ فِيها لَغْــواً إِلاَّ سَــلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِـيًّا (62) تِلْـكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُـورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا (63) وَما نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِـكَ وَما كـانَ رَبُّكَ نَسِـيًّا (64) رَبُّ السَّـــماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَاعْبُـــدْهُ وَاصْـطَبِرْ لِعِبادَتِـهِ هَـلْ تَعْلَمُ لَـهُ سَـمِيًّا (65) وَيَقُـولُ الْإِنْسانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً (67)

الآخرة حصاد الدنيا

هدى من الآيات :

الاسرة الفاضلة في الدنيا هي الاسرة التي تصـنع في بيتها جنة معنوية تشـــبه الى حـــدّ بعيد جنّــات عـــدن في الآخـرة. ومن عـاش في الجنـان في الـدنيا فحـريّ به ان يعيشـها في الآخـرة ، فجنة الآخـرة تـوفر للإنسـان الراحة الروحية والرفاه الجسـدي ، وكـذلك الاسـرة الفاضـلة في الدنيا ، أما الراحة المعنوية فهي السـلام ، البعيد عن اللغو ، والذي هو قمة تطلع الإنسان في الحيـاة ، فحين لا يوجد ألم ولا مرض ولا خوف ولا حزن ولا عقد نفسـية ولا حسد ، وما الى ذلك مما تنغص حيـــاة الإنســـان ، فآنئذ يعيش الإنسـان في جـوّ من السـلام يشـمل العافية بكل أبعادها والنجاة من الأخطار جميعها.

ويوم القيامة يدخل ربنا سـبحانه المتقين جنة السـلام الخالـدة ، لان المتقين قد ابتعـدوا عن كل ما يسـبب لهم انحرافا أو فســادا في الــدنيا ، فــالآخرة حصــيلة الــدنيا وانعكـــاس لها ، وحسب ما يفيـــدنا القـــرآن الحكيم : ان الآخـــرة هي إرث الـــدنيا ، فما تعمل في الـــدنيا ترثه في الآخرة.

ان الصـفات السـيئة لها جـزاء في الـدنيا وجـزاء في الآخرة ، فنار الحسد تأكل الإنسـان في الـدنيا مـرة ، وفي الآخــرة مــرة ، وثعبــان الحقد يلــدغ الإنســان في الــدنيا بطريقة ، ويلدغه في الآخرة بطريقة اخرى ، وفي الآخــرة يــرى الإنســان الحقد في صــورة ثعبــان عظيم أو عقربة ضـخمة تلدغه ، أما في الـدنيا فـان ذات الحقد يلـدغ قلب الإنســـان ، ولكن دون أن يتجسد في ثعبـــان ظـــاهر ، ولا فرق بين أن يلدغ جسمه هنـاك أو يلـدغ قلبه هنـا. وهكـذا سـائر الصـفات «**وَمَنْ كـانَ فِي هـذِهِ أَعْمى فَهُـوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً**».

وهكذا نعلم بأن جهنم الآخرة انعكاس لجهنم الدنيا ولا أقــول : ان جهنم هنــاك رمز لجهنم هنا كلا .. لان عــذاب جهنم في الآخرة أشدّ ألما وأشد ظهورا وهي حصيلة هـذه وحصاده ، من هنا تأتي آيـات القـرآن تعـبر لنا عن الإرث ، فما هو الإرث ،؟ أليس يعني : أن تعمل ثم يـأتي الآخـرون ليأخـذوا نتيجة عملك بعد ما تمـوت ، وقد لا يـأتي إنسـان آخر ليأخذ ارثك وانما تكـون أنت نفسك بعد موتك تأخذ ما كسبت ، وهذا نوع آخر من أنواع الإرث «**وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً**».

هناك شبهة عميقة الجـذور في فكر الإنسـان ، تقـول بأنه كيف يمكن للإنسان ان يبعث من بعد الموت؟

ان مصــدر هــذه الغرابة جهل الإنســان ببداية خلقه ، فلو عرف الإنسـان كيف خلقه الله وما ذا كـان قبل ذلك ، ولو تذكر الإنسان أنه كان نطفة في صـلب أبيه أو مضـغة في رحم أمه أو طفلا وليدا لا يتجـاوز وزنه (3) كيلو غراما ، لو تــذكر كل ذلك آنئذ يتحسس بـأن الـذي خلقه وربّـاه قادر على أن يحيله الى تراب ثم يخلقه مرة اخرى.

ان تــذكّر هــذه الحقيقة بصــورة مســتمرة يرفع عن الإنسان حجاب الغفلة عن

الآخرة.

ان شـبهات الجهل في قلب الإنسـان تشـبه (الفطـر) الـذي يتكـاثر باسـتمرار ، هـذه هي طبيعة الشـبهة الناتجة عن الضعف البشري ، أنت تجوع وتشبع ، ثم تجوع فتشبع .. وهكـذا تحتـاج أبـدا الى الطعـام حـتى تمنع عن نفسك الجوع ، لماذا؟ لان الجـوع من طبيعتك ، كـذلك الشـبهات في قلب الإنســان .. هي من طبيعته ، إذ طبيعة الإنســان الجهل والغفلة والنســيان. فــاذا قــرأت كتابا ثم لم تعد قراءته ، أو سمعت خطابا ثم لم نستمع اليه مرة أخــرى ، فانك بمــرور الزمــان تنسى ما قــرأت وما سـمعت ، لان الجهل والغفلة من طبعك ، كــذلك الشــبهات من طبيعة الإنسان ، لذلك على الإنسان ان لا يكتفي بـدفع الشـبهات عن نفسه مرة واحـدة ، لأنه إذا رفعها عـادت ونمت نفس الشبهة.

إذا يحتـاج الفــرد الى مبضع يقــوم بواســطته بعملية جراحية مسـتمرة لقلع الخلايا السـرطانية الفاسـدة الـتي تتكاثر في قلبه ، وذلك عن طريق التذكر المستمر.

وهكذا يوجهنا القـرآن الحكيم في مجـال الحـديث عن البعث الى ان نتذكر أبـدا ، كيف كنـا؟ وكيف خلقنـا؟ وكما كنا وخلقنا وترعرعنا ، كــذلك يعيــدنا الله ســبحانه مــرة أخرى.

بينات من الآيات :

وعد الرحمن :

[60] (**إِلَّا مَنْ تـابَ وَآمَنَ وَعَمِـلَ صـالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً**)

يـبين القــرآن في هـذا السـياق ثلاث مراحل مـرّ بها المجتمع :

مرحلة الـــــروّاد والقـــــادة وهم (الأنبيـــــاء) ومرحلة الانحـــراف بعـــدهم الـــذي قـــال عنه ربنا في آية أخـــرى : (**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّـلاةَ**) ، ومن رحم هـذا الجيل جـاءت طائفة مثلت المرحلة الثالثة حيث أنهم تحدوا سلبيات هذا الجيل الفاسد وتـابوا وأصـلحوا ، فهيّء الرب لهم الجنات.

[61] (**جَنَّاتِ عَـدْنٍ الَّتِي وَعَـدَ الـرَّحْمنُ عِبـادَهُ بِالْغَيْبِ**)

ان الجنات لا ترى بالشهود ، بل بـالغيب وقد قلت في حديث مضى : ان الطالب الذي يجسد امــام ناظرية قاعة الامتحان ، والتاجر الـذي يتصـور يـوم خسـارته ، والجنـدي الذي يتخيل في ذهنه سـاحة المعركة ، ان هـؤلاء أنفع من غيرهم ، وهكذا الحياة كلها والقرآن الحكيم يقول : (**وَعَـدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ**) فـالرحمن برحمته الواسـعة يريد أن يرحم عباده الـذين خلقهم فجعل لهم جنة كبـيرة مليئة بالطيبات والنعم ، ولكن بشرط أن يؤمنوا بها بالغيب.

(**إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا**)

ما دام ذلك الوعد هو وعد الله فهو لا ريب آت.

[62] (**لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلَّا سَلاماً**)

اللغو هو الانحــراف مثل السب والفحش ، والجــدل ، وكل ما يعكس حالة العــداء بين النــاس ، ويقابله الســلام ذلك النــور الــذي يضــيء الجنة وإنّ أول وأهم تجليــات السـلام هو سـلام القلب حيث يعيش الجميع في ظل رب السلام يشربون من كأس الســلام ، ويســرحون في وادي الســلام ، ويســمون الى أفق الســلام ، ولا يبقى غل في قلــــوبهم ، ولا طمع ولا حسد ، وإذا التقى بهم خزنة الجنة حيّوهم بالسلام :

(**ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ**) (ق / 34)

وربّهم سبحانه يحييهم بالسلام :

(**سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ**) (57 / يس)

وسـلام القلب يعكس سـلامة الأعضـاء والعافية من جميع الأخطار الحالية والمستقبلية.

(**وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا**)

يظهر من هذه الآية ومن النصـوص ان أفضل وجبـات الرزق ما كان أول النهار وآخره [1].

ولعله في الجنة يتبـدل الـوقت الى ما يشـبه الليل والنهار بازدياد النور ونقصه ونتسائل : أليست الجنة تفيض أبدا بالنعم ، فلما ذا إذا الرزق بكرة وعشيا. والجواب : ان المؤمن يزداد رزقا كل يوم ويسير نحو التكامل هناك أبدا.

فقد جـاء في حـديث نبـوي شـريف ونعطيهم طـرف الهدايا من الله لمـواقيت الصـلاة الـتي كـانوا يصـلون فيها في الدنيا [2].

[63] (**تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كـانَ تَقِيًّا**)

الجنة ميراث العباد الذين قـاموا باكتسـابها في الـدنيا عن طريق التقوى.

[64] (**وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ**)

لا تنزّل الملائكة من السـماء الى الأرض الاّ بـأمر الله وحكمته ، كما جاء في

---

(1) راجع تفسير نور الثقلين ج 3 ص 351

(2) روح المعاني ج 16 ص 103

الحــديث : ان النــبي صــلى الله عليه وآله وســلّم قــال لجبرئيل :

ما منعك ان تزورنا أكثر مما تزورنا؟

فـنزلت الآية : (**وَما نَتَنَـزَّلُ إِلَّا بِـأَمْرِ رَبِّكَ**) ، وهـذه الآية توحي بأن الوعد الذي وعد الله سبحانه وتعالى عباده بـالغيب انما هو وعد أكيد اثبته القـرآن ، لا يـنزل الا بـأمر الله سبحانه.

(**لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ**)

ان الله تعـالى هو الـذي وعد وليس (الملائكـة) الـتي وعــدت ، وانما الملائكة رسل لله تــأتي بالوعد الى البشر ومن ثم فان الله لا ينسى وعده.

(**وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**)

الله سبحانه وتعالى وعـدكم وهو يعلم وعـده وسـيفي لكم به ، ولو كــان ربنا سـبحانه ينسى ، إذا لاختــلّ نظــام الكـــون ، ولما اســـتطاع ان يلبّى نـــداء الكائنـــات ، ولما استطاع ان يحفظ جزاء المحسنين ، أو يميّز المحسن من المسيء حين لقائه.

الايمان بالله وبالبعث :

[65] (**رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ**)

ان طاعة الله وعبادته والاســـــتقامة عليها بحاجة الى صبر عظيم (واصطبر لعبادته) لان عبادة الله تعني التحـرر من كل القيـود ، والارتفـاع فـوق كل السفاسف ، والصـبر أمـام كل الضـغوط ، لـذلك فـان القـرآن الحكيم يقـول (واصطبر) اي حمّل نفسك الصـبر حـتى تسـتطيع أن تعبد ربك ...

(**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**)

لعل أحد معـاني هـذه الآية هل هنـاك اله يـدّعي ولو مجـرد ادعــاء بأنه رب الســماوات والأرض ، ورب هــذه الآفاق البعيدة اللامتناهية؟!.

كلا ، ليس هناك أحد يدّعي الالوهية بهذا المعـنى ، اما هؤلاء الطواغيت الذين يدّعون الالوهية صـراحة أو ضـمنا ، فـان أقصى ما تصل اليه ادعــاءاتهم هو أن يقولـوا : نحن نمتلك جنـودا نسـيطر عليهم ، أو اننا نسـيطر على قطعة ارض.

[66] هذا عن الايمان بالله سـبحانه وتعـالى ، وهنـاك بعد آخر من الايمان هو الايمان بـاليوم الآخر ، وإذا ما آمن الإنسان بهذين البعدين (مبدأه ومعاده) فانه يصـبح إنسـانا متكاملا ، لذلك يركز القرآن الحكيم دائما عليها.

(**وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا**)

أتصور ان القرآن حينما يستخدم كلمة (الإنسان) دون كلمة النــاس أو البشر وما أشــبه فــان ذلك للدلالة على طبيعته ، فهناك غريزة اركـزت في خلقة البشر وهي : ان هـذا الإنسـان كثـيرا ما يتسـاءل إذا ما مت لسـوف اخـرج حيّا؟!

هل المــــوت نهاية أم بداية ، أم مرحلة بين هــــذه وتلك؟!

[67] (**أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً**)

على الإنســـان ان يفكر .. ما ذا كنت قبل أن أخلق ، ان الــذي خلقـني وأوجـدني يسـتطيع أن يعيـدني ، وهـذا الكلام ليس كلاما يمكن ان يقنعك بمجـــرد طرحه عليك ، انما هذا يوافق الوجدان ، فاذا عدت الى وجدانك وتذكرت أحوالك الماضـية ، وتخيلت العـدم الـذي كنت فيه ، وكيف جئت بعد ذلك الى الوجود ، آنئذ تفهم قدرة الله

سبحانه وتعالى ، وتحيط ببعض أسمائه الحسـنى ، وكـذلك تعـرف نفسك ، وتعـرف انك مخلـوق ، وانك مقـدّر ، وان الله هو الـــذي يـــدبّر حياتك وبـــذلك تســـتطيع ان تـــؤمن بالآخرة.

فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَـوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَـدُّ عَلَى الـــــرَّحْمنِ عِتِيًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِـلِيًّا (70) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها كـانَ عَلى رَبِّكَ حَتْمـاً مَقْضِـيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَـوْا وَنَـذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا (72) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لِلَّذِينَ آمَنُـوا أَيُّ الْفَـرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَـدِيًّا (73) وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَرِءْياً (74) قُلْ مَنْ

---

68 [جثيّا] : الجثيّ جمع جاثي وهو الذي برك على ركبتيه.
69 [عتيّا] : العتي مصدر كالعتو وهو التمرد والعصيان.
73 [نديّا] : الندي والنادي المجلس الذي قد اجتمع أهله.
74 [رئيا] : الرّئي ما يراه الرجل من ظاهر أحوال القوم.

كانَ فِي الضَّـلالَةِ فَلْيَمْـدُدْ لَـهُ الـرَّحْمنُ مَـدًّا حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَـيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً (75)

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها ...

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا

هدى من الآيات :

الآخرة صورة مصغّرة عن الدنيا من أعمال وتصورات وأفكار ، والقـرآن الحكيم حين يعـرض لنا مشـاهد الآخـرة فأنه يشير إلى تلك الحقـائق الـتي صـنعت هـذه المشـاهد لكي يقرّب فهم الإنسان من واقع عمله في الدنيا ، وكيف يتحول الى شيء حيّ في الآخرة.

والقرآن الحكيم في هـذا المشـهد الـرهيب يـبيّن لنا : كيف ان العلاقـات الـتي كـانت في الـدنيا تتطـوّر وتتغيّر لتتجسد في الآخــرة ، فتصــبح هنالك شــيئا آخر وبالتــالي تحدد طريق الإنسان اما الى الجنة أو الى النار.

إن الرجل الذي تتبعه وتطيعه في الدنيا سـوف يكـون إمامك اما الى الجنة أو الى النار ، ويركز القرآن في هـذه الآيات حول أولئك الذين يهدون الناس الى النــار ، إذ لا بد أن نتفكر جيّدا لكي لا نربط مصيرنا بالبعض بصورة عفوية ، ومن دون تفكير.

ثم يحـدد القـرآن لنا جانبا من واقع الآخـرة ، وارتبـاط الدنيا بذلك الواقع وهو : إن الدنيا تحتوي على خـير وشر ، صلاح وفساد ، فـالخير والصـلاح يتحـولان في الآخـرة الى جنة ونعيم أما الشر والفساد فيتحولان الى عذاب شـديد ، ومن اتقى في الدنيا الشر والفساد ، وابتعد عنهما بـالرغم من انهما كانا يحومـــان حوله ويحـــوم حولهما ، فانه في الآخرة يدخل نار جهنم ولكنه يخرج منها بسرعة.

القـرآن الحكيم يوضح لنا حقيقة فيقـول : إن النـاس جميعا سـوف يـدخلون نـار جهنم لأنهم جميعهم في الـدنيا كانوا قريبين من الشرّ والفساد ، لذلك تجدهم في الآخـرة قريـــبين من نتائجهما ، ولكن الـــذي ابتعد عنها عمليا في الـدنيا فأنه يسـتطيع أن ينقذ نفسه من نتائجهما عمليا في الآخـرة ، ومن لم يفعل ذلك فـان شر جهنم سـوف يحيط به.

لنتصور الشر الذي يقوم به الإنسـان في الـدنيا ، حين يؤذي الناس (بلسانه ــ بقلمه ــ بعملـه) فـأن أعماله هـذه تتحول في الآخرة ، الى حيّة حجمها بقدر حجم الأذيّة التي سببها للآخرين في الدنيا ، وعند ما يأتي الإنسـان في يـوم القيامة يتحتم عليه أن يعــبر جهنم لكي يــدخل الجنة وفي حالة عبوره يلتقي بصاحبته تلك الحيّة ..

إذن دعنا نتصور ان الحياة الدنيا هي نفسـها الآخـرة ، إلا أنها في الآخرة أكبر.

وهنالك فكـرة تـذكر بها هـذه الآيـات وهي : إن بعض الناس يحسبون ان النعم الــتي يوفرها الله لهم دليل على إنهم قريبون منه سبحانه ، فاذا لم يكن الله يحبهم فلما ذا أعطاهم القوة والمال والأولاد والجاه والجمال والحيوية؟!

هناك آيات كثيرة من القرآن تنفي هذه الفكرة وتقول : كلا .. إن النعم التي يسبغها الله على الإنسان في الــدنيا قد تكون بسبب رضا الله عنه ، وقد تكون بسبب

سـخطه عليه ، وإن الـذي يكفر ويظلم ، يـوفر له النعم حـتى يسـتدرجه أكـثر فـأكثر ، فيأخـذه مـرة واحـدة ، أما العذاب في الدنيا ، وأما العذاب في الآخرة.

بينات من الآيات :

[68] إن الله سبحانه لا يحضر الإنسان وحده في يوم القيامة وإنما يحضـره مع شـياطينه ، فكما إن الشـياطين كانوا يغوون الإنسان ويضلونه في الدنيا ، فهم في الآخـرة يقومـون بـدور تعذيبه فالشـيطان كـان يتبعه في الـدنيا (يظلمه ويؤذيه ويجـرح كبريـاءه) وإنّه يـراه يـوم القيامة أمامه يتلقّاه بالصفع والضرب ، والشيطان الـذي كـان في قلبه يدفعه الى اتبـاع الشـهوات ولم يـره ولم يشـاهد صـورته هنا ، ولكنه سـيأتي في يـوم القيامة بـأقبح وجه وأول عمل يقوم به اللعين هو أن يبصق في وجهه ويقـول للإنسـان : ما ذا جـنيت عند ما اتبعتـني ، فـبئس المصـير مصـيرك ، فيقـول له : لقد اتبعتك فخلصـني من النـار ، فيجيبه : دعني أخلص نفسي أولا (!) ..

إذن فعلاقاتنا السـيئة في الـدنيا مع الشـياطين (شـياطين الجن والإنس) ستسـتمر الى الآخـرة ويصـبح هؤلاء إن لم نتب ، قرنـاء لنا في الآخـرة منذ المطّلع والى دخول النار والعياذ بالله. القرآن الحكيم يقول :

(**فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ**)

أي لنبعثنّهم محشورين مع شياطينهم الذين اتبعوهم.

(**ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا**)

يحشر الله النـاس حـول جهنم جـاثين على ركبهم ، ذلك إنهم لا يستطيعون أن يقفوا على أقـدامهم من شـدة الخوف إذ يمنعهم الزحام الشـديد من الاسـتلقاء أو اتخـاذ جلسة مريحة ، ولذلك هم يضطرون الى اتخاذ وضع الجثو على ركبهم وفي ذلك مزيد

من العذاب لهم ..

[69] (**ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَـدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا**)

في يــوم القيامة ، يشــير الله الى إمــام المجــرمين فيعزله ، ليكون قائدا لاتباعه الى النار.

والشيعة : كل مجموعة يشايعون أحدا ويتبعونه ..

[70] (**ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا**)

من الذين يكونون أولى بـدخول نـار جهنم؟ انهم أئمة الضلال وقادة الأنظمة الفاسـدة فهم أول من يـدخلها ، ثم يتبعهم شـيعتهم الأقـرب فـالأقرب ، الملك أولا ثم رئيس الــوزراء ، ثم الــوزراء ثم الموظفــون ، وهكــذا حسب درجاتهم في الدنيا واتبـاعهم للإمـام الظـالم ، فـأنهم يـوم القيامة أيضا يتبعونه الى نار جهنم ..

[71] (**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها**)

كل واحد منكم سيرد نار جهنم ..

(**كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا**)

إن هــــــذا حتم قطعه الله على نفسه ، فكما ان كل إنسان يدخل الدنيا ليمتحن فيها ، كذلك كل إنسـان يـدخل النار في الآخرة وعليه أن ينقذ نفسه بما قـدّم من أعمـال صـالحة في الـدنيا ولقد جـاء في حـديث عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، قال :

«**يــرد النــاس النــار ثم يصــدرون بأعمــالهم ، فأولهم كلمح البرق ، ثم كمرّ الريح**

ثم كحضر الفرس ، ثم كالراكب ، ثم كشدّ الرجل ثم كمشيه» [1]

وجــاء في حــديث عن رســول الله (صــلى الله عليه وآله) يقول :

«**تقول النار للمؤمن يـوم القيامة : جزيا مـؤمن فقد أطفأ نورك لهبي**» [2]

[72] (**ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا**)

يبقى الظالمون جـاثين على ركبهم في جهنم ليـذوقوا العـذاب ، لأنهم ظلمـوا أنفسـهم ولم يتقـوا نـار جهنم في الدنيا.

يقــول رســول الله (ص) في خطبته الــتي ألقاها قبل شهر رمضان :

«**اتقوا الله ولو بشقّ تمرة**»

إن شق التمر الـذي يعطيه الإنسـان سـوف يكـون له خلاصا من نــار جهنم بقــدره ، وكل عمل صــالح يعمله في الدنيا يصبح زادا لمسيرة الخروج من نار جهنم.

المقاييس المادية :

[73] (**وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّنـاتٍ قـالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَـنُ نَدِيًّا**)

هنا يعالج القرآن مشكلة نفسـية أخـرى وهي مشـكلة تقييم الحقائق بالماديـات ، فقد تتلى آية من القــرآن على إنســـان فلا يســـتمع إليها باعتبارها آية قرآنية نـــزلت من السماء ، لمـاذا لأنّ الـذي يتلو عليه تلك الآية رجل فقـير ، فيقول في نفسه : كيف أسـمع كلامـه؟! في الحقيقة أنت لا تسمع كلامه ، وإنما تسمع كلام الله ، وهكذا فهو يقيم

---

(1) نور الثقلين ج 3 ص 353

(2) المصدر ص 354

الحقائق بحسب وضعه المادي ، ويقول : (**أَيُّ الْفَـرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا**)

خـير مقاما : يعـني أحسن مكانا ، وأكـثر نـديّا : أكـثر أصحابا وجماعة.

[74] (**وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَـرْنٍ هُمْ أَحْسَـنُ أَثاثاً وَرِءْياً**)

لقد أهلكنا كثـيرا من الأمم السـابقة بـالرغم من أنهم كانوا يتملكون الأمتعة ومظـاهر الأبهة والعظمة ، لأنهم لم يفكروا أو يعتبروا.

إن الحقـائق تقـاس بـذاتها لا بما يملك الإنسـان من ماديات ومظاهر ، وإن هذه المظـاهر ليست دليلا على أن الله يحب صاحبها أو أنه يرضى بعمله.

[75] (**قُـلْ مَنْ كـانَ فِي الضَّـلالَةِ فَلْيَمْـدُدْ لَـهُ الرَّحْمنُ مَدًّا**)

إن الله يمد في ضـلالة الإنسـان الضـال ، بامـداده بـالنعم ، حـتى يفقد الأمل في العـودة الى الهداية ، آنئذ يأخذه مرة واحدة أخذ عزيز مقتدر.

(**حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَـــدُونَ إِمَّا الْعَـــذابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ**)

أما عذابا بئيسا في الدنيا أو عذابا بئيسا في الآخرة.

(**فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً**)

آنئذ يعلمون بأن أمـوالهم وأولادهم لا تغـني عنهم من الله شيئا ، كما أن أصحابهم وجنـودهم ورجـالهم لا يغنـون عنهم من الله شيئا إذا حانت سـاعة الثـورة ، وأحـاط بهم العذاب على يد المستضـعفين في الـدنيا ، أو سـبق الأجل ثـــورة المستضـــعفين فأخـــذهم الى نـــار جهنم ، حينئذ سيعلمون عاقبة الغـرور بالـدنيا وزينتهـا. إن فخر الإنسـان ومباهاته يجب أن يتـأخر الى الآخــرة ، وإذا خطر بباله أن يغتر بالدنيا فعليه

أن ينهى نفسه عن ذلك ويقــول لها : انتظــري الى يــوم القيامة ، حينما تكـــون الجنة من نصـــيبك فآنئذ يحق لك الافتخار والاختيال. أما إذا رمـوك مثلما تـرمى القمامة في نار جهنم فهل تسـتطيع في هـذه الحالة أن تـدعي لنفسك شــرفا؟ كلا ... انه في نفس الــوقت الــذي يمد الله في ضلالة الضالين فانه يمد في هداية المهتدين بهـداه ، وهـذا هو الفرق ، فانك إذا أصبحت مهتديا فان الله يزيدك هـدى ، أما الإنسان الضال فان الله يزيده شهرة وأموالا وأنصارا ويملي له الى حين.

وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُـدىً وَالْباقِيـاتُ الصَّـالِحاتُ خَيْرٌ عِنْـدَ رَبِّكَ ثَوابـاً وَخَيْـرٌ مَـرَدًّا (76) أَفَـرَأَيْتَ الَّذِي كَفَـرَ بِآياتِنا وَقـالَ لَأُوتَيَنَّ مـالاً وَوَلَـداً (77) أَطَّلَـعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْـداً (78) كَلاَّ سَـنَكْتُبُ ما يَقُـولُ وَنَمُـدُّ لَـهُ مِنَ الْعَـذابِ مَـدًّا (79) وَنَرِثُـهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً (80) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللـهِ آلِهَـةً لِيَكُونُــوا لَهُمْ عِــزًّا (81) كَلاَّ سَــيَكْفُرُونَ بِعِبــادَتِهِمْ وَيَكُونُــونَ عَلَيْهِمْ ضِــدًّا (82) أَلَمْ تَــرَ أَنَّا أَرْسَــلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83) فَلا تَعْجَـلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (84)

83 [تؤزهم] : الأز الإزعاج وقيل تؤزهم أزا اي تغريهم بالمعاصي إغراء.

وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ

خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ

هدى من الآيات :

في إطار الموضـوع العـام لسـورة مـريم في ترشـيد العلاقة بين الإنســان وبين أولاده وأســرته. ولكن لا تضل هـذه العلاقة عن الصـراط المسـتقيم. تعـالج آيـات هـذا الدرس مرض النفس البشري وهو الغرور بالمال والولد ، وتــبين أن اهتــداء البشر من مسـئوليته إلا إن الله يزيــده هــدى ، وإن من أهم ما يهــدي إليه الــربّ عبــده العمل للمستقبل. ذلك إن الأعمال الصالحات التي تبقى خير عند الله ثوابها ، وخير مصـيرها ، أما الضـالون الـذين يكفـرون بآيات الله ، ويفـترّون بما أوتـوا من مـال وولـد. ولكن هل اطّلعوا على الغيب وعلموا ان الله لا يعـذبهم ، أم اتخــذوا عند الرحمن بذلك عهـدا. كلا .. إنّ ادعـاءه الكـاذب بـذلك سـوف يصـبح بذاته وبـالا عليـه. وسـوف يمـدّ الله له من العذاب مدّا ، وسوف يورثه الله أقواله ، ويمتثل أمــام ربه للجزاء وحده من دون مال وولد.

وتراهم اتخذوا آلهة من دون الله ، ليعـتزوا بهم. كلّا .. بل سوف تكون عبادتهم

للآلهة وبالا عليهم ، فيكفرون بعبادتهم ، وينقلبون ضـدهم. إن الشياطين يثيرون الكافرين ، ويسوقونهم نحو الضـلالة ، فلا تعجل في طلب العقوبة لهم. إذ أنّ اسـتمرار ضلالتهم وكفرهم سيكون سببا لمزيد العقاب عليهم.

هكـذا ينبغي أن يتّقي البشر الاعتمـاد على المـال والولد والآلهة ، وتكـون صـلته بالله هي الأسـمى والأعلى والأمتن.

بيّنات من الآيات :

[76] بما أن آيـات الـذكر لا تسـدي إلينا الوصـايا والمواعظ فحسب ، بل تعالج بعمق الانحرافـات النفسـية الـتي تعجل الإنسـان يتـورط في علاقـات شـاذّة مع زينة الحيـاة الـدنيا ، من مـال وولد ، سـواء بـالغرور بها أو بالاستسـلام لها من دون إرادة أو تفكـير ، وهكـذا يؤكد السـياق هنا أن (قـرار) الاهتـداء الى الله من مسـئولية البشر ، فعليه أن يخطو الى ربه الخطـوة الأولى. حيث سيتولّاه الله بعدئذ برحمته فيزيده هدى.

(**وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً**)

وليس على الإنسان أن يلاحظ لحظاته الحاضرة فقط ، وإنما ينظر بعيـدا الى المسـتقبل ، وما ذا يجب أن يعمل فيه.

إن الأعمال الحسـنة بـالرغم من أنها قد تبـدو ضـائعة في بـادئ الـرأي ، الا أنها باقية ، وسـتعود الى صـاحبها بصورة مضـاعفة ، لـذلك نجد القـرآن الحكيم يقـول ، عن الباقيـات الصـالحات ، «**وَخَيْـرٌ مَـرَدًّا**» أي أنها تـرد إليك أضعافا مضاعفة بعد أن تزكو وتنمو.

(**وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْـدَ رَبِّكَ ثَوابـاً وَخَيْـرٌ مَرَدًّا**)

فجزاؤه أفضل ، وعاقبته أحسن.

بلى إنّ كل فعل صالح تقوم به اليوم يصبح غدا جنات واسعة تعيش فيها بـإذن الله خالـدا. حـتى الكلمـات الـتي يلهج بها اللسان ، وقد يستهين بقدرها المرء تصـبح مـوادا أولية لبناء قصوره في الجنة.

جاء في حديث مأثور عن أبي عبد الله الصـادق (عليه السلام) عن جده الأكرم محمد (صـلى الله عليه وآلـه) انه قال :

«**لمّا أسري بي الى السماء دخلت الجنة فــرأيت فيها قيعانا يقفا (1) ورأيت فيها ملائكة يبنـــــون ، لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، وربما أمســـــــكوا ، فقلت لهم : ما لكم ربما بـــــنيتم وربما أمســـكتم؟ فقــــالوا : حـــتى تجيئنا النفقة ، فقلت لهم : وما نفقتكم؟ قالوا : قول المـؤمن في الـدنيا : سـبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، فاذا قال بنينا ، وإذا أمسك أمسكنا**» (2)

[77] ثم يبيّن بأن أولئك الذين يتعلقون بـأموال الـدنيا ، ويزعمون بأن سـعيهم وعملهم ينبغي أن يكـون من أجل الدنيا ، ومن أجل الحصـول على المـال والولـد. ان هـؤلاء على خطأ كبـير ، لأن زينة الحيـاة الـدنيا ليس من المؤكد الحصول عليها ، فقد يحصل الإنسان عليها وقد لا يحصل.

ولو افترضنا أنه حصل عليها فليس من المضـمون أن تكون رحمة ، بل قد تكون عذابا له ، اما في الـدنيا أو في الآخرة ، وأخـيرا فـان ما يحصل عليه الإنسـان قد يسـعده في الدنيا ، ولكن هل الدنيا نهاية رحلة الإنسان؟ كلا ..

إذن عليه أن لا يحصر كل اهتمامه ، وكل ســـعيه من أجل الحصول على المال

---

(1) أي أراضي بيضاء.

(2) تفسير نور الثقلين ج 3 ص 356.

والولد ، كما عليه أن لا يتعلق بغـير الله ويجعله إلها يعبـده من دونه ، فـان المـال قد يصـبح معبـود الإنسـان ، كـذلك الولد ، والعلم ، والغنى.

وعموما إنّ على الإنســـــان أن لا يفقد ذاته من أجل شيء ، أنّى كان ذلك الشيء.

فاذا عشقت العلم لمجــرد العلم ، وليس لمنفعتك ولا لمنفعة النـــــاس ، وإذا أحببت الفن للفن لا لمنفعتك ولا لمنفعة أحد ، وأي شــيء في الحيــاة لو عشــقته عشــقا مجردا من دون أن تفكر في مدى منفعته لك أو لمجتمعك أو لقيمك ، فـان ذلك لن يكـون مجـديا. لأن هـذا الشـيء سوف ينتهي ولن يعطيك شيئا ، بل سـوف تخسر نفسك ، وتخسر آمالك وتطلعاتك.

نعم : العلم في حـــــدود الإيمـــــان ، والفن من أجل سـعادتك وسـعادة النـاس ، والسـلطة من أجل العدالة ، والثروة من أجل العمارة ، وهكذا سائر أشياء الحياة الدنيا إن كانت من أجل القيم وفي حدود القيم كـانت نافعة لأننا آنئذ نحب تلك الأشــــياء لأننا نحب القيم ، أما إذا انعكست الآية وأردنا أن تكون القيم وراء الأشياء ، وتحـولت الحيـاة الى شيء يعبد من دون الله ، فـان هـذا لن ينفعنا ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، يقول ربنا سبحانه :

(**أَفَـرَأَيْتَ الَّذِي كَفَـرَ بِآياتِنا وَقـالَ لَأُوتَيَنَّ مـالاً وَوَلَداً**)

في مقابل الباقيات الصالحات الـتي يـدخّرها الإنسـان لمستقبله ، هناك من يسعى ويدخّر جهـوده ليس من أجل الباقيـات الصـالحات ، وليس من أجل الله ، ولا رسـالته ، ولا من أجل المجتمع ، إنما لكي يصبح أكثر أموالا وأولادا.

والقـرآن الكـريم يقـول : (**أَفَـرَأَيْتَ الَّذِي كَفَـرَ**) أي انظر وتـدبّر في عاقبة هـذا الرجل الـذي كفر بآياتنـا. إن الإنسان الذي يسعى من أجل المال والولد في حدود

الايمـان بالله وفي حـدود القيم فلا بـأس عليه ، أما الـذي يكفر بالآيات من أجل المال والولد وغـرورا بهما فما عليه إلا أن ينتظر عاقبته ، ويبـدو من الآية : إنّ الإنسـان يشـعر في قرارة نفسه بالضـعف ، وفطرته تـدعوه إلى أن يجـبر هـذا الضـعف الـذاتي بالايمـان بالله ، وبآياته المبثوثة في الكون ، والمنزلة على النبي في الكتاب ، إلّا أنّ الشيطان قد يضله عن هذا السـبيل الحق ، ويغويه بالتمسك بالمـال والولد بزعم انهما يغنيـاه شـيئا ويجـبران ضـعفه الـذاتي ، ولكن هيهات.

هل يعلم هذا الإنسان بأنه سيحصل على المال والولد حتى يؤكد ذلك تأكيدا ويقول : «**لَأُوتَيَنَّ مالاً**» بلام التأكيد ونونه؟ كلا .. وأبسط دليل على عدم علم الإنسان بـالغيب هو أن يحـاول كتابة قائمة تفصـيلية لما سـيعمله غـدا ثم يحاول في اليوم الثـاني بكل جهـده أن يعمل كل الأعمـال التي كتبها في برنامجه ، ولكنه سـيجد نفسه قد فشل في تطـبيق كثـير من بنـوده لأي سـبب من الأسـباب .. يقـول الامام علي (ع) :

«**عرفت الله بفسخ العزائم ونقض الهمم**»

[78] (**أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً**)

إن ضمان تطبيق شيء لا يكون إلا عن طريق أمـرين : اما العلم بالمسـتقبل ، واما قـدرة الله ، ولكن الإنسـان الـذي ليس لديه ضـمانة من الله ولا علم له بالمسـتقبل كيف يعتمد على شـيء غـير موجـود. جـاء في حـديث في سبب نزول الآية ما يلي :

عن أبي جعفر (عليه السـلام) في قوله عز وجل : (**أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَقالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً**) (**ان العاص بن وائل بن هشام القرشي ثم السهمي وهو أحد المستهزئين ، وكان لخبـاب بن الأرت على العـاص بن وائل حق ، فأتـاه يتقاضـاه ، فقـال له العـاص : ألسـتم تزعمـون ان في الجنة الـذهب والفضة والحريـر؟ قـال : بلى ، قـال : فموعد ما بيني وبينك الجنة فو الله لأوتين**

فيها خيرا مما أوتيت في الدنيا ، يقول الله عز وجل : (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً كَلَّا سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) والضد القرين الذي يقرن به[1]

[79] (**كَلَّا سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ**)

وأما ما يحصل عليه عمليا من نعم ومكاسب مادية في الحياة الدنيا ، فمن يضمن أنها ستكون مصدر سعادة له ، بل على العكس من ذلك قد تجرّه الى تعاسة وعذاب.

(**وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا**)

إن هذه النعم ليست سعادة بالنسبة إليه ، وإنما هو ذنب عجّلت عقوبته ، كما جاء في الحديث وهو لا يشعر بذلك.

[80] (**وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً**)

معنى الآية ـ كما ذكروا ـ إن الله يرث ما يقوله الفرد عن المال والأولاد ، وبتعبير آخر : يرث الله منه ما يعتمد عليه.

إن ما يحصل عليه من المال والولد سيذهب عنه بعد حين ، والذين كان لديهم أموال وأولاد ذهبوا عن أموالهم وأولادهم أيضا ، ولم يصحبوا معهم الى القبر سوى قطعتين من الكفن.

الله سبحانه هو الباقي وهو الذي يرث الأرض ومن عليها ، فالأولاد والأموال لا

---

(1) نور الثقلين ج 3 ص 356.

تبقى له ولا هو يبقى لها ، ويـوم القيامة يـأتي وحـده عاريا حافيا حاسرا ، لا يملك أي شيء «**وَيَأْتِينا فَرْداً**».

[81] إنّ البشر يبحث عن شـــيء أو شـــخص يعتمد عليه ، ويجبر به ضعفه الذاتي ، ويعالج به شعوره بالضعفة والذلة. فقد يتخذ المال والأولاد جـابرا لضـعفه فيعـتز بها ، وقد يبحث عن آلهة من أصنام بشرية أو حجرية ــ فيقـول عنه ربنا :

(**وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا**)

هـؤلاء بـدورهم اتخـذوا آلهة انتمـوا إليها من أجل أن يكونوا أعـزاء ، وأساسا الانتمـاء الى جهة ما سـواء كـانت عشيرة ، أو حزبا ، أو تيّارا سياسيّا ، أو سـلطة حاكمة ، أو ما أشـــــــبه ، إن لم يكن من أجل الله ، ومن أجل القيم والرسالة ، فلا بدّ أن تكون من أجل العـزّة الدنيوية ، ذلك ان الإنسان حينما يشـعر بنقصه الـذاتي فـيرى نفسه مهينا ضعيفا يحاول الانتماء الى جهة معينة ، كأن ينتمي الى تيّار حـزبي مثلا لكي يعطيه العـزة الـتي يبحث عنها ، وهنـاك طائفة كبيرة من النـاس ــ وللأسف ــ يسـيرون على هـذا النهج ، فهم بالاضـافة الى أنهم لن يجـدوا عنـدهم العـزة ، فإنهم سيكونون عليهم ضدّا.

[82] (**كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبـادَتِهِمْ وَيَكُونُـونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا**)

آنئذ سيندمون ندما شديدا ، ويتحسرون على شـبابهم الـــذي ضـــيّعوه في خدمة هـــذا التجمع الزائف ، وقيادته الكـــافرة ، ويقولـــون : لقد اتبعنـــاه ، ووفرنا له العـــزة والسـلطة على حسـاب مصـلحتنا ، ومصـلحة أمتنا ، وقيم رسـالتنا ، ولم نحصل مقابل ذلك إلا على سـخط الله من جهة ، وعـداوة من انتمينا إليهم. وهـذه النهاية المأسـاوية ليست مقصـــورة على يـــوم القيامة ، بل هي كثـــيرا ما تتحقق في الدنيا قبل الآخرة. إنّ الطاغية

الذي نتخـذه من دون الله إلها ، تسـمع له ، وتطيع أمـره ، وتزعم انه عزّ لك ، إنه يكفر بعبادتك ولا يـوفّر الحماية لك ، بل إنه ســيكون ضــدك لأنه يعيش لنفسه فحسب ، وإذا خـالفت مصـالحه مصـالحك فانه سـوف يضـربك عـرض الحائط ، وكل تاريخ الطغاة شـاهد حق على هـذه الحقيقة ، ولعلك تقول : إني لا أعبده ، بل أطيعه. كلا.

إنك تعبـده حين تسـمع له ، وتطيع أمـره ، وما جـوهر العبادة إلّا الطاعة. جاء في حديث شريف في تفسير هـذه الآية.

عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قوله : «**وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَـةً لِيَكُونُـوا لَهُمْ عِـزًّا كَلَّا سَـيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا**» يـوم القيامة أي يكـون هؤلاء الذين اتخذوهم آلهة من دون الله ضدا يوم القيامة ، ويتـبرءون منهم ومن عبـادتهم الى يـوم القيامة ثم قـال : ليس العبـادة هي السـجود ولا الركـوع ، وإنما هي طاعة الرجال ، من أطاع مخلوقا في معصية الخالق فقد عبده ، وقوله عز وجل : «**أَنَّا أَرْسَـــــلْنَا الشَّـــــياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**» قال : لما طغوا فيها ، وفي فتنتها ، وفي طاعتهم ، ومدّ لهم في طغيانهم وضـلالتهم ، أرسل عليهم شـياطين الانس والجن (**تَـؤُزُّهُمْ أَزًّا**) أي تنخسـهم نخسا ، وتحضهم على طـاعتهم وعبـادتهم ، فقـال الله عز وجل : (**فَلا تَعْجَـلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُـدُّ لَهُمْ عَـدًّا**) أي في طغيانهم وفتنتهم وكفرهم [1]

جزاء الكافرين :

[83] (**أَلَمْ تَـــرَ أَنَّا أَرْسَـــلْنَا الشَّـــياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**)

إن الشـياطين يـدفعون الكـافرين دفعا الى العـذاب ، الى حيث النقمة والشـــقاء. هكـــذا يفعل الشـــياطين بالكافرين ، ولكن الله ليس بظلام للعبيد ، فهو لا يبعث

(1) تفسير نور الثقلين ج 3 ص 357.

الشـياطين على المـؤمن المخلص الـذي انتهج منذ البـدء طريق الهدى ، والشيطان لا يقدر عليه مهما حاول جهده ، أما ذلك الإنسان الذي كفر بالله ابتـداء ، وتـرك الاعتصـام بحبله ، وظل بدون محـور صـحيح يـدور عليه ، ولا قاعـدة ثابتة يعتمد عليها ، فــأن الله يرسل عليه شـــيطانا يدفعه الى النـار في الآخـرة ، والعـذاب في الـدنيا ، والآية هـذه شاهدة على الآية السابقة ، إذ إنّ الشياطين وهم الحكـام الظلمة ، والأحزاب الكافرة ، وإبليس وجنوده ، لا يزالــون ينخسون مريـديهم وتـابعيهم ، ويحرضـونهم على طـاعتهم حتى يوردونهم نار جهنم.

[84] (**فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ**)

لـذلك لا تعجل على هـؤلاء الـذين يمشـون في هـذا الطريق ، وينتمون الى هذه الأحزاب المشـبوهة الباطلة ، في سبيل تثبيت الأنظمة الفاسدة ، فان الشـيطان سـوف يدفعهم الى مصيرهم المحتوم. جاء في حديث عن قوله : «**أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَـؤُزُّهُمْ أَزًّا**» قـال : نـزلت في مـانعي الزكـاة والمعـروف ، يبعث الله عليهم سـلطانا أو شـيطانا فينفق ما يجب عليه من الزكاة في غير طاعة الله ، ويعذبه على ذلك [1]

(**إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا**)

إن كل خطوة يخطونها ، وكل سعي يسعونه ، يتحـول الى عذاب يعدّه الله لهم ، ويحصيه عليهم ، وقد جعل لدى كل واحد منهم رقيبا من الملائكة ، يســـجّل عليه كل حركاته وسـكناته بدقة بالغة ، بحيث لا يفوته أدق الأمـور ، وهـــذا الـــرقيب لا يمل ، ولا يتعب ، ولا يعتريه الخلل أو العطل ، وربما لذلك يستغرق عذاب الآخـرة وقتا طـويلا ، قد يبلغ ملايين الســنين ، وهي الفـــترة اللازمة لمعاقبة المجرم على كل ما اقترفه في الدنيا

---

(1) المصدر.

من آثام.

فنفس واحد يتنفس المجـرم في مجلس الشـيطان ، أو في مجلس الظـالمين ، أو في مجلس السـوء أو .. أو. يســجل عليه إثما ، فكيف إذا كـــان يـــدفع الجنـــود الى الحرب؟!

إن كل عمل تقوم به مهما كان صغيرا سـوف يتحـول الى عقـرب يلدغه يـوم القيامة ، وسـواء كـان يـؤمن بهـذا الشيء أو لا يؤمن ، فذلك غير مهم ، فليس من الضروري أن تؤمن بـأن هـذا الشـيء الـذي تأكله إنما هو سـمّ قاتل حتى يضـرك ، فـاذا أخـذت قرصا وبلعتها زاعما انها قطعة سكّر وكان سما ، فهل ذلك يدفع عنك تأثير السم؟ كلا ..

هكـذا إذا كـانت تخـدم الظـالم ولا تـؤمن بأنك تقـوم بجريمة ، فـــان ذلك ســـوف يكتب عليك جريمة ، لأنك اخترت طريق الخطأ ، وسواء رضـيت أو لم تـرض ، فهـذا قدر الله وقضاؤه ، ويجب أن تخضع لأمر الله سبحانه.

إن من يريد أن يخلّص نفسه يجب عليه أن يتـــــوب سريعا ، أما إذا جاءه الموت أو السـاعة ، وقـرّر أن يتـوب فتوبته ستكون غير مقبولة. جاء في حـديث شـريف حـول هذه الآية :

«قال لي : ما عنـدك؟ قلت : عنـدي عـدد الأيـام قال : لا ، إن الآبـاء والأمهـات ليحصـون ذلك ، ولكن عدد الأنفاس» [1]

(1) المصدر.

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً (85) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً (86) لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (87) وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (89) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (91) وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً (93) لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً (95) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ

---

86 [وردا] : الورد الجماعة التي ترد الماء.
89 [إدّا] : الأمر العظيم.
90 [هدّا] : الهدم بشدة صوت.

الرَّحْمنُ وُدًّا (96) فَإِنَّما يَسَّـرْناهُ بِلِسـانِكَ لِتُبَشِّـرَ بِـهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمـاً لُـدًّا (97) وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَـرْنٍ هَـلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَـدٍ أَوْ تَسْـمَعُ لَهُمْ رِكْزاً (98))

97 [لدّا] : الله جمع ألد وهو المخاصم الشديد الخصومة.
98 [ركزا] : صوتا خفيّا.

وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً

هدى من الآيات :

في الـدرس الأخـير من سـورة مـريم يـذكّرنا القـرآن بسلســلة من الحقــائق ، تلك الــتي ذكّــرت بها الــدروس السابقة ، وهي تصلح علاقتنا بالناس والأشياء : وأبرزها :

تـذكرة الإنسـان بيـوم القيامة ، حيث يحشر المتقـون مكــرمين الى ربهم وفــدا ، بينما يســاق المجرمــون الى جهنم ليردوها وردا ، وهذه التـذكرة ليست تـذكرة عقائدية فحسب ، وإنما تخلق أيضا معادلة في فـؤاد الإنســان ذلك لأنه ، إذا عـرف الإنسـان بداية شـيء ونهايته ، فانه يعرفه بصورة أفضل ، وبدون ذلك فان معرفته تكون ناقصة.

وإذا عــــرف الى أين تنتهي حياته الــــدنيا ، وما هو مصـــيرها فانه يكـــون قد حصل على معرفة عميقة بها ، فيتعامل معها معاملة سليمة ، علما بأن آيات سورة مريم ، كما الكثير من آيات القرآن ـ تهـدف فيما تهـدف ــ جعل علاقة الإنسان بالحياة الدنيا علاقة سليمة.

وتشـير آيـات هـذا الـدرس الى فكـرة نفي الشـرك ، وبالـذات فيما يرتبط بـرفض فكـرة الولد ، ولعـلّ الحكمة في ذلك أن فكــــرة الولد هي الــــتي تكمن وراء النزعة العنصـرية وهي من العلاقـات الشـاذة بين الإنسـان وبين الآخرين.

إن الإنســان الــذي يحسب نفسه ابنا لله ، أو يحسب آباءه هكذا ، تكون علاقته بآبائه وجماعته وعشيرته شاذّة ، تتمحور حول (الشيء) ، بينما القرآن الحكيم يهدف تحرير الإنسـان من العلاقة (الشـيئية) في الحيـاة ، سـواء كـانت العنصرية أو العصبية اللتان هما من أبرز العلاقات الشـاذة بين الإنســـان وبين الآخـــرين. أو غيرهما من العلاقـــات الشـيئية الـتي تخالفها علاقة القيم المعنوية الـتي تؤكد أنه ليس هنالك علاقة بين الله والإنســان ســوى علاقـــتين ، علاقة الخلقة ، أي أن الله خلقنا ونحن عبيـــــده ، وعلاقة الايمــان والعمل الصــالح ، وبالتــالي علاقة القيم ، أما أيّة علاقة أخــرى كعلاقة الانتمــاء العصــبي الجــاهلي ، فانها مرفوضة في الإسلام.

يذكرنا القرآن بهذه الفكـرة ، ثم ينطلق بنا الى آفاقها البعيدة فتبين أن الإنسـان عبد داخر لله ، وإن كل من في السماء والأرض آت للرحمن عبـدا ، ويـوم القيامة تسـقط كل الانتماءات والعلاقـات. ويحشـرون الى ربهم أفـرادا لا جماعات عنصرية أو عصبيّة. لنتصوّر ذلك اليوم .. ولنبرمج حياتنا وفقه.

فلان ابن من؟ أخو من؟ ينتمي الى من؟ لنحــذف كل هذه الكلمات من حياتنا ، لكي نرى الحقيقة ، التي تتلخص في أن الإنســـــــــان ابن عمله وابن إيمانه فقط ، أما الانتماءات الأخرى ، فانها جميعا باطلة وليست بحقيقة.

وأخيرا تذكر الآيات بأن القرآن جاء لكي ينذر الإنسـان ، ولكن من الذي يستفيد من نذر القرآن؟ إنهم المتقـون ، أما المعانـدون الـذين قـرّروا سـلفا : عـدم الايمـان بآيـات القــرآن ، ولم يخشــوا المســتقبل ، ولم يهــدفوا خلاص أنفسهم ونجاتها من

العــذاب ، فــان هــؤلاء لن يســتفيدوا من نــذر القــرآن ومواعظه ، وسيكون مصيرهم مصـير تلك القـرون ، الـتي هلكت ولم يعد يسمع لهم صوتا عاليا أو خفيا.

بينات من الآيات :

الحشر والشفاعة :

[85] (**يَوْمَ نَحْشُـرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الـرَّحْمنِ وَفْـداً* وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً**)

هذا منظر من ذلك اليـوم حيث يـرى المتقـون وفـودا مكرمة ، يحشرون الى لقاء ربهم ، بينما يساق المجرمون كما تساق البهائم الى جهنم. إن هـذا المنظر وحـده يكفينا عــبرة لكي نختــار طريق المتقين ووفــدهم ، على طريق المجــرمين ووردهم جــاء في حــديث شــريف مــأثور عن تفسير علي بن إبراهيم عن أبي عبد الله (ع) قـال : سـأل علي (صــلوات الله عليــه) رســول الله (صــلى الله عليه وآله) عن تفســير قوله عز وجل : (**يَوْمَ نَحْشُــرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً**) قال :

«**يا علي الوفد لا يكـون إلا ركبانا ، أولئك رجـال اتقــوا الله عز وجل فــأحبهم ، وأخصــهم ورضي أعمـالهم ، فسـماهم الله متقين ، ثم قـال : يا علي أما والذي فلق الحبة وبرىء النسمة أنهم ليخرجــون من قبـورهم بيـاض وجـوههم كبيـاض الثلج ، عليهم ثيــاب بياضـها كبيـاض اللبن ، عليهم نعـال الـذهب شراكها من لؤلؤ يتلألأ**»

وفي حديث آخر قال :

«**إن الملائكة لتستقبلهم بنـوق من نـوق الجنة ، عليها رحائل الذهب مكلّلة بالدر واليـاقوت ، وجلالها** [1] **الإستبرق والسندس وخطامها جذل الأرجوان** [2]

---

(1) جلال ـ ككتاب ـ جمع الجل وهو للدّابة ـ كالثوب للإنسان تصان به.
(2) الجذل ـ أصل الشجر الخشبي والأرجـوان : شـجرة صـغيرة الحجم من فصيلة القرنيّات زهر وردي يظهر في مطلع الربيع قبل الأوراق.

وأزمتهم من زبر جد ، فتطير بهم الى المحشر ، مع كل رجل منهم ألف ملك من قدامه وعن يمينه وعن شماله ، يزفونهم [1] **حتى ينتهوا بهم الى باب الجنة الأعظم ، وعلى بـــاب الجنة شـــجرة ، الورقة منها يســتظل تحتها مـــأة ألف من النـــاس. وعن يمين الشـجرة عين مطهـرة مكوكبة** [2] **قـال : فيسـقون منها شربة فيطهر الله عز وجل قلـوبهم من الحسد ويسقط عن أبشارهم الشعر. وذلك قوله عز وجل :** (**وَسَـــقاهُمْ رَبُّهُمْ شَـــراباً طَهُـــوراً**) **من تلك العين المطهـرة ، ثم يرجعـون الى عين أخـرى عن يسـار الشـجرة فيغتسـلون منها : وهي عين الحيـوة ، فلا يموتون أبدا»**

ثم قال :

«**يوقف بهم قـــدام العـــرش وقد ســـلموا من الآفات والأسقام والحر والبرد ، قال فيقول الجبـار جل ذكـره للملائكة الـذين معهم : أحشـروا أوليـائي الى الجنة ولا تقفـــــوهم مع الخلائق ، قد ســـــبق رضـائي عنهم ووجبت لهم رحمـتي ، فكيف أريد أن أوقفهم مع أصـــــحاب الحســـــنات والســـــيئات ، فتسوقهم الملائكة الى الجنة ، فاذا انتهوا الى بــاب الجنة الأعظم ضـربوا الملائكة الحلقة ضـربة فتصـرّ صريرا** [3] **فيبلغ صوت صريرها كل حـوارء خلقها الله عز وجل وأعـــدها لأوليائه ، فيتباشـــروا إذ ســـمعوا صوت صرير الحلقة ويقول بعضهم لبعض : قد جاءنا أوليـــاء الله فيفتح لهم البـــاب ، فيـــدخلون الجنة ويشرف عليم أزواجهم من الحور العين والآدميين ، فيقلن : مرحبا بكم فما كـــان أشد شـــوقنا إليكم ، ويقول لهم أولياء الله مثل ذلك»**

فقال علي (صلوات الله عليه) : من هـؤلاء يا رسـول الله؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) :

يا علي هـؤلاء شـيعتك المخلصـون في ولايتـك ، وأنت إمامهم وهو قول الله

---

(1) رف العروس إلى زوجها : أهداها ـ قـال المجلسي «ره» في مـرآة العقـول ، أي يـذهبون بهم على غاية الكرامة كما يـزف العـروس إلى زوجها.

(2) كذا في النسخ ، لكن في المصدر وكتـاب الروضة والمنقـول عنهما في البحار «مزكية» وهو الظاهر.

(3) صر صريرا : صوّت وصاح شديدا.

عز وجل : (يَـوْمَ نَحْشُـرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الـرَّحْمنِ وَفْـداً) على الرحائل ، (وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً) [1]

من يملك الشفاعة؟

[87] (**لا يَمْلِكُـونَ الشَّـفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَـذَ عِنْـدَ الرَّحْمنِ عَهْداً**)

الشفاعة في الـدنيا نوعـان : شـفاعة باطلة وشـفاعة صـحيحة ، فـاذا قلت : أنا ابن فلان ، وأنتمي الى الـدين الكذائي دون أن أعمل بتفاصـيله وأعماله ، فهـذه شـفاعة باطلة ، وكـذلك لو قلت : إنـني أنتمي الى هـذا الحـزب أو تلك المنظمة مما تعبد من دون الله ، فـأنت لا تشـفع لهم ولا هم يشـفعون لك وإنما أنت شـفيع عملك ، أي إنك قرين عملك ، وهو الـذي يبقى معك ، ومن عمل الإنسـان انتماؤه الصحيح الى الرسالة ، فاذا انتميت انتمـاء صـحيحا إلى قائد أو إمام عـادل ، وأطعته طاعة مخلصة لوجه الله سـبحانه ، ثم أذنبت ذنبا صـغيرا فـان الله يعهد الى ذلك الامام بالشفاعة لك ، وهـذه هي الشـفاعة الصـحية. ومن ثم فأنت في وفد المتقين ، وهذه فكـرة الطاعة الواعية ، الـتي تسـتتبع الشـفاعة حـتى ولو لم يكن هنـاك رابطة عنصـرية ولا عصـبية ولا قومية بينك وبين ذلك الإمـام ، ولكنك تطيعه لوجه الله ، فأنت تكون وليّا له ، وفي وفـده يوم القيامة ومن هنا جاء في حديث شـريف تفسـير العهد باتباع الإمام العادل عن أبي بصـير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قـال : قلت : قوله : «**لا يَمْلِكُـونَ الشَّـفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً**» قال :

«**إلّا من دان الله بولاية أمـير المؤمـنين والأئمة من بعده ، فهو العهد عند الله**» [2]

(1) نور الثقلين ج 3 ص 359 / 360.
(2) المصدر ص 362.

الشفاعة الباطلة :

[88] ثم يعـود القـرآن ــ بعد ذلك ــ لينسف فكـرة الشفاعة الباطلة فيقول :

(**وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً**)

إنما قـالوا ذلك ليكرسـوا فكـرة الشـفاعة إذ أنهم يقولون : لأننا أولاد الله ، أو أبناء المتقين ، فسوف نـدخل الجنة ولا يعذبنا الله شيئا!

والقرآن ينفي هذه الفكرة أساسا فيقول :

[89] (**لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا**)

أي ان فكرتكم هذه كـذب عظيم فالله هو الـذي خلق السـماوات والأرض ، وخلق المنظومـات الشمسـية والمجرات والفضاء اللامتنـاهي ، ولو كـان له ولد سـبحانه لوجب أن يكون ولده بمستواه سبحانه.

[90] (**تَكـادُ السَّـماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْـهُ وَتَنْشَـقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا**)

السـماوات والأرض والجبـال لا تتحمل تلك الكذبة المبتدعة ، والقرآن الحكيم يعطينا هذه الصـورة ليوضح لنا : بـأن هـذه الكلمة ليست صـغيرة في مقيـاس الحق ، فالذي خلق السـماوات الـتي لا يمكن أن تحصى نجومها ، والذي خلق الأرض الواسعة ، هل يمكن أن يتخذ ولدا؟!

إن هذه فكرة غير متناسبة وعظمته سـبحانه ، ولا مع أيّة قيمة من قيم الفكر ، وايّ مقيـاس من مقـاييس العقل!!

يتفطّرن : أي يتفتتن ويتشققن.

ولعلّ هناك إيحـاء آخر في هـذه الآية ، هو : إن الكذبة الكبـيرة هـذه ، قد سـببت جـرائم كبـيرة ، بحجم تفطر السماوات وانشقاق الأرض ، وهـدّ الجبـال ، مثل الجـرائم الـتي قـامت بها النازية في العـالم ، أو الـتي قـام بها العنصريون في جنوب إفريقيا ، وحتى الجرائم الـتي تقـوم بها أمريكا وروسيا وسائر المستكبرين في العالم. وكلها ،

حين نبحث عن جذورها ، نجد أنها تنمو من أرض العنصرية الخبيثة ، حيث أنها ناشئة من تمحور الإنسـان حـول ذاته ، واعتقاده بأنه أفضل من نظائره.

أنظر ـ مثلا ـ الى الأفكار العنصـرية الـتي زعمت بـأن الحضـارة ، إنما تنشأ من العنصر الآري لأنه العنصر الـذي خلقه الله بشكل أفضل ، هذه السفاهة التي انتشـرت بعد الثـورة الفرنسـية ، والـتزم بها بعض النبلاء والأشـراف ، وتـورط فيها بعض علمـاء الاجتمـاع والتـاريخ علما بـأن الآريين لم يخلقوا الحضارة أصلا في أي فـترة من فـترات التـاريخ ، وغاية ما في الأمر أنهم كـانوا أسـلاف اليونـان الـذين صـنعوا الحضـارة في التـاريخ ، ومن بين واحـدة وعشرين حضارة نشأت في العالم ، فان هذه واحـدة منها فقط أما العشـــرون الباقية فهي غـــير أوربية ، وإنما الأوربيـــون اســـتفادوا منها ، كما إنهم قد اقتبســوا من الحضارة الإسلامية كثيرا.

[91] (**أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً* وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً**)

الرحمن الذي شـملت رحمته كل عبـاده ، لا يمكن أن يفـرق بين جنس وآخر ، ولا يمكن أن يقـول أن الـبيض أو السود ، أو الأوربيين أو الآسـيويين أو غـيرهم ، هـؤلاء دون غـيرهم ، يسـتحقون رحمـتي .. إنه الـرحمن وآثـار رحمته موجودة في كل مكان.

ـ نعم ـ إذا رأيت الشمس أشـرقت فقط على آسـيا ، أو على أوربا أو أن الريـــاح حملت الســحب الى المدينة الكذائية ، أو أن قـارة أوربا فقط هي الـتي أنبتت الـزرع واحتـوت على المعـادن ، إذا رأيت مثل ذلك فربّما يكـون لك الحق في أن تقول : أن أولاد هذه القارة هم أبناء الله سبحانه ، لكن شـيئا من ذلك لا يشـاهد ، فآثـار رحمة الله تشمل كل شيء. إذن فهو لا يتخذ من بين عباده ولدا دون آخر وهـــذه هي العلاقة بين فكـــرة نفي الولد عن الله ، واستخدام كلمة الرحمن المكررة في هـذه الآيـات ، فلأنه الرحمن ، فهو لا يفضل بعض الناس على بعضـهم دون أن يكون ذلك التفضيل نابعا من عملهم وسعيهم.

[93] (**إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً**)

هؤلاء جميعا متساوون أمام الرحمن في عبوديتهم له.

[94] (**لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا**)

إن الله لا يمكن أن ينسى أحدا من عباده أبدا ، سواء كـــان في غابة أو في كهف فهو عبد الله والله قد كتب له اسما ، وقرّر له مواهب ، وأجرى له رزقا ، وكذلك المتربّع على الكرسي في قصـــره العظيم. والـــذي ملأ أرصـــدته البنوك الأجنبية أحصاه الله وأحصى ذنوبه.

ولعـــلّ تكـــرار الآية بمعـــنى الإحصـــاء ثلاث مـــرات (أحصاهم ـ وعدّهم ـ عدّا) يعـــني أنه لا يمكن أن يفلت من حسـاب الله شـخص أبـدا لا صـغير ولا كبـير ، ولا غـني ولا فقير ، فكلّهم سيحاسبهم ويجازيهم بما قـدّموا من أعمـال في حياتهم الدنيا.

[95] (**وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً**)

كل العلاقات الدنيوية المزيفة ستتسـاقط ، وسـيأتون الرحمن بشكل أفراد ـ نعم ـ أن العلاقة الوحيـدة المجدية بعد علاقة الخلق والعبودية الـــتي تربط العبيد بـــربهم هي علاقة الايمان والعمل الصالح.

[96] (**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا**)

إن الله يحب هـــؤلاء وهم يحبونه ، وهـــذه هي العلاقة الصـحيحة بين العبد وربّه ، لـذلك أمر الرسـول (ص) عليا (ع) أن يدعو ربّه ليرزقه الودّ في قلوب المؤمنين كما جاء في الحديث التالي :

في تفســير علي بن إبــراهيم وأما قوله : (**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ**

سَـيَجْعَلُ لَهُمُ الـرَّحْمنُ وُدًّا) فانه قـال الصـادق (عليه السلام) كان سبب نزول هذه الآية إن أمير المؤمنين كـان جالسا بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال له :

«**قل يا علي : اللهم اجعل لي في قلـــوب المؤمنين ودا**»

فـأنزل الله : (**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ سَـيَجْعَلُ لَهُمُ الـرَّحْمنُ وُدًّا**) ثم خـاطب الله نبيه (ص) فقال : «**فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ**» يعني القـرآن «**لِتُبَشِّـرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُـدًّا**» قـال : أصـحاب الكلام والخصومة.

[97] ومن مظـاهر رحمة الله ، انه يسّـر القـرآن ، وسهّل آياته وأوضحها ، لكي يستطيع الرسول أن يبشر بها المؤمنين وينذر بها المعاندين.

(**فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْـذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا**)

قوما لدّا : جماعة معاندين وجاحدين.

إن أكبر ما ينذر الإنسان هو الموت ، «**كفى بالموت واعظا**» لكن بعض النـاس يقولـون ، ليس من المهم أن نموت فأولادنا سوف يبقون ، وخطنا سوف يبقى ، وبهـذه الأفكار يهوّنون على أنفسهم المـوت ، ولكن القـرآن ينفي ذلك ويقـول : ليس أنتم وحـدكم الـذين تموتـون ، بل سـيموت معكم أبنـاؤكم وعشـيرتكم ، ونهجكم وخطكم ، وكل شـيء يرتبط بكم ، يهلك ويفـنى ، وهـذا أكـبر إنـذار للإنسان ، وإذا لم يتعظ الإنسان بذلك ، فانه سـوف يواجه مصيره الرهيب.

[98] (**وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَـرْنٍ هَـلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً**)

قد لا يبقى من الأمة أحد ، ولكن يبقى أثر من الآثـار في بعض الصور أو بعض

الكتابــات أو .. أو ، ولكن القــرآن يقــول : لقد صــفّيناها تصفية كاملة ، ولا حتى صوت يخرج منها لا عــال ولا خفيّ ، جاء في حديث مأثور عن أئمة آل البيت (عليهم السلام) فيما وعظ الله عز وجل به عيسى (عليه السلام) :

«وطىء رسوم منازل من قبلك وأدعهم وناجهم هل تحس منهم من أحد ، وخذ موعظتك منهم ، واعلم أنك ستلحقهم في اللاحقين»

وكلمة أخيرة : إنّ فكرة اتخاذ الولد لها وجهتان :

الأولى : إنها تعطي للظالم حق الظلم.

الثانية : إنها تسـلب من المظلـوم حق التمـرد ولـذلك نجد المســتعمرين أشــاعوا هــذه الفكــرة بين الشــعوب المستضـعفة ، وانهم إنما تقــدّموا لأن الله أراد لهم ذلك ، ولأن الطبيعة الــتي كــانت حــولهم كــانت أســخى ، ولأن عقولهم كانت أكبر ولأن حظهم كان أوفر ، ولأي شيء.

وينسف القرآن الحكيم هذه الفكـرة ويقـول : لا تفكر أيها الإنســـان ، إن للجنس الفلاني مـــيزة عليك وإن الله فضّله عليك تفصيلا ، كلا .. بل ربما يكـون أقل منك عقلا ، وأرضه أقل ســخاء وبالتـــالي فهو أقل تعرضا لرحمة الله منك ، وبالتالي فان الحضارة أقرب إليك ، وإنما تقـدم من تقدم ، وتأخر من تأخر بسبب عمله ..

وأتصوّر إن إشاعة هـذه الفكـرة المعاكسة وترسـيخها في الشــعوب المستضــعفة ، تلهمهم الانـــدفاع وتعطيهم الدافع نحو بناء حضارتهم والتخلص من نير المستكبرين.

سورة طه

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

1 ـ عن النبي محمد (ص) قال :

«**من قرأها أعطي يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار**».

الثقلين / ص 366 / ج 3

2 ـ عن الإمام الحسين (ع) قال :

«**لا تــدعوا قــراءة طه فــان الله ســبحانه يحبها ويحب من قرأها ، أعطــاه يــوم القيامة كتابه بيمينه ولم يحاسبه بما عمل في الإسلام واعطي من الأجر حتى يرضى**».

م البيان / ص 1 / ج 7

الإطار العام

من المعــروف إن اسم هــذه الســورة مســتلهم من الكلمة الأولى الـتي نجـدها فيها ، وهكـذا أسـماء كثـير من ســور القــرآن تســتلهم من الكلمــات الاولى أو من بعض المشاهد البارزة في تلك السـورة ، فسـورة يس اسـتلهم اسمها من كلمتها الاولى ، أما سورة الطارق فقد اسـتلهم اسمها من كلمة بارزة فيها.

والسؤال : ما هو الموضـوع الـذي تبحثه آيـات سـورة طه؟

يحدد البعض من المفسرين نظراته حول سور القرآن عــبر الموضــوعات العامة والمشــتركة بينهما وبين ســائر السور ، فكلّ سور القرآن في تصوره تدور حـول ضـرورة توحيد الله ، والايمـــــــان بحاكميته المطلقة على الأرض والسماء والإنسان وهكذا.

ولا شك ان هــذا صــحيح ، ولكن لا يكفي ذلك وحــده فالمواضــيع الهامة موجــودة في كــلّ الســور ، فلما إذا تكــررت؟ وما هي الفــوارق بينهمــا؟ وهل يكفي لنعــرف مدينة أن نقـول بأنها بـنيت من الطـوب والاسـمنت ، وان شوارعها معبدة؟ أم انه يجب أن

نرسم خريطة تفصـــيلية لها ولشـــوارعها ، وأســـواقها وجغرافيتها الطبيعية ، وجغرافيتها الاقتصـادية ، والبشـرية وما أشبه ، لكي يتضح الفرق بينها وبين المدن الأخرى؟

إن العلم هو إحاطة بـدقائق الأمـور ، وحـدود الأشـياء التي تفضلها عن سواها.

وعلم التفسـير ـــ بـدوره ـــ يجب أن يحيط خـبرة بالموضوعات المتميزة في سـور القـرآن ، وما يميّز هـذه الموضـوعات عن مثيلاتها في سـائر السـور مع العلـوم والمعارف الجديدة التي تستلهم من كلّ سورة ، ومن كلّ آية من هذه الآيات ، بل حتى الآية الواحدة الـتي تـأتي في القـرآن مـرتين بنفس الألفـاظ وبنفس التعـابير ومن دون أية زيادة أو نقيصة يجب أن نبحث فيها عن معارف جديدة تميزها عن التي سبقتها أو تلحقها بسبب اختلاف السياق.

فهل إنّ معنى «**بِسْـمِ اللـهِ الـرَّحْمنِ الـرَّحِيمِ**» في كـلّ سـور القـرآن واحـد؟ كلا .. إنّ كـلّ سـورة تبحث عن قضية و «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ**» في تلك السـورة مرتبطة بتلك القضية.

إذا أراد المـؤمن القيـام يقـول بسم الله ، وإذا أراد الطعام يقول كذلك بسم الله ، وإذا أراد الذهاب قال بسم الله ، وإذا أراد الكتابة قـال أيضا بسم الله ، فهل هـذه الكلمات ذات معنى واحد؟ كلا .. بل يقول بسم الله أقـوم ، وبسم الله أجلس ، وبسم الله آكل ، وبسم الله أذهب ، وبسم الله أكتب ، فهو يستعين بالله الذي أعطـاه القـدرة على القيام ، وتفضل عليه بنعمة الطعام ، وأعطـاه العقل ، وهكـذا لا تعـني البسـملة ذات المعـاني في مختلف المجالات التي ينتفع بها.

وكذلك في القرآن الحكيم نزلت ـ بسم الله الـرحمن الرحيم ـ مع كلّ سورة ، ولم تنزل مرة واحدة في القرآن كله ، وإلّا لم يكن الرسول يجعلها في رأس كلّ سورة

وهو الــذي لا ينطق عن الهــوى إن هو إلّا وحي يــوحى ، وترتيب القرآن بهذه الصـورة لم يكن اعتباطيا انما هو من توجيه الرسول (ص)، إذ كان يأمر بوضع آيـات القـرآن في مواضـعها المحـدودة لها من قبل الله تعـالى ، كما يظهر ذلك من ملاحظة سياق الذكر ويدل عليه التاريخ.

إذا فلما ذا جعل القرآن ـ بسم الله الرحمن الرحيم ــ على رأس كلّ سـورة ، فـإن لم تكن هـذه الآية قد نـزلت فمن المستحيل على الرسول أن يضيفها من تلقــاء نفسه ، وإلّا فلما ذا لم يكرر آية أخرى أو كلمة أخرى؟!

فان أيّة آية جديدة تنزل من السـماء مـرة جديـدة ، لا بـدّ أن تحمل فكـرة جديـدة أيضا ، ففي تفسـيرنا للآيـات القرآنية ، وفي معرفتنا للســـورة القرآنية وموضـــوعاتها يجب أن نبحث عما يميزها عن ســائر الأمــور ، في نفس الـوقت الـذي نبحث عن الخطـوط العامة المشـتركة بينها وبين سائر السور.

فآيات القرآن متشابهات (بعض آياته مثل بعضـها) لأن أصولها واحدة وبلاغتها واحـدة ، وفي نفس المسـتوى ، إذ كلّ آيات القرآن تدل على الاعجاز ، كما تدل على انها من الله ، وليست من البشر ، ولكن ـ في نفس الوقت ــ نجد ان لكــلّ آية من آيـــات القـــرآن موضـــوعا خاصا بها ، وموضوعات أعمّ بالنسبة الى سياقها ، وأعمّ بالنسـبة الى السـورة الواحـدة الـتي نجد الآية فيها ، فما هو الموضـوع الرئيسي في سورة طه؟

أكـثر من تسـعين آية من آيـات هـذه السـورة البالغة مائة وخمسة وثلاثين آية تبحث قصة موسى ، والأربعين آية الباقية منها تبحث مواضـيع شـتى ، من بينها قصة أبينا آدم عليه أفضل الصــلاة والســلام ، وســبب خروجه من الجنة ، وكيفية إغواء إبليس له.

فهل هـذه السـورة كسـورة يوسف ، حيث تبحث عن قصة موسى ، كما كانت

تلك السورة تبحث عن قصة يوسف؟

حـدثنا القـرآن الحكيم عن قصة بـني إسـرائيل وقصة موسى معهم في ســورة البقــرة ، ويحــدثنا عن موسى وقصـــته مع قومه ومع فرعـــون كما يحـــدّثنا أيضا عن السحرة ، فما هو الفرق؟

الفرق هو إن القرآن الحكيم في سورة البقرة ـ مثلا ـ انما يحـدثنا عن الجـانب الاجتمـاعي والأمـني ــ إن صـحّ التعبير ـ لنبي إسرائيل ، باعتبارهم أمة مستضعفة قـاومت المسـتكبر واتصـفت بصـفاته عند ما بنت حضـارتها وكيف انسـجت عليها تلك الصـفات فبـدأت بحركة للتطهـير وما أشبه.

هذه الموضوعات نجدها في سورة البقرة في حـديثها عن بني إسـرائيل ، أما قصة بـني إسـرائيل وقصة موسى عليه الصلاة والسلام معهم ومع فرعـون في سـورة طه ، فانها تتناول جانبا آخر هو جانب الإنسان في هذه القصة.

الإنسان الذي خرج من الجنة بسبب غريزتيه الذاتيتين اللتين انحرفتا وتضـخمتا وهما غريزتا التملك وحب الخلـود ، هذا الإنسان نجده عند فرعـون وقد اكتملت فيه أسـباب الانحــراف حــتى أوصــلته الى أبعد ضــلالة ، ونجــده عند موسى وقد قـــاوم الغريـــزتين فـــاكتملت فيه صـــفات الاستقامة ، ونجـده في الصـراع بينهما الـذي يتمخض عن مفاجأة هامة ، هي السـحرة الـذين انحرفـوا حـتى وصـلوا في انحـرافهم الى حـدّ انهم أصـبحوا أدوات بيد الطـاغوت فرعـون ، ثمّ مـرة واحـدة وبسـبب تلك الانسـانية الكامنة فيهم وصلوا الى القمة.

هــذا هو الإنســان ، والقــرآن يركز الضــوء على هــذا الإنســان ، ليس بصـورة عامة كما نلاحظ ذلك في سـورة الأعراف مثلا ، بل بصورة خاصة يركز الضوء على علاقة

الإنسان بهدى الإله ، ومن الذي ينقذ الإنسـان في صـراعه مع الطبيعة والشهوات ، وكيف ينبغي للإنسـان أن يتحـدى الطبيعة ، وبما ذا؟

في آيـات سـورة طه إشـارات دقيقة الى موضـوعات خفية ، ينبغي أن نتدبر فيها لنعرف أسباب رقي الإنسـان ، وما هي العوامل الـتي لو الـتزم بها الإنسـان لاسـتطاع أن يتحدى وأن يقاوم طبيعته وبالتالي لاسـتطاع الوصـول الى الجنة؟

سورة طه

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**طه (1) ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى (2) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى (3) تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى (4) الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى (5) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَما تَحْتَ الثَّرى (6) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى (7) اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى (8)**

---

5 [استوى] : استولى ، وهو كناية من المالكيّة المطلقة.
6 [الثّرى] : التراب.

الداعية وهموم الدعوة

هدى من الآيات :

يبحث هذا الدرس من سورة طه موضوعات شتى ولا غرابة ، فكما قلنا مرارا :

ان الـدرس الأول والأخـير من سـور القـرآن قد تبـدو موضوعات غير منسجمة بادئ الرأي ، إلّا أنها ـ عند التأمل ـ نجـدها ترمز الى كـلّ الموضـوعات الـتي نجـدها في السورة ببلاغة نافذة وقول فصل.

والموضوعات في هذا الدرس تشير الى دور الرسالة ، وانها جاءت لسعادة الإنسان ، وان صاحب الرسالة الـتي يحملها لا ينبغي أن يقتل نفسه من أجل هداية الناس ، بل يكفي أن يـذكرهم ، فمن خشي تـذكر ، ومن لم يخش أعـرض ، وان هـذه الرسـالة إنما هي من الله رب السـماوات والأرض المحيط بهما وبالإنسـان وبما يجهر به من القـول أو يخفيه ، وان لله الأسـماء الحسـنى ، الـتي تتجسد في قصة موسى حيث انه ذهب فقـيرا ، مسـكينا ، ملتجئا الى الله فحمل معه مشعل الرسـالة مضـيئا وهّاجا وأنقذ سائر الناس بهذا المشعل الوقاد من الظلمات الـتي كانوا فيها.

ذلك المشـعل الـذي كـان قوامه ذكر الله المتجسد ، وتوحيد العبادة لله ، والايمان بالآخرة ، والايمان بـان عمل الإنســان هو الــذي يتجسد في الآخــرة ، وان كــلّ نفس تجــزى بما علمت ، هــذه هي الموضــوعات الــتي يبحثها الدرس الأول من سورة طه.

بينات من الآيات :

الرسول وهموم الهداية :

قيل في كلمة «طـه» ما قيل في الحـروف المقطعة في بداية الســـور ، وأقـــول فيها ما قلته في أمثالها في سائر السور القرآنية ، حيث أتصـور بـأن الكلمة ترمز الى القــرآن الحكيم ، ولعلها هنا ــ كما جــاءت في النصــوص الاســلامية ــ رمز الى الرســول صــلى الله عليه وآله ، فتكـون لفظة (طـاء) اخـتزالا لجملة (طـالب الحـق) بينما تكون لفظة (هاء) اختزالا لجملة (الهادي اليه) [1]

كما اننا نشير الى كتاب ونقول : هذا الكتاب ، فكذلك لفظة (طه) انما هي الى القــرآن ذاته ، وقيل : ان طه هو رسول الله (ص).

[1 ـ 2] (**طه* ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى**)

إن رسـالة السـماء تـنزل على الإنسـان لا لكي يهلك نفسه حزنا عليها لان المجتمع لا يـؤمن بها ، فهو لا يتحمل مسئوليته إلّا بقدر البلاغ فقط ، وانما الرسـول مبلغ ، فلما ذا يشقي نفسه؟

قيل ان الرســول (ص) كـان يســهر الليل بالعبـادة ، ويمضي النهار بالصيام ، متعبا نفسه ، وقد جاء في حـديث شريف عن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال :

(1) تفسير نور الثقلين / ج 3 / ص 367.

«ولقد قـام رسـول الله عشر سـنين على أطـراف أصابعه حتى تـورّمت قـدماه ، واصـفرّ وجهه ، يقـوم الليل أجمع حتى عوتب في ذلك فقال الله عزّ وجل ـ (**طـه* ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى**) ـ بل لتسعد به» [1]

والتفسير صحيح ، وهو سـبب الـنزول ، ولكن القـرآن الحكيم ليس خاصا بشخص الرسـول الكـريم فقط ، وانما نـزل كما في حـديث للإمـام الصـادق (ع) على لغة (إيـاك أعـني واسـمعي يا جـارة) ، ونسـتفيد من هـذه الآية أن صـاحب الرسـالة ينبغي أن لا يشـقي نفسه لان النـاس لا يؤمنـون ، ولا أن يكلف نفسه فـوق طاقتها في تحمل واجبـات الرسـالة ومنـدوباتها ، وقد أجهد الامـام الحسن عليه السـلام نفسه بالعبـادة مـرة فنهـاه والـده أمـير المؤمنين (ع) قائلا : يا بني ان هذا الدين مـتين فأوغل فيه برفق.

[3] (**إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى**)

فاذا خشي الناس واعتبروا فلهم جزاؤهم ، وإلّا فليس عليك من أمرهم شيء.

والقرآن تذكرة لمن يسـتفيد منه ولمن يوجد في ذاته الاسـتعداد لـذلك ، كما الأرض لا تسـتفيد من المطر إلّا بشرط أن تكون مستعدة لاستقباله ، وكذلك قلب الإنسان لا يسـتفيد من بركة الرسـالة ، إلّا بشـرط اسـتعداده لاستقبالها واستعداده بالتذكرة والخشية.

ومن الذي يخاف؟

هل المجنـون أو الطفل الصـغير؟ أم الإنسـان الهـائج الـذي أذهب الغضب عقله ، أو الغافل الـذي حجبت الغفلة عقله؟ كلا .. انما يخاف الذي ينظر الى المستقبل ،

---

(1) المصدر.

ويفكر في عواقب الأمور ، وهذا هو الإنسان الذي يستفيد من الرسالة ، لأنه عاقل ، ولذا كان الخوف من علامات العقل.

هيمنة الله :

[4] (**تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى**)

السماوات العلى أي العالية.

قد يبدي الإنسان نوعا من الذهول عند ما يقرأ الأرقام العلمية ، فقد كان العلماء يقدّرون عدد النجوم بالآلاف ، ثمّ قدروها بمئات الألوف ، ثمّ بالملايين والمليارات ، وبعد ذلك عجز علمهم عن الإحصاء ، وكانوا في البداية يقدرون المسافات والابعاد التي تفصل الاجرام السماوية عن بعضها بوحدات القياس الاعتيادية ، ثم اكتشفوا ان هذه الوحدات الطويلة أعجز من أن تصمد أمام المسافات الكونية الرهيبة ، فلجئوا الى استخدام السنة الضوئية في القياس ، وهي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة كاملة في حين ان سرعة الضوء تبلغ حوالي (300 ، 000) كيلومترا في الثانية.

هذه الأرقام يكاد الإنسان لا يصدقها من ضخامتها ، وكثير منا لم يصدق بهبوط الإنسان على القمر ، وانه للحقيقة ، وكان القرآن الحكيم يشير الى أن رسالة السماء نور منزل من خالق السماوات العلى.

[5] (**الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى**)

وهو رحمن ، لأنه خلق هذه السماوات وهذه النجوم وهذا الفضاء اللامتناهي وهذا الإنسان ، فرحمته تتجلى في إيجاد الأشياء من بعد العدم واعطائها كيانا بعد أن لم تكن شيئا مذكورا.

ثمّ لم يـترك السـماوات بعد خلقها عبثا ، انما اسـتوى عليها ، أي يشرف عليها ويأمرها فتـأتمر ويزجرها فـتزدجر ، وبالتالي هو المسيطر المهيمن على السـماوات والأرض ، فلا شـــيء فيها أقـــرب اليه من شـــيء ، لأنه محيط بها جميعا ، علما وقـدرة وسـلطانا وتـدبيرا ، جـاء في حـديث شريف عن عبد الرحمن بن الحجـاج قـال ، سـألت أبا عبد الله عن قـــول الله عـــزّ وجل (**الـرَّحْمنُ عَلَى الْعَـرْشِ اسْتَوى**) ، فقـال : اسـتوى من كـلّ شـيء ، فليس شـيء أقرب اليه من شـيء ، لم يبعد منه بعيد ، ولم يقـرب منه قريب ، استوى من كلّ شيء. [1]

والعرش هنا بمعنى مركز القدرة والسلطة والتـدبير ، وتعالى الله عما يتصوره الجاهلون ، من أن العرش مقـام ربنا المادي .. كلا : إن العرش لا يتحمل الرب ، انما الرب هو الـذي يحمله ، جـاء في حـديث مـأثور عن الإمـام علي عليه السلام قاله لوفد النصارى ورئيسهم جاثليق :

فكـــان فيما ســـأله أن قـــال له : أخـــبرني عن ربك أيتحمـــل؟ فقـــال علي (ع) : إن ربنا جـــلّ جلاله يحمل ولا يحمل ، قال النصراني : وكيف ذلك ونحن نجد في الإنجيل : «ويحمل عـرش ربك فـوقهم يومئذ ثمانيـة» فقـال علي (ع) : ان الملائكة تحمل العرش ، وليس العرش كما تظن كهيئة السرير ، ولكنه شيء محدود مخلوق مدبر وربك عزّ وجل مالكه ، لا انه عليه ككـــون الشـــيء على الشـــيء ، وأمر الملائكة بحمله ، فهم يحملـون العـرش بما أقـدرهم عليه ، قال النصراني : صدقت يرحمك الله [2]

وجاء في حديث آخر مأثور عن حنان بن سدير قـال : سـألت أبا عبد الله (ع) عن العـرش والكرسي فقـال : ان للعرش صفات كثيرة مختلفة ، له في كلّ سبب وضع في

---

(1) المصدر / ص 368.

(2) المصدر.

القرآن صفة على حدة ، فقوله : (**رَبُّ الْعَـرْشِ الْعَظِيمِ**) قـول : الملك العظيم ، وقوله : (**الـرَّحْمنُ عَلَى الْعَـرْشِ اسْتَوى**) يقول : على الملك احتوى : وهذا ملك الكيفوفية في الأشـياء ، ثمّ العـرش في الوصل منفـرد من الكرسي لأنهما بابان من أكبر أبواب الغيـوب ، وهما جميعا غيبـان ، وهما في الغيب مقرونان ، لان الكرسي هو الباب الظاهر من الغيب الــذي منه يطلع البــدع ، ومنه الأشــياء كلها ، والعــرش هو البــاب البــاطن الــذي يوجد فيه علم الكيف والكـون والقـدر والحد والأين والمشـية ، وصـفة الارادة ، وعلم الألفاظ والحركـات ، والـترك وعلم العـود والبـداء ، فهما في العلم بابـان مقرونـان ، لان ملك العـرش سـوى ملك الكرسي ، وعلمه أغيب من علم الكرسي ، فمن ذلك قـال : (**رَبُّ الْعَـرْشِ الْعَظِيمِ**) أي صـفته من صـفة الكرسي ، وهما في ذلك مقرونان[1]

[6] (**لَـهُ ما فِي السَّـماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَما تَحْتَ الثَّرى**)

ولم يملّك القـرآن أحـدا شـيئا ، لان الأشـياء كلها لله سبحانه ، وهو الذي يحكم فيها ، وإذا أعطى الإنسان شـيئا ، فانما يخوله الاستفادة منه ، ويكون في الواقع مسـتخلفا فيه لا مالكا حقيقيا له.

[7] (**وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى**)

إذا جهرت بكلامك وأعلنته ، فـان الله سـبحانه لا يعلم ما جهرت به فقط ، وانما أيضا يعلم خلفيـات جهـرك ، ان كلّ كلمة ينطقها الإنسان جهـارا قد يكـون من ورائها ألف مقصد ومقصد وكلّ ذلك قد أحاط به الله علما.

---

(1) المصدر / ص 369.

الله يتجلى :

[8] (**اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى**)

كلّ ذلك الجمال والجلال وتلك العظمة التي نشـاهدها في الموجــودات المخلوقة من حولنا انما هي آية لأســماء الله سـبحانه وتعـالى ، وانعكـاس منها على الطبيعة ، أنت تبحث عن الجمــال وعند ما تــرى شــيئا جميلا فانك تبحث عما هو أجمل منه ، وتبحث عن القــوة ، فــإذا رأيت قويا تبحث عمن هو أقوى منه ، وتبحث عن العظمة فـاذا رأيت عظيما تبحث عمّن هو أعظم منه ، لان قلبك انعكست عليه أســماء الله الحســنى ، أســماء الجلال والجمــال والعظمة التي هي لله ، فلا يقتنع القلب بـالمخلوق ، بل لا يبحث عنه حقا.

وأسـماء الله تشـير الى صـفاته وهي كثـيرة ، منها ما أوتي البشر علمه ، ومنها ما أوتي الأصـــــفياء من البشر فقط علمه ، ومنها ما هو غيب لا يعلمه إلّا رب العـــــزة ، وقد جاء في حديث نبوي شريف :

«**إن الله سبحانه وتعـالى تسـعة وتسـعين اسـما من أحصاها دخل الجنة**» [1]

---

(1) تفسير نور الثقلين / ج 3 / ص 373.

وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (9) إِذْ رَأى ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً (10) فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى (13) إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى (15) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَاتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى (16)

---

10 [بقبس] : القبس هو الشعلة للتدفئة.

النداء المقدس

هدى من الآيات :

في اطار موضوع سورة طه التي تتحدث عن علاقات البشر بالدنيا وزينتها من جهة ، ورســالات الله وقيمتها من جهة ثانية ، يتساءل السياق هنا : هل سمعت قصة موسى حينما حار بأهله في الصحراء فرأى نارا فذهب إليها ليـأتي منها بقبس ، أو يجد هدى ، ليعرف كيف يخرج من أزمته؟

وحين وصل إليها نـاداه الـرب : إني أنا ربك ، وأمـره بأن يخلع نعليه لأنه في مكان مقدس ، وأخبره بأنه اختاره لرســالاته ، وعليه أن يســتمع إليها ، وهي عبادته ، وإقامة الصــلاة لــذكره ، والايمــان بالســاعة الــتي لا ريب فيها ، وحينها تجــزى كــلّ نفس بما تســعى ، والتحصن ضد من يصدون عن الساعة لأنهم لا يؤمنون بها ويتبعون أهــواءهم ، وهم يريدون هلاكه.

كما ان الإنســــان يفيق في الصـــــحراء من الغفلة والضـلالة فتحيط به الظلمـات ، وتلاحقه عوامل الخـوف ، فيبحث عن مشعل يستضيء به ، وعن دفء يأوي إليه ...

كـذلك موسى كـان في تلك الليلة المظلمة الشـاتية يسير في صحراء سيناء يبحث عن دفء وعن نـور ، يبحث عن دفء يعالج به البرد القارص وعن هدى ونور يضيء به طريقه ، فحينما رأى نـــارا من بعيد ، كـــانت تلك النـــار بالنسبة اليه «أنسا» فـاقترب إليها فـاذا بها خـير من النـار ومن النور ، انها (الرسالة) التي تعـالج مشـكلة الإنسـان ، معالجة جذرية ، فتسـيّر سـفينة عقله وتـذكره بربه وتخط له خطا مستقيما الى الله.

إن تصوّر موسى في تلك الليلة ، في تلك الصـحراء ، الى جـــانب وادي طـــوى ، وهو يكلم الله ، والله يكلمه ويناجيه ، تصـور هـذا المنظر يبعث إلينا مشـاعر مختلطة من السرور والرهبة.

فمن جهة نشعر باننا حينما نضـيع في صـحراء الحيـاة فلا بدّ أن نجد ربا يأخذ بأيـدينا ، ربا رحيما ودودا الى درجة أنّه يحدثنا. تـرى أن الله ينـاجي موسى بعبـارات قصـيرة ، ولكنّ موسى يتحدث حديثا طـويلا ، حـديث موسى مع ربه يكون بنفس طويل ، لأنه وجد في حـديث ربه أنسا ، كـان يريد أن يبقى طويلا مع ربه ، برغم انه كـان قد تـرك أهله ينتظرونه لـيرجع إليهم بالـدفء والهـدى ، وهـذا هو دائما منظر الإنســان وحالته وعلاقته مع ربه في الحيــاة ، وهي علاقة الأخذ من دون تكلف ، والاهتـداء به من دون خشـية أو رهبة.

ويبعث فينا هــذا التصــور الرهبة ، حيث نخشى بــأن يتركنا الرب إذا تركنا هداه.

ففي نفس الـوقت الـذي ترانا نحتــاج الى الله حاجة ملحة فهو رحيم بنا ، ودود معنا ، مع ذلك شـديد العقـاب ، هذه هي علاقة الإنسان بالله سبحانه وتعالى.

والآيات هذه توحي إلينا بفكرة أخرى ، تلك هي فكـرة ارتفــاع الإنســان الى هــذا المســتوى ، حيث يكلمه الله سبحانه وتعالى تكليما.

نحتفظ بهذه الصورة لنقارنها بعدئذ بصورة آتية ، وهي صــورة (فرعــون) ، فمــرة يكــون الإنســان في صــورة (موسى) ومـرة يكـون في صـورة (فرعـون) ، وكـلّ واحد من أبنـاء آدم في قلبه إنسـانان ، موسى وفرعـون ، فخذ لنفسك ما تشاء.

وهناك أفكار أخـرى تسـتلهم من هـذه الآيـات سـوف نتعرض لها عبر حديثنا التفصيلي.

بينات من الآيات :

حديث موسى :

[9] (**وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى**)

وهـذا الكلام ليس موجها الى رسـول الله (ص) فقط وانما هو ـ بصورة مركزة ـ موجّه إليك وإليّ.

[10] (**إِذْ رَأى ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً**)

عند ما جـاء موسى (ع) من مـدين الى مصر وبعد أن تـاه في الطريق مع أهله فـاذا به يشـاهد نـارا من بعيد فيتجه إليها لعله يحصل على جــذوة منها كي يتــدفى هو وأهله ، وآنست : مأخوذة من الأنس فلعله جاء تعبـيرا عن تصور وجود بشر هناك.

(**لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ**)

ربما كانت النـار بعيـدة فلم يشأ موسى أن يأخذ أهله الى تلك النار فيحمّلهم

مشقة الطريق ، لذلك أبقاهم في مكانهم.

(**أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً**)

لعلّني أسأل من قد يكون عند تلك النار عن الطريق.

القرآن يوجز العبـارات ، ويرمز من خلال الإيجـاز الى حاجات الإنسان في الحياة ، فمن جهة كـانت هنـاك حاجة مادية هي الـدفء والنـار ، ومن جهة أخـرى كـانت هنـاك حاجة معنوية وهي الهــدى ، ورســالة الله تــأتي بهــاتين الحاجتين معا ولكن عبر سعي الإنسان.

فالإنسان+ الرسالة الوفاء بحاجاته كلها.

النداء المقدس :

[11] (**فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى**)

جـاء موسى ليقتبس النـار وليهتـدي بهـدى أصـحابها ، فاذا بنداء يتناهى الى سمعه لا يعرف مصدره ، ولذلك عبر القـرآن بكلمة «نـودي» ، فيأتيه النـداء في البـدء وليست المناجاة لماذا؟

لأن الإنسان الغافل يحتاج الى نداء حتى يسـتيقظ من غفلته ، ثم يناجي من قريب.

من هذا الذي يناديني باسمي؟ من الـذي يعرفـني في هذه الصحراء ..؟

[12] (**إِنِّي أَنَا رَبُّكَ**)

فجـاءه الجـواب واضـحا بـأن : الـذي يكلمك هو رب العزة.

(**فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ**)
أول أمر هو أن يخلع موسى نعليه احتراما لمن يكلم ..

(**إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً**)
لما ذا يخلع نعليـــــه؟ وما هي العلاقة بين خلع النعلين وبين وجـود الإنسـان في مكـان مقـدس؟ ولما ذا يقـدس المكان ..؟

الجواب : إن خلع النعلين ـ كما أتصـور ـ إنما هو رمز يشـير إلى تجـرد الإنسـان من ارتباطاته وعلاقاته ، وهـذا التجـرد ضـرورة تمهيدية لاسـتقبال نـور السـماء ، نـور الرسـالة ، فـاذا كـانت عنـدك علاقة بأهلك ، بـأولادك ، بسـلطانك ، فانك لن تفهم الرسـالة ، ولن تتمكن من استيعابها.

إنما تفهم الرســالة ، إذا انفصـلت عن علاقاتك ، واتجهت الى الله ، لـذلك نحن في الحج ، تـؤمر بـأن نخلع ملابسك العادية ونلبس ملابس بسيطة ، يعـني تجردنا عن علاقاتنا الأرضـــية ، وقيمنا المادية ، وتوجهنا الى الله سـبحانه وتعـالى ، لـذلك أمر موسى بخلع نعليه ، وبـذلك جاءت النصوص الاسـلامية الـتي نفت في ذات الـوقت أن تكون نعلا موسى ـ آنئذ ـ من جلد حمـار ميت ولـذلك أمر بنزعهما نقـرأ معا النص التـالي المـأثور عن الامـام الحجة القائم عجل الله تعالى فرجه :

في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى سعد بن عبد الله القمي عن الحجة القائم عليه السـلام حـديث طويل وفيه : قلت فــاخبرني يا ابن رســول الله عن أمر الله لنبيه موسى : (**فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِـالْوادِ الْمُقَـدَّسِ طُـوىً**) ، فـان فقهـاء الفـريقين يزعمـون انها كـانت من إهاب الميتة؟ قـال صـلوات الله عليه : من قـال ذلك فقد افــترى على موسى فيها ، واســتجهله في نبوته ، لأنه ما خلا الأمر فيها من خطيئتين :

أما أن تكون صلاة موسى فيها جائزة أو غير جائزة ، فـان كانت صلاته جـائزة ، جـاز له لبسـها في تلك البقعة إذا لم تكن مقدسة ، وإن كانت مقدسة مطهرة فليست بأقـدس وأطهر من الصلاة ، وإن كانت صلاته غـير جـائزة فيها فقد أوجب على موسى عليه السـلام : أنّه لم يعـرف الحلال من الحرام ، وعلم ما جاز فيه الصلاة ، وما لم يجز ، وهذا كفر ، قلت : فـاخبرني يا مـولاي عن التأويل فيها : قـال صلوات الله عليه : ان موسى نـاجى ربه بـالواد المقـدس فقال : يا رب إني قد أخلصت لك المحبة مـني ، وغسـلت قلبي عمن سواك ، وكـان شـديد الحب لأهله ، فقـال الله تعالى : «**فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ**» أي انـزع حب أهلك من قلبك إن كانت محبتك لي خالصة ، وقلبك من الميل الى من سواي مغسول.[1]

والسـؤال الآخر : ما هي العلاقة بين خلع النعلين وبين الوادي المقدس طوى؟

العلاقة ان الإنسان في الأماكن المقدسة والمشرّفة ، يجب أن لا يكتفي بخشـوع قلبه ، وانما يجعل مظهـره بشكل يدل على أنه خاشع لله سبحانه.

لذلك يستحب في بعض الأماكن المقدسة أن يتحـرك الإنسان إليها بخطي وئيدة ، لكي تدل طريقة مشـيه على انه خاشع ، وهكـذا أمر الله موسى بـأن يخلع نعليه في ذلك المكـان المقـدس الـذي لم يقـدس لذاته ، وانما لأنه ينتسب الى من هو متصف بالقدسـية ، أو ليس أوحى الله سبحانه في هذا المكان ، أو ليس الوحي مقدسا؟

الوادي المقدس «طوى» هو في جانب طور سـيناء ، وسبب قداسـته حسب حـديث الرسـول (ص) لأنه قدست فيه الأرواح ، واصطفيت فيه الملائكة ، وكلّم الله عزّ وجل موسى تكليما.[2]

---

(1) نور الثقلين / ج 3 / ص 373 ـ 374.
(2) نور الثقلين / ج 3 / ص 374.

[13] (**وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى**)

الاختيـار هو تفضـيل شـيء لصـفة مميّـزة فيه ، وانما اختـار ربنا الحكيم موسى (عليه السـلام) لما وجد فيه من الصفات المثلى لحمل الرسالة ، وأهمها ـ فيما يبـدو لي ــ صفة : الخروج عن الذات ، والاهتمام بالآخرين.

وهـذه الصـفة كـانت متـوفرة في كـلّ الأنبيـاء وفي موسى ـ عليه السلام ـ بالذات ، فأنت تـرى انه نسي أهله ، وجلس يتحدث مع الله حديثا مفصلا ، لم يقل : ائـذن لي يا الهي حـتى أذهب واحضر أهلي ثمّ أكمل الحـديث ، كلّا بل ظـلّ يواصل الكلام ، كـذلك يقـول الله عن يوسف : (**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُـدَّهُ آتَيْنـاهُ حُكْمـاً وَعِلْمـاً وَكَـذلِكَ نَجْـزِي الْمُحْسِـنِينَ**) ، إن الله يجـزي أولئك الـذين يحسـنون الى النـاس ويحبـونهم ويعملـون من أجلهم ، ويخرجـون عن ذواتهم من أجل المصـلحة العامة ، هـؤلاء يهـديهم الله بإعطائهم الرسالة ، والحكم (الرسالة).

خلاصة الوحي :

[14] (**إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي**)

إن خلاصة الـوحي هي هـذه الكلمـات : الايمـان بالله إلها واحدا وعبادته.

(**وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**)

وإقامة الصـلاة ليست فقط بهـذه الحركـات الشـكلية التي يؤديها المصلي ، وانما هي رمز لخضوع الإنسان لأمر الله عزّ وجل ، واستعداده لتطـبيق كـلّ أوامـره وشـرائعه على نفسه وعلى أسـرته وعلى مجتمعة وأمتـه. ولـذلك فهي عمود الـدين ان قبلت قبل ما سـواها ، وإن ردّت ردّ ما سـواها ، ومن هنا وجب إقامة الصـلاة مـتى ما ذكرها الفـرد في وقتها أو بعـده ، كما روى عن أنس عن النـبي صلى الله عليه وآله :

«**من نسي صلاة ، فليصلها إذا ذكرها ، لا كفـارة لها غير ذلك ، وقرأ** : (**وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**)» [1]

لما ذا قال الله لذكري؟

ان العبـــادة الشـــعائرية وحـــدها لا تكفي ، لأن تلك العبادة بمرور الزمن تتعرض للانحـراف والتشـويه ، لـذلك فـــان الإنســـان بحاجة الى ذكر دائم لله كي تبقى عبوديته لله سبحانه وتعالى في مأمن من التحول ـ بسبب ضـغوط الحيــاة ووسوسة الشــيطان ـــ الى عبودية غــير الله في شتى صورها.

لذلك ـ أتصور ـ إن كلمة «ذكرى» تعني : ان ذكر الله سـبحانه إنما هو في الواقع الهـدف الأسـمى من الصـلاة ، حيث جاء في آية أخـرى «**وَلَذِكْرُ اللـهِ أَكْبَـرُ**» ، فالصـلاة تهدف الى ذكر الله والارتباط المباشر به سبحانه.

وهذه الآية تدل على أن في الصلاة وجوبين :

الوجوب الأول : هو الصلاة في وقتها.

والوجــوب الثــاني : هو أن الصـــلاة واجبة بعد وقتها ، فـاذا نسـيت الصـلاة وفـات وقتها ، فعليك أن تقضـيها في غير وقتها ، لما ذا؟ لأن وجوب الصلاة إنما هو لـذكر الله ، وذكر الله هو سر الســعادة والفلاح في الــدنيا والآخــرة ، لأنه سبحانه مصـدر الخـير الحقيقي في هـذا الوجـود ، ولا يمكن للعبد المخلوق أن يحصل من الله على الخــير ، في حين أنه منصرف عن ذكره والتوجه إليه.

كما تــدل الآية أيضا على أن الصـــلاة يجب أن تكــون بخشوع ومن أجل ذكر الله ،

---

(1) المصدر / ص 375.

فأساس الصلاة هو تحيتك مع الله ، فحينما تركع وتقول : «سبحان ربي العظيم وبحمده» أو تسجد وتقول : «سبحان ربي الأعلى وبحمده» فان هذا هو نوع من التحية لربك تحييه بتنزيهه وتعظيمه.

الحتمية التي لا بدّ منها :

[15] (**إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى**)

في بعض المدن التي تفتقد الأمن ، ترى أن السلطة تقوم ببعض الدوريات المفاجئة ، بالاضافة الى الدوريات الاعتيادية الثابتة ، فجأة تأتي دورية تقف على رأس شارع معين ، وتأخذ بتفتيش المّارين ، لماذا؟ لان الناس إذا كانوا يعرفون متى وأين تأتي الدورية فان بامكانهم أن يفلتوا منها بطريقة أو بأخرى.

وكذلك نلاحظ في بعض المدارس ، أنّ الأساتذة لا يحددون موعد الامتحان الى الطلبة ، وفلسفتهم في ذلك أن كثيرا من الطلبة لو علموا بهذا الأمر ، سيتقاعسون عن الدرس بانتظار أقرب موعد للامتحان ، حيث يجدّون ويجتهدون لفترة قصيرة فقط.

إنّ الله سبحانه وتعالى قد جعل الدنيا دار عمل وسعي يمر فيها الإنسان بمواقف كثيرة وامتحانات عديدة ، فيتحتّم عليه أن يبذل كلّ ما في وسعه ليجتازها بنجاح ، ولا يتقاعس أو يؤخر واجباته على أمل أن يقوم بها فيما بعد ، لأن الموت قد يفاجئه في أيّ لحظة ، ويفقد تلك الفرصة الذهبية الثمينة التي منحها الله إياه في الدنيا ، ثمّ لا يجد في الآخرة إلّا الحسرة والندامة ، والإنسان بطبعه يغفل أو يتغافل عن يوم الحساب ، وحينما يغفل فانه يقوم بجرائم وأخطاء ، فالغفلة طبيعية عند الإنسان ، وربما كان هذا من سنة الله ، فلو لم تكن الغفلة موجودة لم يكن الامتحان موجودا.

ولكن ما الذي يميز الطيبين عن الأشرار؟

إن الطيـــبين هم الـــذين يجـــدّون لكي لا يغفلـــوا ، ويعملون أبدا من أجل إيقاظ أنفسهم دائما.

إن القـــــرآن يضع مســـــئولية الهداية والتربية على الإنسان نفسه ، فلا تنتظر أيها الإنسان مساعدة من الغير في تنبيهك من غفلتك ، بل يتـوجب عليك أن توقظ نفسك باستمرار من تلك الغفلة ، وإلّا تعرضت للاخطار الجسيمة ، وصار مصيرك في الآخرة الى عواقب وخيمة.

وهـــذا التنبيه المســـتمر ، يتم عـــبر إقامة الصـــلاة بشرائطها وحـدودها الصـحيحة والمحافظة على جوهرها ، والحيلولة دون تحولها ـ مع مـرور الـزمن ـ الى شـكليات وطقـــوس فارغة من كـــلّ محتـــوى ، وطريقة ذلك كما يرشدنا إليها الحديث الشريف :

«**اعبد الله كأنك تـراه ، فـان لم تكن تـراه فانه يراك**»

وكلمة «**أَكادُ أُخْفِيها**» تشير الى أن الله عزّ وجل لم يخف الساعة إخفاء كـاملا فقد أعلنها ، وبيّن كـلّ ما يتعلق بها ، وفصل كلّ ما يجري فيها ، ولكنه فقط أخفى موعدها ، وهذا لكي يتحمل الإنسـان المسـؤولية كاملة في الحيـاة الدنيا ، ذلك انه لو عرف موعدها لأمضى قسما كبـيرا من عمره دون تحمل أي مسئولية ، إذا فإخفاء موعـدها لا بـدّ منه لكي يكـون الجـزاء عـادلا ، فـالجزاء يـأتي بعد تحمل المسـؤولية ، وإلّا فانه سـوف لن يكـون له أيّ معـنى ان كان ثوابا أو عقابا. وهناك تفسـير أعمق من هـذا التفسـير نجده في أحـاديث آل الـبيت ، حيث جـاء في تفسـير علي بن إبراهيم في قوله : «**إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَـةٌ أَكـادُ أُخْفِيها**» قـال : من نفسي ، هكـذا نـزلت ، قلت : كيف يخفيها عن نفســه؟ قـال : جعلها من غـير وقت. وروي مثل ذلك عن ابن عباس ، وهي كذلك في قراء أبي. [1]

---

(1) نور الثقلين ج 3 ص 375

[16] (**فَلا يَصُـدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُـؤْمِنُ بِها وَاتَّبَـعَ هَواهُ فَتَرْدى**)

والذي يؤمن بالساعة ويتـذكرها دائما يتبع بـرامج الله ويمتثل أوامـره ، وبالتـالي يجد الفلاح ، وإلّا فـان مصـيره الـتردّي والسـقوط ، ولو اتبع موسى هـواه ، ونسي ذكر الله ، لهبط الى الحضـيض ، كما حـدث ذلك بالنسـبة الى بلعم بن بـاعوراء الـذي أكرمه الله وأتـاه علم الاسم الأعظم ، ولكن حين اتبع هـواه أخلد الى الأرض ، فجـرّده الله من كـلّ ما أنعم عليه ، ثمّ شـبهه بـالكلب وقـال : «**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ** ...».

وبكلمة مـوجزة ، فـان ذكر الله يعـني السـعادة ، والانصراف عن ذكره يعني الشقاء.

وَما تِلْـكَ بِيَمِينِـكَ يا مُوسى (17) قـالَ هِيَ عَصـايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى (18) قـالَ أَلْقِها يا مُوسى (19) فَأَلْقاها فَـإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى (20) قالَ خُـذْها وَلا تَخَـفْ سَـنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِـكَ تَخْـرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى (22) لِنُرِيَـكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى (23) اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (24) قـالَ رَبِّ اشْـرَحْ لِي صَـدْرِي (25) وَيَسِّـرْ لِي أَمْـرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ

18 [وأهشّ] : الهش ضرب ورق الشجر ليتساقط ، أي أسقط بها ورق الشجر.

22 [جناحـك] : الجنـاح هو اليد ــ سـمّيت به تشـبيها بجنـاح الطـائر ــ والمقصود بجناحك : «الإبط».

لِسانِي (27) يَفْقَهُوا قَـوْلِي (28) وَاجْعَـلْ لِي وَزِيـراً مِنْ أَهْلِي (29) هـارُونَ أَخِي (30) اشْـدُدْ بِـهِ أَزْرِي (31) وَأَشْـرِكْهُ فِي أَمْـرِي (32) كَيْ نُسَـبِّحَكَ كَثِـيراً (33) وَنَـذْكُرَكَ كَثِـيراً (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِـيراً (35) قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى (36)

---

28 [واحلل] : أي وفكّ.
31 [أزري] : ظهري ، ومنه المئزر لما يشدّ على الظهر.

موسى يحمل رسالات الله

هدى من الآيات :

وجد موسى عليه الصــلاة والســلام عند ربه في تلك الليلة المظلمة الشـاتية دفئا وأنسا وهـدى ، وحينما سـأله الله عن عصــــاه فــــاذا به يسترسل في حديثه ، بلى ان الفائدة الاولى التي يحصل عليها المــؤمن من إيمانه ، هي السكينة القلبية والاطمئنان النفسي.

لكن سرعان ما امتحنه الله وابتلاه بأمره الصعب ، إذ لا يكفي للإنسـان أن يـدعي الإيمـان من دون أن يحمل ـ بقدر إيمانه ـ مسـئوليّة وبلاء ، وكلما كـان الإيمـان أعمق ، كلما كان البلاء أشدّ «**البلاء للأنبيـاء ثمّ الأوليـاء الأمثل فالأمثل**».

وقد مرّ موسى (ع) بامتحان عسير ، ففي البدء أمـره الله أن يخلع نعليه ، لأنه في الـــوادي المقـــدس طـــوى ، وربما خشي موسى أن يـؤمر من قبل الله سـبحانه بـترك عصاه كما فعل بنعليه ، فلذلك حينما سأله الله عنها إذا به يبين فوائدها العديدة : إنه يتوكأ

عليها ، ويهش بها على غنمه ، وله فيها حاجات أخرى غـير تلك ، فـأمره الله أن يلقي عصـاه فألقاها ، وسـرعان ما رأى أن تلك العصا قد تحولت الى ثعبان ضخم ، حيث جاء في النصـوص إنه كـان من القـوة ، بحيث يحطم الحجر ، ويقتلع الشجر ، وتتوقد عيناه في الليل المظلم. كـان هـذا امتحانا : حيث أمره الله بأن يلقي عصـاه فامتثل موسى ، والامتحان الآخر كان حيث أمره بأن يأخذ الثعبان فيمسكه من حلقه ، وهو أخطر عضو فيه. ترى كم ينبغي أن يكـون إيمـان الإنسـان بالله وبالرسـالة ، وتغلّبه على طبيعته البشرية كبيرا حتى يتمكن من أن يقدم على هـذه العملية الصعبة؟!

إنّ الإنسان بطبيعته يشـكك نفسه ــ ألف مـرة ــ في مثل هـذه الحـالات ، فـاذا تعـرض لامتحانـات صـعبة كما تعرض لها موسى (ع) ، يقول لنفسه : من يقول بـان هـذا هو اللـه؟ ومن يقـول بـأن الأمر واجب ، ومن يقـول بـأن الأمر فـوري؟ وهكـذا .. ولكنّ موسى بـالرغم من خوفه الشـديد النـابع من طبيعته البشـرية تحـدى وأخذ الثعبـان فتحول ـ بمجرد أن أمسك به ـ الى عصا كما كانت.

لقد اجتاز موسى في لحظـات معـدودة تلك المراحل الـتي اجتازها إبـراهيم الخليل عليه الصـلاة والسـلام في سـنين ، فـامر بحمل الرسـالة الى البشـر. لقد تعـرض إبـــراهيم الخليل (ع) لخطر شخصي حينما القي به في النار ، وكـذلك موسى تعـرض لهـذا الخطر حينما أمر بـأن يأخذ الثعبـان ، وإبـراهيم تـرك زوجته وطفله الرضـيع وحيـدين في الصـحراء ، وانفلت عنها وتوجه الى الله ، وكذلك موسى ترك أهله وهم في ظـروف صـعبة ، وتوجه الى الله.

إبراهيم الخليل تعرّض ـ مرة أخرى ــ للغربة والابتعـاد عن بلده ، وكذلك موسى تعرض لذلك حيث بقي ضالا في الصحراء مدة الى أن اهتدى بفضل الله ، هذا غـير فـراره الى مدين وبقائه هناك لمدة عشر سنين.

هكـــذا اجتـــاز موسى مراحل الاختبـــار ، وتخطى امتحانــات الرســالة بســهولة ويسر ، فلما اجتازها جميعا بنجــاح ، حمّله الله الرســالة ، وبعد أن حمل الرســالة ، طلب موسى من ربه أشـياء لم تكن مجـرد طلبـات ، بل كانت أيضا قرارات أقرّها موسى على نفسه.

إنك لا تدعو ربك بدعاء إلّا بعد أن تقـرر الوصـول الى ما تدعو الله له بكل وسيلة مادية مقدورة لك ، وتدع بقية الوسـائل الـتي لا تسـتطيعها الى الله سـبحانه. إذا دعـوت الله أن يطعمك فلا يعــني ذلك بــأن تجلس في بيتك إنّما عليك أن تبحث عن أرض صــالحة وعن طريقة لتوصــيل المــاء إليها ، وعن حب تزرعه فيها ، وعن عملية مبتكــرة للزراعة والسقاية والحـرث والحصـاد ، ثمّ تطحنه وتخـبزه وتحضره ، وآنئذ تأكله.

وأنت في هـذه المسـيرة الطويلة تتعـرض لصـعوبات وعوامل مضــادة لعملية الزراعة ، تلك العوامل المضــادة الــتي ليس في وســعك التغلب عليها ، فتــدعو الله أن ينصــرك عليها ، أما العوامل الــتي تســتطيع أن تقــوم بتوفيرها عمليا فينبغي أن تسعى من أجلها ، هذا هو جوهر الدعاء.

لقد طلب موسى من الله ســبحانه مجموعة طلبــات كانت في نفس الوقت مجموعة قرارات أقرّها لنفسه كي يقـوم بما طلب : أن يشـرح له صـدره ، ويحل عقـدة من لسانه ، وييسر أمـره ، ويجعل له وزيـرا من أهله وهكـذا ، هــذه الطلبــات كلها كــانت تعــني حيث علم موسى : ان حمل الرسالة بحاجة الى هذه الشروط الخمسة.

الشــرط الأول : ســعة الصــدر ، فســعة الصــدر آلة الرئاسة ولا يستطيع الفـرد أن يصل الى الرئاسة الحقيقية بحمل الرســالة وتبليغها الى النــاس ، من دون أن يكــون صدره واسعا ، وسعة الصدر تعني الصـبر ، وعـدم الحـزن أو التأثر من كلام المخالفين

والجاهلين ، وبالتالي فان صاحب هذه الصـفة يسـتطيع أن يصدع بـالحق دون أن تأخـذه في الله لومة لائم ، أو يتـأثر باعلام الناس.

الشرط الثاني : هو القدرة على الحـديث ، فلقد كـان موسى تمتاما لا يحسن الإعراب والإفصـاح في حديثه عما يريده.

الشرط الثالث : بـذل الجهـود المكثفة لإفهـام النـاس رسالة الله وأحكام شريعته ، فليس وظيفة حامل الرسالة أن يكره الناس على تطبيقها تحكما واسـتبدادا ، وعوها أم لم يعوها.

الشـــرط الرابع : هو أن يبحث حامل الرســـالة عمن يؤازره ، ويشترك معه في أمره ، وينبغي أن يكون أقــرب الناس إليه.

الشرط الخـامس والأخـير هو : أن يكـون هو مع هـذا الوزير يهدفان الى تسـبيح الله وذكـره ، والـدعوة اليه ، لا الاستعلاء في الأرض ، والطغيان على الناس.

وهذه الشروط تنبّه إليها موسى عليه الصلاة والسلام حينما حمّل الرسالة ، وكـان في ذلك دليل على أن اختيـار الله موسى لرســـالته انما تمّ بحكمته البالغة ، إذ انّ الله أعلم حيث يجعل رسالته ، فلننظر كيف يحاور موسى ربه.

بينات من الآيات :

معجزتان :

[17 ـ 18] (**وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى * قالَ هِيَ عَصـــــــايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى**)

يعلم الله سـبحانه ما في يد موسى ، ويعلم لمـاذا هو يحمل عصاه ، ومع ذلك فهو

يســأله ربما ليمتحنه ، إذ ان هــذا الســؤال يجعل موسى ينتبه الى أهمية عصاه وفوائدها المادية له التي ربما يكون قد غفل عنها.

فعند ما يأتيه أمر الله بطرحها والقائها بعيـــــدا يمتثل لهذا الأمر بوعي.

كما اننا نســتفيد من جــواب موسى (ع) عــدة أمــور جانبية اخــرى وهي : انه يتعب نفسه في العبـادة والشـغل بدلالة قوله (أتوكــأ) ، وانه كــان يعمل في مهنة الــرعي ، كما كان يستعمل عصاه في أغراض اخـرى ، كالـدفاع عن نفسه إذا تعرض للاعتداء مثلا.

[19] (**قالَ أَلْقِها يا مُوسى**)

أن أمر الله لموسى بإلقـــاء العصا بعد أمـــره بخلع النعلين بالاضافة إلى ما قلناه من اختبار للطاعة ، والتوجه الخالص له سبحانه ، فهو أيضا لاعطــاء درس لموسى (ع) ولنا من بعده ، وذلك الدرس هو ان اعتمـاد الإنسـان يجب أن يكون فقط على الله الـذي بيـده ملكـوت كـلّ شـيء ، وهو يجـــير ولا يجـــار عليه ، وان اعتمـــاد الإنســـان على الوسائل المادية الموجودة في الحياة ما لم تكن بإذن الله وامتثالا لأمره فانه لا يغني عنه شيئا فان القوة لله جميعا.

[20] (**فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى**)

كانت هذه مفاجـأة مذهلة ومنظـرا رهيبا بالنسـبة الى موسى ، وقبل أن يستبد به الخوف ويؤدي به الى الانهيــار جاءه النداء الرحماني.

[21] (**قـالَ خُـذْها وَلا تَخَـفْ سَـنُعِيدُها سِـيرَتَهَا الْأُولى**)

أي كما كانت من قبل عصا.

[22] (**وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضـاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**)

أي اجعلها تحت إبطك ، فادخل موسى يـــده الكريمة تحت إبطه ثمّ أخرجها فـاذا هي تشـرق نـورا. ومعـنى من غير سوء : ان البياض لم يكن من الـبرص كما تـوحي الى مثل ذلك التوراة المنحرفة.

(**آيَةً أُخْرى**)

وذلك تعزيزا للآية الأولى (العصا).

[23] (**لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى**)

وعد الله موسى بأن يريه آيات أخرى أكبر من هـذه ، وفعلا كان فلق البحر وإغراق فرعون وأصحابه آية كبري ، ولا ننسى الآيـات المفصّـلات الاخـرى (الجـراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم و.. و..).

هذه الآيـات يجب أن تزيـدنا إيمانا بامكانية الانتصـار ، وبامكانية الحصول على آيات أكـبر منها ، ان الله سـبحانه يعطينا بعض الآيـات الصـغيرة ليشـير بـذلك الى قدرته ، ويجعلنا نؤمن بأن الآية الكبرى أمامنا هي الانتصار الكبير ، وانما علينا أن نسعى ونبذل جهـدنا ، ولا نتقـاعس أو نجبن ونخاف.

[24] (**اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى**)

القرآن حدد كلمة واحدة حول فرعـون وهي الطغيـان ، ولكن هـــذه الكلمة تكفينا عن ألف كلمة ، فالإنســـان الطاغي يفعل كلّ الجرائم ويرتكب كلّ الشرور ..

الضروريات الرسالية :

هذه هي طلبات موسى وفي نفس الوقت هي خطط موسى :

[25] (**قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي**)

اجعل صدري واسعا شرحا لا أتهيب الصعاب الـتي قد تواجهني في الطريق ، اني أعلم بأن حمل الرسالة عملية صعبة لذلك فأنا أحتاج الى صـدر يسع كـلّ مشـاكل التبليغ ويزيد.

[26] (**وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي**)

لعل موسى (ع) كان يرى إنّ فرعـون يصـعّد الموقف مما يدفع بموسى (ع) الى التصعيد أيضا ـ خصوصا ـ وان موسى (ع) كان مشهورا بالغضب في الله ، فكان يريد أن تمشي المسائل بهدوء بدون حاجة الى العنف.

هـذا من ناحية ومن ناحية ثانية فـان موسى (ع) كـان يدرك خطورة وصعوبة المسؤولية على عاتقه ، فكان يريد التيسير في أموره ، ورفع الثقل جرّاء حمله الرسالة.

هـذا إذا علمنا أنّ الإنسـان الـذي يحمل هموما كثـيرة بسـبب عمله لن يفلح أثنـاء عمله ، لأن الهم والاحسـاس بثقل العمل يثبّط الإنسان عن العمل ، فلذلك أراد موسى أن يزيل همـوم عمله بدعائه لربه لتيسـير عمله .. الـذي يعني الاستعداد للقيام بدور أكبر ..

[27 ـ 28] (**وَاحْلُـلْ عُقْـدَةً مِنْ لِسـانِي يَفْقَهُـوا قَوْلِي**)

كلمة اللسان هنا ربما تعبّر عن الاعلام ، فموسى (ع) كان يطمح الى أعلام قوي يدخل في الأعماق ، وربما هذه الفكرة مأخوذة من قوله (**يَفْقَهُـوا قَـوْلِي**) وبمعـنى آخر إن موسى يطمح الى شيئين :

الشـيء الأول : قـوة الاعلام الذاتية ، وهـذا لا يتم إلّا بمعرفة منطق الناس ، كما

قــال رســول الله (ص) : «نحن معاشر الأنبيــاء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم» وهـذه الفكـرة يـدل عليها قوله : (**وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي**) وهي التي تـدل عليها الرواية التالية.

الشيء الثـاني : خلق التـأثير أو بمعـنى آخر انه طلب من الله أن يلهم عقـولهم التفهم لرسـالته ، وكـأن موسى يـــدعو لهم بالعقل : وهـــذا ما تـــدل عليه الجملة الثانية (**يَفْقَهُوا قَوْلِي**).

جاء في تفسير القمي عن الامام الباقر (ع) : «وكـان فرعــون يقتل أولاد بـني إسـرائيل كلما يلــدون ، ويـربي موسى ويكرمه ، ولا يعلم أن هلاكه على يديه ، ولما درج موسى كان يوما عند فرعون ، فعطس فقـال : الحمد لله رب العالمين ، فأنكر فرعـون ذلك ولطمه وقـال : ما هـذا الذي تقول ..؟ فوثب موسى (ع) على لحيته وكـان طويل اللحية فهبلها ـــ أي قطعها ـــ فألمه ألما شـــديدا ، فهمّ فرعــون بقتله ، فقـالت له امرأته : هـذا غلام لا يـدري ما تقول ، فقال فرعون بلى يـدري ، فقـالت : ضع بين يـديك تمرا وجمرا ، فان ميّز بين التمر والجمر فهو الذي تقول ، فوضع بين يديه تمــرا وجمــرا ، وقــال له : كل ، فمد يــده الى التمر فجــاء جبرئيل فصــرفها الى الجمر فأخذ الجمر في فيه فــاحترق لســانه ، وصــاح وبكى ، فقــالت آســية لفرعون : ألم أقل لك انه لم يعقل .. فعفا عنه» ..

هكذا أضحى موسى (ع) منذ ذلك اليوم ألثغا.

[29 ـ 30] (**وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي* هـارُونَ أَخِي**)

لقد كـان هـارون أكـبر سـنا من موسى ، وكـان جلال النبوة ظاهرا على محياه ، وكانت مهمــات موسى عظيمة ، إذ لم تقتصر على تبليغ رسـالات الله فحسب ، بل وأيضا مقاومة طاغوت متجبر كفرعون ، وإنقاذ شعب مستضعف ثمّ قيادته

وتوجيهه ، فدعا ربه أن يجعل هارون وزيره.

وقد جاء في حديث مـأثور عن أبي جعفر البـاقر عليه السلام :

قـال الـراوي فقلت لابي جعفر : وكـان هـارون أخا موسى للأم وأبيه؟

قال : نعم أما تسـمع قـول الله تعـالى : (**يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي**)؟

فقلت : فأيهما كان أكبر سنا؟ قـال : هـارون ، قلت : وكان الوحي ينزل عليهما جميعا؟ قال : كان الـوحي يـنزل على موسى ، وموسى يوحيه الى هـــــــــارون ، فقلت : أخــبرني عن الأحكــام والقضــايا والأمر والنهي كـان ذلك إليهما؟ قال : كان الذي يناجي ربه ويكتب العلم ، ويقضي بين بـني إسـرائيل موسى ، وهـارون يخلفه إذا غـاب من قومه للمناجاة.[1]

[31] (**اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي**)

أي قوّ به ظهري ، ولعل ذلك يعني انه كـان يسـتخلفه عند ما يغيب عن قومه.

[32] (**وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**)

أي يتحمل جزء من مسئولياته حتى عند وجوده.

[33] (**كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً**)

التسبيح هو تنزيه الله كما جاء في الحديث : انه سئل الامام أبا عبد الله عن معنى سبحان الله؟ فقال : تنزيهـه.[2]

---

(1) نور الثقلين / ج 3 / ص 377 ـ 378.

(2) بحار الأنوار / ج 93 / ص 177.

[34] (**وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً**)

ولا يعـني ذكر الله مجـرد تحريك اللسـان ، بل جعل الله مراقبا في السر والعلن ، ويـدل على ذلك الحـديث الشـريف : قـال أبو عبد الله (ع) : «**ما ابتلي المـؤمن بشيء أشدّ عليه من خصال ثلاث حرمها ، قيل : وما هنّ؟ قال : المواساة في ذات اللـه ، والإنصـاف من نفسه ، وذكر الله كثيرا.**

أما واني لا أقـول لكم : سـبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكـــبر ، ولكن ذكر الله عند ما أحل له ، وذكر الله عند ما حرم عليه» [1]

[35] (**إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِـيراً**) بأعمالنا وتصـرفاتنا ، ولعلّ هذه الآيات توحي بأن هدف موسى وهارون لم يكن السيطرة بل تطبيق واجبات الرسالة.

ونتسـاءل : ما الـذي دعا موسى (ع) الى أن يطلب من الرب وزيـرا كهـارون (ع)؟ الجـواب : إنّ موسى عليه السلام عرف منذ البدء أبعاد الرسالة التي سوف يحملها ، والصعاب التي تعترضه في سبيل تبليغها ، والضعف الـذي اعترى قومه من بني إسرائيل نتيجة الاستعباد مـدة طويلة ، والقـوة الـتي طغى بها أعـداؤهم من الأقبـاط بقيـادة فرعون.

وكان يشعر ـ لذلك ـ بالحاجة الى من يسـند ظهـره ، ويطبق واجبـات الرسـالة بلا تـردد ، فيكـون إماما في الطاعة ، وقدوة في تنفيذ أوامر القيـادة ، فلم يجد أفضل من أخيه هارون.

---

(1) المصدر / ص 183.

وهكذا كـلّ صـاحب دعـوة بحاجة الى شخصـية تتجلى فيه رســالته ويكـــون مثلا أعلى لها ، كما كـــان هـــارون لموسى ، وواصف بن برخيا الــذي أوتي علما من الكتـاب لسـليمان ، ويحـيى لعيسى بن مـريم ، وكما كـان علي بن أبي طالب عليه السلام للنبي محمد صلى الله عليه وآله ، وهكذا نجد الرسـول يكـرر : أنت مـني بمنزلة هـارون من موسى إلّا إنّه لا نبي بعدي.

ولقد حدثت واقعة تاريخية : أظهرت الحاجة الى ذلك.

حيث إنّ النــبي لما أراد الخـــروج الى غــزوة تبــوك اسـتخلف أمـير المؤمـنين عليه السـلام في أهله وولـده وأزواجه ومهـاجره فقـال له : يا علي ان المدينة لا تصـلح إلّا بي أو بك ، فحســده أهل النفــاق وعظم عليهم مقامه فيها بعد خــروج النــبي صــلى الله عليه وآله وعلمــوا انها تتحرس به ولا يكون للعدو فيها مطمع ، فسـاءهم ذلك لما يرجونه من وقـوع الفسـاد والاختلاف عند خـروج النـبي ـ صــلى الله عليه وآله ـ عنها ، فــارجفوا به عليه الســلام وقـــالوا : لم يســـتخلفه رســـول الله إكراما له ولا إجلالا ومـــودة وإنما اســـتخلفه اســـتثقالا له ، فلما بلغ أمـــير المؤمنين (عليه السلام) إرجاف المنافقين به أراد تكذيبهم وفضيحتهم ، فلحق بـالنبي صـلى الله عليه وآله فقـال : يا رســول الله ان المنــافقين يزعمــون : أنك انما خلفتــني استثقالا ومقتا ، فقال رســول الله (ص) : «**إرجع يا أخي الى مكانك فان المدينة لا تصلح إلّا بي أو بك ، فأنت خليفتي في أهلي ودار هجرتي وقومي ، أما ترضى أن تكـون مـني بمنزلة هـارون من موسى إلّا انه لا نبي بعدي؟**» [1]

[36] (**قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى**)

وهكذا منّ الله على عبده ورسوله موسى بن عمران ، فأتـاه كـلّ ما سـأله مـرة واحـدة ، لأنه كـان من وسـائل تبليغ الرسالة ولم تكن طلبات شخصية.

---

(1) المصدر / ص 378.

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَـرَّةً أُخْـرى (37) إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيــهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَـدُوٌّ لِي وَعَـدُوٌّ لَـهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِــي أُخْتُــكَ فَتَقُـولُ هَـلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُـهُ فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَـرَّ عَيْنُها وَلا تَحْـزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِـنِينَ فِي أَهْـلِ مَـدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَـدَرٍ يا مُوسى (40) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41) اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُـوكَ بِآيـاتِي وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي (42)

---

39 [التّابوت] : صندوق من خشب.
[اليمّ] : البحر ، وهو بحر الأحمر الموجود في مصر.
[ولتصنع] : أي ولتربّى.
42 [ولا تنيا] : لا تضعفا ، من ونى يني ـ بمعنى الضعف والفتور.

موسى بين يدي العناية الالهية

هدى من الآيات :

سلسلتان من النعم تتوافر عند الإنسان لتكوّن شرطا مسبقا لتلقّيه النعمة الكبرى ، وهي نعمة الهداية الالهية.

السلسلة الأولى : النعم المادية.

مثل النمو الجسدي ، والتكامل العقلي ، ووجــود أدنى ضرورات الحياة المعيشية.

السلسلة الثانية : النعم المعنوية.

مثل سلامة القلب ، وعــدم وجــود نقص في أيّ حاجة من الحاجــات النفســية ، أو في احســاس الإنســان تجــاه الآخرين ، وسلامته من العقد النفسية التي تمنع الهداية.

تشير هذه الآيات الكريمة الى أن موسى (ع) قبل أن يتلقى الرسالة ، تلقى هاتين السلســلتين من النعم ، فمن جهة نـرى أن الله سـبحانه وتعـالى أنقذ النـبي موسى (ع) من

قتل محتّم ، فقد كـان فرعــون يقتل أبنـاء بــني إســرائيل ويســتحيي نســاءهم ، فلمّا رأى أنّ نسل بــني إســرائيل ســــوف ينقطع بهــــذه الطريقة ، أخذ يقتل فيهم عاما ويـتركهم عاما ، وقد ولد موسى (ع) في تلك السـنة الـتي يقتل فيها فرعون أبناء بـني إسـرائيل وأنجـاه الله مع ذلك من القتل ، وبعد ذلك نجي من مـــوت محتم آخر ، عند ما قتل قبطيا ، فهــرب الى المــدائن ، حيث تشــكّل هــذه الهجرة الانطلاقة الرسالية الكبرى.

كما تعرض موسى (ع) لسلسلة طويلة من الإخطـار ، كذلك كلّ إنسان يتعرض لإخطار محدقة تكاد تـودي بحياته ، ولكنه ينقذ منها برحمة من الله وفضل ، والقليل من الناس من يلتفت إليها أو يذكرها عند ما يكـبر ، وهنا يـذكّر الله موسى (ع) بطفولته حينما كـــاد جلادوا فرعـــون أن يقتلـوه فأنقـذه الله ، ولا بـدّ أن نـذكّر أنفسـنا بتلك الأيـام الخـوالي الـتي كـادت الإخطـار فيها أن تهلكنا فأنقـذنا الله منها.

كما يــذكّر الله موسى بالسلســلة الثانية من النعم ، فقد ألقى الله عليه محبة ممن كــانوا يحيطــون به ، لكي تنمو نفسه نموا متكـاملا دون عقد أو أدنى نقص ، ويكـون بذلك مستعدا لتلقي نعمة الهداية ، ولكن السؤال هل هذه نعمة خاصة؟

كلّا! كـــــــــلّ واحد منا قد تلقى أمواجا من الرحمة والحنـــــــــان من قبل والديه ، ومن قبل المحيطين به ، فالكثير نمت نفوسهم سـليمة ومسـتقيمة مسـتعدة لتلقي نعمة الهداية ، ولكن عند موسى يصــبح هــذا الأمر أكــثر وضوحا ، حيث ان الله سبحانه حمل التـابوت الـذي يحمل موسى الى بيت عدوه فرعون ، وعند ما رآه فرعــون وقع في قلبه موقعا حســـــنا وأحبه فلم يقتله ، وحينما فتّش فرعـــــون عن المراضع لم يجد إلّا امه وهو لا يعرفها انها أمه ، فعـــاد موسى الى أمه كي ينمو في حضن الأمومة الــدافئ ، الــذي يــربي نفس الطفل على الاســتقامة والســلامة المعنوية ، لأن من يفقد حنـــان الأمومة طفلا يظل محتاجا لها كبيرا.

الطفل لا يرضع من ثــدي أمه لبنا فقط ، وانما يرتضع من أمه حنانا ودفئا ، وفي قصة موسى رمز الى هــــــذه الرضاعة.

بعد أن تتـوفر هاتـان السلسـلتان من النعم التمهيدية تأتي النعمة الكـبرى وهي نعمة الهداية .. وبعد ما ذكّر الله رســــوله موسى (ع) طلب منه أن يبلغ هــــذه النعمة (الرسالة)

إنّ نعمة الهداية بالنسبة لموسى ، هي نعمة الرسـالة ، وليس للرســول الــذي يبلغ الرســالة فقط ، بل هي للمرسل اليه الـذي يتلقى الرســالة ويســتقبلها محــاولا تطبيقها أيضا.

بينات من الآيات :

منّة النجاة :

[37] (**وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى**)

كما مننا عليك اليــوم بالرســالة ، كــذلك مننّا عليك بنجاتك ورضاعتك وتربيتك.

[38] (**إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى**)

وضـعنا خطة لخلاصك من يد فرعـون وجلاديه ، حيث اننا أوحينا الى أمك صـنع تـابوت ووضـعك فيه ، ثمّ تتركه في اليم.

إن الإنسـان مـزوّد في حياته بتعـاليم حـول السـلامة والاسترزاق دون أن يعـرف ان هـذه تعـاليم ، وبطريقة ما ينقذ نفسه وينقذ من كلف به من الإخطـار بسـببها ، جـاء في تعقيب صــــلاة العشـــاء : «اللهم أنه ليس لي علم بموضع رزقي وإنّما أطلبه

بخطرات تخطر على قلبي ...»[1] كلّ ذلك بوحي من الله سبحانه وتعالى ، ولكن ذلك يتجلّى عند موسى (ع) بشكل أكبر ، لـيرمز به الله سـبحانه في وحيه الى النـاس .. كـلّ الناس .. في سائر الظروف.

[39] (**أَنِ اقْذِفِيــــهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيــــهِ فِي الْيَمِ**)

قــالوا : بــأن أم موسى (ع) حينما جاءها الــوحي أن تصنع تابوتا لم تعرف كيف تصنع التـابوت ، فجاءها جبرئيل وعلّمها كيف تصـــنع التـــابوت ، ثم بطنت داخل التــابوت بـــالقطن ، لتمنع تســرّب المـــاء الى داخله ، ثمّ أغلقت التابوت على موسى ، فقذفته في اليم ، واليم هنا هو نهر النيل.

(**فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ**)

أي يقذفه النيل الى الشــاطئ ، ولكن أيّ شــاطئ؟! انه بيت فرعون ، وهنا نلاحظ بوضوح كيف تسخر الطبيعة في خدمة الإنسان.

من مأمنه يؤتى الحذر :

(**يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ**)

لما ذا يربي الله موسى (ع) في بيت عدوه؟

لأنّ الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول للبشرية جميعا : أيها البشر! أنا خـالقكم وأمـوركم بيـدي ، فها أنا ذا أربي موسى في بيت فرعــون عــدوي وعــدوه ، تحت عيــني فرعون ، ثمّ أسـلطه عليه ، وهـذا دليل على أن قـوة الله وقدرته قد تأتي من داخل قصور

(1) كليات مفاتيح الجنان / ص 43.

الطغاة ، وكما يقول المثل : (من مأمنه يؤتى الحذر).
(**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي**)
ألبس الله سبحانه موسى (ع) ثوب المحبة كما يلبس الإنسان ثوبا ، بحيث ينجذب إليه ويحبه كلّ من يراه.

1 / في تنمية المواهب :

(**وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي**)
أراد الله أن ينمي مـــــواهب موسى (ع) بصــــــورة استثنائية تمهيدا لتحميله الرسالة ، وكذلك بالنسبة الى جميع الأنبياء (ع) حيث أن الله سبحانه يختار أنبياءه منذ طفولتهم فيعرضهم للامتحانات ، وينمي مواهبهم بطرق معينة ، وهذا لا يخالف الفكرة الإسلامية حول : ان الأنبياء يتعرضون لامتحانات كما يتعرض غيرهم ، قال تعالى : (**وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَ**) [1].
إنّ الله سبحانه وتعالى يعرّض أنبياءه لامتحانات صـــعبة الى درجة لا يتحملها الإنســـان العـــادي ، وإذا لم يتحملها النبي فلا يختاره ، ولكن مع ذلك هناك نعمة تسبق نعمة الامتحان ، وهي بناء النبي بناء استثنائيا استعدادا لتحميله مسئوليات ضخمة في المستقبل ، ويمكن أن نضرب مثلا لهذه الحالة بالتدريب في الوحدات الخاصة في الجيش.
هؤلاء المنتمون الى هذه الوحدات يتعرضون لتدريب صعب وشاق لتنمو مواهبهم ، وتتدرب أجسادهم على الصعاب ، ولكن هل يكتفي المدرب بهذه

(1) سورة البقرة / 124.

التـدريبات الصـعبة الشـاقة؟ كلّا .. إنّما يمتحنهم بعد ذلك امتحانا ، فاذا سقط أحدهم في الامتحان يسرحّ.

النبي كـذلك يتعـرض منذ نعومة أظفـاره لصـعوبات ، فعيسى (ع) تعرض لصعوبة مّا ، حيث انه ولد من غـير أب ، فاتهموا أمه الطاهرة مريم (ع) ، فانقذهما الله من هـذه التهمة ، وإبـراهيم (ع) ولد في وضع مشـابه لوضع موسى (ع) ، حيث كـان نمـرود يقتل الأنبـاء ويسـتحيي النسـاء ، فولدته أمه في هــذا الوضع ونجــاه الله ســبحانه ، ونبينا محمد (ص) تعرض منذ طفولته لليتم.

2 / في بيت فرعون :

[40] (**إِذْ تَمْشِـي أُخْتُـكَ فَتَقُـولُ هَـلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ**)

حينما أنقذ الله موسى من فرعـون ، أنقـذه من خطر مـادّي ، ولكن ينقـذه هنا من خطر معنـوي ونفسي ، ذلك هو تربيته بـدون أم وأب ، فيفتقد الى الحنـان ، وافتقـاده الى حنـان الوالـدين قد يسـبب له عقـدة نفسـية ، فيفقد السلامة النفسية الضرورية لاسـتقبال الـوحي ، ولكنّ الله قدر أن يحل هذه المشكلة.

أخذ فرعـون هـذا الطفل الصـغير من بـني إسـرائيل فالقى الله محبته في قلبه ، ولكنه مع ذلك تجلّد ، وقـال : أيها الجلاد اضرب عنقه ، لأنه عرف أن ملامحه هي ملامح بــني إســرائيل ، فتــدخلت زوجته آســية بنت مــزاحم : (**وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُـوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَـداً وَهُمْ لا يَشْـعُرُونَ**) [1] وقبل فرعـــون تـــرجي زوجته ، وبعث الى من حوله من المراضع فجئن ، ولكن موسى (ع) هــذا الطفل الصــغير أبي ، أن يرتضع من أي ثدي ، وهنا جاءت أخته التي أمرت من قبل أمه

---

(1) سورة القصص / 9.

بــأن تقصّ أثر التــابوت ، وتمشي وراءه ، وكــانت واقفة ببـــاب فرعـــون حين بعث الى من حوله من المراضع ، فأدخلت وقالت : إني أعرف من يرضعه ويكفله لكم.

3 / العودة الى الأم :

(**فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ**)

تقر عين الأم بوجـــود طفلها وتطمئن ، ويســـتفيد الطفل من هذا الاطمئنـان. والقـرآن يشـير هنا الى حنـان الأمومة الضــروري لتنمية مــواهب الطفل ، لان الطفل لا يفهم شـيئا آنئذ ، ولكن الأم وحـدها هي الـتي تفهم مـدى حنانها الى طفلها ، وان الطفل قـــرة عينها وان افتقـــاده يسبب حزنا لها.

4 / في محنة القتل :

مرة أخرى ينجي موسى من الخطر المعنوي فيقول :

(**وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً**)

أنقذه الله سـبحانه وتعـالى مـرة أخـرى من المـوت ، ولكن الله لم ينقذه من الموت فقط ، بل أنقــذه أيضا من الغمّ ، حيث ان موسى (ع) بعد أن قضى في صراعه على القبطي ، اغتمّ بسبب هذه الفعلة ، والقلب المصاب بالغم لن يكـون مسـتعدا لتلقي الرسـالة ، فأنجـاه الله من هـذا الغم ، لكي يكـون مسـتعدا لتلقي زخّـات الرسـالة ، وكم نجانا الله وأنقــذنا من أمثــال هــذا الغم ، الــذي يســبب تراكمــات في النفس ، وبالتــالي عقــدا نفســية تحجب الإنسان عن فهم الرسالة.

(**فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَـدَرٍ يا مُوسى**)

أي بقي عشر سنين في مـدين عند عمه شـعيب ، ثمّ بعد انتهاء هذه السنوات

العشر جـاء على قـدر .. يعـني جـاء وقد قـدر الله مجيئه تقديرا.

ونحن كثـــير من أعمالنا نحســـبها صـــدفة ، بينما هي أقدار من الله سبحانه ، وهكـذا قـدر لموسى أن يـأتي بعد عشر ســـــنوات ، وأن يتيه في الصـــــحراء ، وتلد زوجته ، ويحتاج الى قبس من النـار .. قـدّر له كـلّ ذلك ، ثمّ جيء به لاستقبال الرسالة.

الأحداث هي التي تدفعك لان تختار طريقا ، قد يكـون فيه خــــيرك ، فمثلا : بعض النــــاس قد لا توجد لديه رغبة أساسا في السياسة ، ولا يتدخل فيها ، لكن قد ينتمي ابنه الى حركة إسلامية ، فيطارده الأمن ، ويفتش عنه في بيته ، فيسبه الأمن هو وأهله ، فينتبه الأب وتنتبه الأم والأخوة ، ثمّ قد ينتمون الى هـذه الحركة وقد يصـبحون قـادة لها أو شهداء فيها.

إذا جاءك قدر من هذه الأقدار ، فاعرف بأن نعمة من الله ســـبحانه قد هبطت عليك ، وان الله يريد لك الجنة ، ويريد لك أن تكــون ذا شــأن ، فلا تغلقنّ الأبــواب أمــام الأقدار الخيّرة ، ولا تمنع نفسك من بركات السماء.

ثمّ تــــأتي مرحلة التربية ، ويجب على الإنســــان أن يشكر مربيه الذي رباه على الخير والتقوى والاستقامة و.. و.. منذ طفولته المبكرة ، ويجب على الإنسـان أن يشـكر ربه الـذي وفّر له مثل هـؤلاء المـربين الـذين يربونه على الصفات الحسنة ، وشـكر الله على التربية الفاضـلة الـتي تلقيتها هو أن تستجيب للرسالة التي تهبط عليك.

التربية المثلى :

[41] (**وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**)

خلق الله الإنسـان لنفسه ، وخلق الأشـياء للإنسـان ، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي : [عبدي! خلقت الأشياء لأجلك ، وخلقتك لأجلي ، وهبتك الدنيا

بالإحسان والآخرة بالإيمان][1]

خلق الله الإنسـان ليكـون منه خلفـاؤه في الأرض ، وسخر له كلّ شيء من الطبيعة ، وكلّ شـيء منه ، العلم والارادة والعقل ، ولكن كثير من النـاس لا يشـكرون ربهم ، ولا يعرفون منزلتهم فيهبطون الى حضـيض الأنعـام ، بل أضل سبيلا : (**إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَـبِيلاً**) [2] والاصـطناع الربـانيّ أكـثر بـروزا عند الأنبيـاء ، لان الله يـوفر للأنبيـاء التربية المثلى ، ويولـدون من آبـاء وأمهـات مؤمـنين ، فهم في قمة الكمـال والصـلاح ، ولو لا صـلاح الأبوين لما اختار الله سبحانه وتعالى من أولادهم أنبياء.

جــــاء في الآية الكريمة حـــول نبينا محمد (ص) : (**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**) [3]

فسـرت هـذه الآية إنّ النـبي كـان يتقلب في صـلب الآبـاء والأمهـات السـاجدين لله سـبحانه ، وأن جميع آبـاء النبي مؤمنين وصالحين.

[42] (**اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُـوكَ بِآيـاتِي وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي**)

بعد أن وفرنا لك وسائل وظروف الاستجابة للرسـالة ، من وسـائل مادية ومعنوية ، وهـديناك الى الرسـالة ، احمل أنت وأخـوك الرسـالة بقـوة ولا تضـعفا ولا تهنا في تبليغها.

ما هو الذكر؟

قد يكون الذكر هو الرسالة ، وقد يكون الذكر هو ذكر الله الذي يربي نفس

---

(1) مشارق أنوار اليقين.
(2) سورة الفرقان / 44.
(3) سورة الشعراء / 219.

الإنسان لتحمل صعوبات تبليغ الرسـالة .. فـأنت حين تبلغ الرســالة تتعــرض لمجموعة من الصــعاب والمشــاكل ، وتجـاوز تلك الصـعاب والمشـاكل لا يكـون إلّا بــذكر الله سبحانه ، فبذكر الله يطمئن قلبك ، وتشتد إرادتك ، لـذلك على الإنسـان الـذي يحمل الرسـالة ألّا يـني ولا يفـتر عن ذكر الله أبدا ، كي ينصره الله على المشاكل.

اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (43) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَـذَكَّرُ أَوْ يَخْشى (44) قـالا رَبَّنا إِنَّنا نَخـافُ أَنْ يَفْـرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى (45) قـالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى (46) فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَـعَ الْهُـدى (47) إِنَّا قَـدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَـذابَ عَلى مَنْ كَـذَّبَ وَتَـوَلَّى (48) قـالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى (49) قـالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَـدى (50) قـالَ فَما بـالُ الْقُرُونِ الْأُولى (51) قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتـابٍ لا يَضِـلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى (52) الَّذِي جَعَـلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً وَأَنْزَلَ

---

45 [يفرط علينا] : أي يتقدّم فينا بعذاب.

53 [مهـدا] : كالمهد للطفل الّـذي يسـتقرّ فيه ويكـون سـببا لراحته وصحته.

مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَـتَّى (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعـامَكُمْ إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيـاتٍ لِأُولِي النُّهى (54) مِنْها خَلَقْنـــاكُمْ وَفِيها نُعِيـــدُكُمْ وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى (55)

[شتّى] : جمع شتيت ، أي مختلف.

54 [النّهى] : جمع نهية وهي العقل ، وإنّما قيل له نهية لأنّه ينهى الإنسان عن الفساد.

هدى من الآيات :

في طريق الإنســـــان الى ربه عقبـــــات ولا بـــدّ من تصفيتها :

أولا : الاستهزاء (أو انعدام الاحساس بالمسؤولية).

ثانيا : الرجعية (والحنين الى سيرة القرون الأولى).

وتعالج آيات هذا الدرس هذه العقبات :

أول كلمة قالها الله لموسى وهارون (عليهما السلام) حينما أمرهما بـــدعوة فرعـــون الى الهـــدى هي : «**إِنَّهُ طَغى**» ، وطغيان فرعـون جـاء من إحساسه بالاسـتغناء ، فكلما أحسّ الإنســـان بعـــدم الحاجة ، وزعم إن حاجاته تتحقق يطغى ، فأمر الله سبحانه وتعالى موسى وهـارون (ع) بمعالجة الطغيان عن طريق التذكرة والتوجيه ، وبيان حاجة فرعون الحقيقية ، بالرغم من زعمه بعـدم الحاجة ، ثمّ عالج السياق العقبة الثانية ، الاستهزاء ببيان ان الجزاء لواقع ، وان الإنسان لمسؤول عن مواقفه ، لان

الإنســان لا يبــالي ما دام لا يعلم إن عليه جــزاء ، أما إذا عــرف انه ســوف يجــزى بمواقفه ، فســوف يعــود الى رشده.

أما العقبة الثالثة وهي الحنين الى الماضي ، والخوف من تطــويره ، فقد عالجها القــرآن الحكيم ببيــان إن كـلّ الحياة ماضيها وحاضرها ومستقبلها محكومة بــإرادة الله ، وإن تــدبير الله وتقــديره وقضــاءه يحيط بالحيــاة احاطة كاملة ، وان القــرون الماضــية لا يجب أن تقــدس تقديسا مطلقا ، بل إن علمها عند الله ، فــاذا كـانت تلك القــرون في طريق الحق فهي لأجل الحق مقدسة ، أما إذا كـــانت في طريق الباطل فعليها لعنة الله لأنها لم تتبع الحق.

هذا ولقد جاءت رسالات الله لتعالج أيضا كـلّ عقبة أو شذوذ في حياة البشر ، إن فرعــون كـان قد اسـتعبد بـني إسرائيل كعنصر مخالف لعنصره ، فعالج القـرآن هنا هـذه العقبة أيضا ببيــان إن بــني إســرائيل يجب أن يتحــرروا ، وبــالرغم من ان هــذه العقبــات ذات أبعــاد مختلفة ، بعد اجتمــاعي ، وبعد سياسي ، وبعد ثقــافي و.. و.. إلخ ، لكن الآيات الكريمة في سـورة طه ــ كما يبـدو ــ تركّز الضـوء على البعدين النفسي والثقافي أكثر من أيّ بعد آخر.

بينات من الآيات :

كيف يعالج القرآن الطغيان؟

[43] (**اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى**)

الإنســـان الـــذي يطغى إنّما يطغى لاحساسه بعـــدم الحاجة ، وان الآخرين محتاجون إليه ، فإذا أحسّ الإنســان بحاجته انحسر عنه الطغيان.

والطغيان يأتي بسـبب إحسـاس الإنسان بـأن أهدافه في الحياة قد تحققت ، وان

طموحه قد بلغ غايته ، أما الفرد الذي يشعر بأنه لم يحقق أهدافه ، فانه يخشع للسـبل والوسـائل الـتي تحقق ذلك الهدف.

[44] (**فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى**)

كيف يعالج الطغيان القـول الليّن؟ لأن الطغيـان حالة استكبار وغرور ، ومعالجة الغرور قد لا يمكن بالعنف ، بل بما ينفذ في الأعماق ، ولا يثير دفائن الكبر ، ومن هنا كان على الداعية أن يعــرف : ان هدفه ليس تحطيم المتكبّر ، بل إرشاده ، وبالتالي فعليه ألّا يقابل طغيانه بطغيـان مثله ، بل بسعة الصدر ودماثة الخلق.

القول اللّين هو الـدرس العملي للطاغية ، ليعـرف أن طغيانه في غـير محله ، القـول اللّين يـأتي ليهـدم أسـاس الطغيان وليعرف صـاحب الطغيـان بـأن هنـاك طريقا آخر لتحقيق الأهداف.

هناك فكرة أخرى نسـتلهمها من هـذه الآية وهي : ان الطاغية حتى لو بلغ بطغيانه الى مستوى طغيـان فرعـون الذي يضرب به المثل ، فهو لا يزال بشرا ، ولا تزال هنـاك فرصة لهدايته ، لـــذلك يجب أن لا نيـــأس من هداية أيّ بشر.

[45] (**قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْـرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى**)

كـان موسى وهـارون (ع) يخافـان على الرسـالة قبل أن يخافا على أنفســهما ، حيث كانا يخشـــيان مبـــادرة فرعـون بقتلهما ، أو تعـذيبهما بحيث يقطع عليهما الكلام ، أو يمنع وصول الرسالة الى النـاس ، ولعل هـذا هو معـنى «**أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا**» بمعنى يبادر بالعمل ضدنا.

وعلى هذا المعنى فلم يكن خوفهما هنا على أنفسهما ، كما لم يكن خشية

موسى في مقام آخر على نفسه ، حيث يقول الامام علي (ع) : «اليوم أنطق لكم العجماء ذات البيان! عزب رأي امرئ تخلف عني! ما شككت في الحقّ منذ رأيته! لم يوجس موسى عليه السلام خيفة على نفسه ، بل أشفق من غلبة الجهّال ودول الضلال!» [1] هذا خوف. والخوف الآخر هو أن يسبب الحديث معه المزيد من الطغيان.

هذان درسان لكلّ داعية ، فعليه أن يحاول إيصال الهداية الى من يريد ، قبل أن يبادر هو بقطع كلامه ، ويفعل ذلك بحيث لا يزيده طغيانا.

ما هو القول اللّيّن؟

بعض الناس يتصورون بأن القول اللين هو مجرد الخضوع في القول ، ولكن يبدو أن القول اللّيّن أوسع من هذا المعنى ، فانه يشبه الماء الذي ينفذ في كلّ مكان ممكن ، فهو يبحث عن الثغرات في قلب الطرف المقابل للنفوذ من خلالها ، فهو ليس أسلوبا واحدا ، إنّما هو الحكمة في اختيار الأسلوب المناسب في الوقت المناسب.

[46] (**قالَ لا تَخافا**)

بعد أن بيّن القرآن هاتين المشكلتين وحلّهما ، أعطى حلا للمشكلة النفسية عند الداعية ، وهي مشكلة الخوف.

(**إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى**)

عند ما يطلب الله منهما عدم الخوف ، فإنه يوفر لهما سبل نجاح دعوتهما ، والحفاظ عليهما ، وهذا ما قضاه الله حين قال : (**إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى**) ،

---

(1) نهج البلاغة / ج 4 / ص 51.

والذي يسمع هو القريب ، والذي يـرى هو الشـاهد ، ولعل معنى الآية : إني أسمع القول ، وأرى الفعل.

الجانب الاجتماعي للرسالة :

[47] (**فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِـلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ**)

لقد حملت الرســـالة الالهية الى الانســـانية المعذبة بشـرى العدالة ، أو ليست الرسـالة الالهية تـنزل من أجل إصلاح ما فسد من حيـاة النـاس ، أو ليس فسـاد المجتمع الفرعـوني الخطر هو العنصـرية ، واستضـعاف طائفة من النـاس .. هم بنو إسـرائيل ، هكـذا جـاءت الرسـالة تـأمر فرعون الطاغية بهدم أسـاس حكمه ، واطلاق حرية الفئة المستضعفة.

(**قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّـلامُ عَلى مَنِ اتَّبَـعَ الْهُدى**)

الهدى هو الإسلام ، والإسلام يعني السلام ، ولا يمكن أن يتحقق السلام من دون الهدى ، فمن الخطأ أن يتصـور البعض بأن السلام يتحقق عن طريق الظلم.

الإسلام يرفض هذه الفكرة ويقول : إن الســلام يجب أن يقام على أساس (الهدى) وانه من دون الهدى لا سلام ، والحرب والصراع سيبقيان حتى يتحقق الهدى.

[48] (**إِنَّا قَــدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَــذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى**)

يبــدو من الســياق : ان الفكــرة الثانية الــتي طرحتها رســالة الله هي فكــرة المســؤولية ، وان البشر مجــزي بعمله ، فله السلام إن اتبع الهدى ، وعليه العذاب إن

كذّب وتولّى ، وهذه الفكـرة الـتي تؤكـدها فطـرة البشر ، هي حجر الأساس في بناء صرح الثقافة السليمة.

[49] (**قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى**)

كان البشر عبر التاريخ يعتقـدون بالله رب السـماوات والأرض ، ولكن اعتقادهم كان أبدا مشوبا بالشرك ، لذلك يطرح هذا السؤال : ما ذا أراد فرعون باستفهامه عن رب موسى وهـارون؟ الجـواب : لعل فرعـون كـان يريد أن ينسب حركة موسى وهـارون التغييرية الى قـوة سياسـية أرضية ، وكان يعني بالربّ هنا ما يقال عن (رب العائلة) : أي مسـئولها ــ أي كـان يريد أن يقـول : إنكم تريـدون أن تفسـدوا السـلطان الـذي أملكه ، عن طريق الـدعوة الى دولة أخرى ، وبالتالي كان فرعون ــ كـأيّ طـاغوت آخر ــ يتهم الحركـــات التحررية بأنها حركـــات عميلة ، فأجابه موسى (ع) : باننا لا ندعو إلى إسقاط هذه الحكومة وقيام حكومة نحكمها نحن ، وانما نـــدعو الى تحـــرر الإنســـان وخاصة بـني إسـرائيل ، ليس من عبوديتك فقط ، بل من عبودية أية سـلطة ، حـتى ولو كـانت من داخل تجمعهم ، والدعوة إلى عبودية الله التي هي الحرية المطلقة.

[50] (**قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَـهُ ثُمَّ هَدى**)

إننا لا نـدعو الى أحد وإنّما نـدعو الى الله الـذي خلق الأشياء ، ثمّ هداها في طريقة تنفسها ، وأكلها ، وشـربها ، والحماية عن نفسها و.. و.. فالله حينما خلق الأشـياء علم أنها تحتـــاج الى وســـائل تغذية وحماية وتمتع وغيرها ، فهــداها الى كــلّ ذلك بفضــله! فهو إذن الــربّ الحقيق بالعبادة ، والتسليم والولاية.

ومن خلال هداية الله للأشـــياء ينبغي أن يهتـــدي الإنســـان بهـــدى العقل ورســـالة الـــربّ ، الى منافعه ومصالحه الحقيقية.

الفكر الرجعي :

[51 ـ 52] (**قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى * قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى**)

الأفكار التي تتشبث بها يا فرعون! هي أفكار القرون الأولى ، ويبدو أن الطغاة ينصبون من أنفسهم مدافعين عن التقاليد والعادات ، وذلك لهدفين :

أولا : إيهام الناس بأنهم يدافعون عن مقدساتهم ، وبالتالي فهم أجدر بالسلطة من غيرهم.

ثانيا : الخوف من التغيير ، لأنه قد يحمل معه ما يهدم سلطانهم ، ذلك إن أبرز خصائص النظام السياسي هو الثبات.

هكذا تساءل فرعون عن مصير السابقين ، هل هم في الجنة أم في النار ، وإذا كانوا كفارا فلما ذا لم يعذبهم الله في الدنيا ، فأعرض موسى عليه السلام عن الاجابة المباشرة ، ببيان السنة الالهية العامة ، وان عند الله علم هؤلاء في كتاب ، وبالتالي فان حسابهم محفوظ ، وتأخير العذاب لا يدل على نفيه ، كما ان الله يحكم عليهم بالقسط ، ولا يظلم أحدا شيئا ، وان هذا الكتاب لا يسجل باطلا ولا يمحى عنه شيء ، فلا يضل ولا ينسى.

ثمّ أشار موسى الى صفات الربّ ، لعل فرعون يخشع قلبه لذكر الله ، ومن لم يلن قلبه لذكر الله ، فانه أقسى من الصخور الصماء.

[53] (**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً**)

أي جعل الأرض بحيث تستطيعون البقاء عليها ، إذ لو كانت الأرض من حديد أو رمال متحركة أو أسمك قليلا ، أو أرق قليلا ، لتغيرت معادلة الحياة

عليها.

(**وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مـاءً فَأَخْرَجْنا بِـهِ أَزْواجـاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى**)

نظـرة الى الكـون فيما حـول الإنسـان ، كافية بـأن تعطيه فكرة هامة هي : إن هذا الكـون مخلـوق ، لأن كـلّ شيء فيه مرتب ترتيبا دقيقا لهدف معين ، فالأرض أعدت للسكن والزراع وتخزين المعادن والمياه وغيرها ، والجبال لترسي الأرض وتصد الرياح وهكذا ..

وحسب حاجـات الإنسـان والحيـوان والأرض والبيئة ينبت نبات الأرض ، وهذا دليل على وجود حكمة بالغة تدبّر هذا الكون.

[54] (**كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعـامَكُمْ إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيـاتٍ لِأُولِي النُّهى**)

أولى النهى : أولو الفكر ، وقد قـــــــال الله عنهم : (**يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْـــقِ السَّـــماواتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُـبْحانَكَ فَقِنا عَـذابَ النَّارِ**) ، وأولي النهى ـ أي الذين ينهون الناس عن الانحراف.

[55] (**مِنْها خَلَقْنـــاكُمْ وَفِيها نُعِيـــدُكُمْ وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى**)

هذه الأرض هي أمنا الحنـون الـتي خلقنا منها وتحركنا عليها ، ثمّ نعود الى بطنها ثمّ نخرج من بطنها مـرة أخـرى لكي نحاسب ، هكذا قال موسى لفرعون.

ولعـلّ مـراد الله في هـذه الآية تـذكير الطغـاة الـذين يسـتعلون في الأرض بغـير الحـقّ ، ويسـتعبدون النـاس ، تـذكيرهم بـانّ النـاس جميعا من تـراب ، فلا تفاضل بينهم في المنشأ ، ويعـودون الى الـتراب ، فلا تفاضل بينهم في المصير ، ويقومون من التراب للجزاء ، وهو الـذي يجسّـد التفاضل الحقيقي بينهم وذلك بالعمل الصالح.

وَلَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَأَبى (56) قـالَ أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِـحْرِكَ يا مُوسى (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُـهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكاناً سُوىً (58) قالَ مَوْعِـدُكُمْ يَـوْمُ الزِّينَـةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَـعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى (60) قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَـرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى (61) فَتَنازَعُوا أَمْـرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَـرُّوا النَّجْـوى (62) قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ

---

58 [مكانا سوى] : منتصفا بيننا وبينك فلا يكون أقرب إليك ولا إلينا.

61 [فيسحتكم] : يستأصلكم ، أو يهلككم فإنّ سحت أو أسحت بمعــنى أهلك.

62 [وأسرّوا النجوى] : أخذ بعضهم يناجي الآخر سرا.

مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى (64)

---

63 [المثلى] : مؤنّث الأمثل ، أي الأفضل والأحسن.

أساليب الطغاة في مواجهة الرسالة

هدى من الآيات :

على صاحب الرسالة أن لا يتصور الطاغوت حديــدا لا يلين ، إنّما هو بشر من لحم ودم ، يملك فــؤادا يتقلب بين الخـــوف والرجـــاء ، والأمل واليـــأس ، وعلى الداعية أن يسـعى من أجل تـذكرة بشـتى السـبل الممكنة ، ولكن لا يعني ذلك أن الطاغوت يستجيب له أبدا ، فقد يؤمن ويهتز ضميره ، وقد يبقى على ضلالته علوا واستكبارا.

وتؤكّد هــذه الفكــرة مقارنة بين هــذه الآيــات وآيــات الدرس السابقة ، ففيه نجد فرعون يتحـدث وكـأن الأمـور جميعا بيده ، أما في هذا الدرس فقد تغير منطقه ، فصــار يتحدث باعتباره ندا لموسى (ع) حين قال فلنأتينك بســحر مثله ، وقد جعل رأي الناس مقياسا.

وإنّما تغـير أســلوب الحــديث عند فرعــون ، بســبب الكلمات الصاعقة التي وجهها إليه موسى (ع).

وهكذا قـال فرعـون لموسى (ع) : هل لك أن تـأتيني بآيـة؟ فـأراه الآيـتين : العصا واليد البيضـاء ، ولكنه كـذّب مبررا تكذيبه بالمعاذير التافهة ــ شـأن كـلّ إنسـان يكـذب بالحقيقية ــ ، والواقع إن هنـاك ثلاثة أسـاليب يتـذرع بها الطغاة ضد أيّ تحرك يعارضهم :

أولا : تلفيق الاشاعات ضد المصلحين ، والـتي تتكـرر بصور شتى ، فمرة يقولون : إنّ هـؤلاء مجـانين كما قـالوا للرسول ، ومرة يقولون : إنّهم إرهابيون ، ومرة يقولون : إنهم سحرة ، ومرة يتهمونهم بالتطرف الديني.

ثانيا : محاولة احتواء الثـورة ، وطـرح شـعارات كاذبة ومتشابهة لمواجهة مبادئ الرسالة ، كالشاة المقبـور حين رأى مدّا ثوريا حـاول احتـواءه بما سـماه بـالثورة البيضـاء والتي لم تكن سوى شعارات فارغة ، وبـديلا زائفا للثـورة الحقيقية.

وهكـذا المسـتكبرون يغيّـرون أنظمة الحكم في بلادنا كلما اهتزت عروشهم ، واهترأت أسـاليبهم ، ويـأتون بـديلا عنها بأنظمة متناسـبة والظـروف المتجـددة ، ويسـرقون شـعارات الثـوار ، ويفرغونها عن محتوياتها ليخـدعوا بها السذج ، حيث قال فرعون : فلنأتينك بسـحر مثل سـحرك ، أي إذا كنت قد أتيت بعصا فسنأتيك بعصي وحبال مثلها.

ثالثا : طرح فكـرة الصـراع على النـاس ، حيث طلب فرعون إجراء استفتاء شعبي.

بينات من الآيات :

[56] (**وَلَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَأَبى**)

العصا واليد آيتان ، وهنـاك آيـات سـبع أخريـات ذكرها الله في سورة الأعراف

هي : الســـنين ، والنقص في الثمـــرات ، والطوفـــان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم.

وأبلغ من هـــذه ، تـــذكرة موسى (ع) فرعـــون بالله والمعـاد ، وبـأن أصـله من تـراب ، وأن لا فضل له على الآخرين ، فكذّب وأبى إلّا الكفر.

[57] (**قالَ أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِـحْرِكَ يا مُوسى**)

تهمتـان وجههما فرعـون لموسى : اتهـام موسى بأنه مخل بالأمن ، واتهامه بالسحر.

[58] (**فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ**)

ولعل هـذا القـول يشـبه مزايـدات الانظمة في طـرح الشـعارات الوطنية والثورية ، وقد حـاول فرعـون إثـارة حفيظة الجمـاهير ضد موسى ، شـأنه شـأن كـلّ الطغـاة الذين يحاولون خداع الجمـاهير ، فطلب من موسى تحديد موعد نهـائي في مكـان معين يجتمع فيه النـاس فيتحـدى السحرة آيات موسى.

(**فَاجْعَـلْ بَيْنَنا وَبَيْنَـكَ مَوْعِـداً لا نُخْلِفُـهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكاناً سُوىً**)

فبادر موسى (ع) وحدد ميعاد المواجهة حين قال :

[59] (**قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ**)

يـــوم الزينة : يـــوم العيد ، ولكن لما ذا يـــوم العيد بالذات؟

لأنه في يوم العيد يتفرغ الناس من أعمالهم.

(**وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى**)

وحـدد موسى (ع) وقت التحـدي بالضـحى ، لان هـذا الوقت يناسب الجميع فالنائم يكـون قد اسـتيقظ ، والبعيد وصل ، والإنسان يكون في أفضل حالاته الفكرية.

[60] (**فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى**)

وأخذ فرعون يعد عدّته ، ويجمع كيده ، ويلملم قواه.

[61] (**قـالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَـرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى**)

لقد بادر موسى (ع) بإلقـاء الحجة على السـحرة قبل أن يتحداهم.

أولا : لأنه رسول إليهم أيضا ، وأول واجبـات الرسـول هو إنقاذ الناس بالموعظة.

وثانيا : هــزّ ضــمائرهم ليلحق بهم هزيمة نفســية ، فكأنه قــال لهم أيها السـحرة! يا من تخـدمون النظـام بعلمكم ، وتصبحون مرتزقة للظالمين من أجل لقمة خـبز .. لا تفـتروا على الله كـذبا بادعـائكم إني سـاحر ، أو بتأليهكم فرعون وتكذيبكم رسالتي فانكم إذا كنتم كذلك ، سيسـحتكم الله بعـذاب بـئيس ، لان العلم نعمة من عند الله للإنسان يجب أن تشكر ، فاذا لم تشكر أصـبح نقمة ، والسحت اقتلاع الشيء من جـذوره ، وإذا قلعت الشـجرة من جذورها ، يقال سحتّها.

[62] (**فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ**)

بين مصدّق ومكذّب.

(**وَأَسَرُّوا النَّجْوى**)

يبـدو أنهم اتفقـوا على أمر معين واخفـوه ، ولم يكن اتفـــــاقهم على باطل ، لأنهم كـــــانوا متفقين عليه منذ السابق.

يقول بعض المفسرين : إن السـحرة اتفقـوا على أنه لو غلبهم موسى خضعوا له ، وقد كان هذا المنظر مثـيرا ، لأن السحرة يعتبرون كيـدا لفرعـون ، وأداة ينفذ بها مآربه ، وها هم يناجي الواحد منهم الآخر ، خشية بطش فرعون ، وتتضح هنا تبعية العلم للقوة.

[63] (**قـالُوا إِنْ هـذانِ لَسـاحِرانِ يُرِيـدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِـكُمْ بِسِـحْرِهِما وَيَـذْهَبا بِطَـرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى**)

يبدو إنّ المعارضة كانت موجودة ، وان الطاغوت كان خائفا من أن يميل الشعب تجاه موسى ، ولذلك كان يريد أن يخلق البعد النفسي بين الشـعب ومنقذيه ، فـادعى أن موسى وهارون يسـتخدمان السـحر للوصـول الى أهـداف سياســية ، بل أهــداف إجرامية تتمثل في إخــراجكم من أرضكم ، وهذا ما يعمله الطغاة عند ما يريدون أن يواجهوا تجمعا أو حركة حيث يربطون تحـركهم بما يكـره النـاس ، ثمّ بعد أن اتهمــوا موسى (ع) بأنه ســاحر أضــافوا كلمة أخرى وهذه الكلمة لا يقولها عـادة إلّا مرتزقة الأنظمة من علماء السوء حيث قالوا : بأن موسى وهـارون يريـدان أن يــذهبا بطــريقتكم المثلى ـــ أي إن هــؤلاء يريــدان أن يخرجــاكم من دينكم وقيمكم ، وهــذا ما يقــوم به علمــاء الســوء في كــلّ عصر ومصر ، إنهم يــدّعون بــأن الثــوار يريدون هدم مقدسات الأمة.

[64] (**فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا**)

ولا يعــني ذلك إن الطغــاة يــدعمون الوحــدة ، بل يريدون صنع وحدة مزيفة تقف حجر عثرة أمام الرساليين ، وعلماء السوء يؤكدون على ضرورة الوحدة حتى تلك

الوحـدة القائمة على أسـاس باطل ، ومن ثمّ أثـار هـؤلاء العلماء رغبة نفسية وسخة حين قالوا :

(**وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى**)

إننا الآن في صــراع ، وهــذا الصــراع حــادّ ، وهــذه اللحظـــات مصـــيرية في حياتنا ، ونحن نريد أن تجمعـــوا كيــدكم ، وتوحــدوا صــفوفكم ، حــتى نتغلب على هــؤلاء المتمـردين .. هـذه الكلمـات لا يشـيعها إلّا وعـاظ البلاط ومرتزقة الفكر.

قـالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُـونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى (65) قـالَ بَـلْ أَلْقُـوا فَـإِذا حِبـالُهُمْ وَعِصِـيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْـهِ مِنْ سِـحْرِهِمْ أَنَّها تَسْـعى (66) فَـأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَـةً مُوسى (67) قُلْنا لا تَخَـفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى (68) وَأَلْـقِ ما فِي يَمِينِـكَ تَلْقَـفْ ما صَـنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْـدُ سـاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّـاحِرُ حَيْثُ أَتى (69) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُـجَّداً قـالُوا آمَنَّا بِـرَبِّ هـارُونَ وَمُوسى (70) قــالَ آمَنْتُمْ لَــهُ قَبْــلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِـــيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّـــحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْـــدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَــلِّبَنَّكُمْ فِي جُــذُوعِ النَّخْــلِ وَلَتَعْلَمُنَّ

---

67 [فأوجس] : فأحسّ ، ووجد في نفسه.

71 [من خلاف] : أي تقطع اليد اليمـنى والرجل اليسـرى أو بـالعكس ، ليختلّ توازن البدن ، ويكون عذابه أكثر ما دام الإنسان حيا.

[جذوع] : أصول.

أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى (71) قالُوا لَنْ نُـؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قـاضٍ إِنَّما تَقْضِــي هــذِهِ الْحَيــاةَ الــدُّنْيا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقى (73)

---

72 [لن نؤثرك] : لن نفضّلك ونختارك.

وألقي السحرة سجدا

بعد أن هـزّ موسى (ع) ضـمائر السـحرة ، اسـتجاب لتحديهم ، وقال : ابدأوا ، وهذا التحـدي نجـده عند الأنبيـاء دائما ، وهو أبرز دليل على نبوتهم ، وانهم رجال متصـلون بالغيب.

وما كـان من السـحرة إلّا أن جـاؤوا بمجموعة حبـال وعصي ، وخلقـوا أجـواء صـاخبة تـوحي بأنها تسـعى ، فسحروا أعين الناس ، ولم يكن ذلك إلّا ضربا من السـحر ، أما الحقيقة الـتي كـانت تتمثل في عصا موسى فقد ابتلعت ذلك السحر مـرة واحـدة ، وآمن السـحرة بموسى وخروا لربه وربّهم ساجدين.

وان لنا في ذلك لعبرة ، فحينما تكون لـدنيا الحقيقة ، ولا يكـون عنـدهم إلّا الخيـال الباطل سـترى كيف ، تبتلع الحقيقة سحرهم.

وحينما سجد السحرة وآمنوا ، حـاول فرعـون إلصـاق التهم بهم ، ليكون ذلك مبررا لتعـذيبهم أو قتلهم ، ولكنهم أصرّوا وصمدوا أمام التهديد ، بصلابة الإيمان

وبالاستعانة بالله.

بينات من الآيات :

[65] (**قـــالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى**)

هل أنت تبدأ أم نحن؟

[66] فطلب موسى منهم أن يكونـــوا هم البـــادئين وكان ذلك تحديا عظيما.

(**قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْـهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى**)

أي أنهم عملـــوا عملا أثـــاروا به خيـــال موسى (ع) ، وبالأولى أثاروا خيال المحتشدين!

ولعلّ هذا يعني : إنّ السحر تأثير نفسي في الإنسـان من خلال إثارة خياله والإيحاء له ، أمّا هدفه فهو التضليل ، وعاقبته الخســـــران ، وأول ما يفكر به الســـــحرة ، هو السيطرة على الجالسين نفسيا ، بالقيام ببعض الحركـات المثــيرة ، وبعد أن يســتحوذوا على أنفس الحاضـرين ـــ بسرد القصص الخيالية ، وصنع أجواء صاخبة ـ يضحى كـلّ عمل يقومون به عظيما ، يثير العجب والدهشة في أنفس الناس.

كما إنّ بعضهم يستفيد من الجنّ ، بالاضافة الى بعض العلــوم الغريبة ، والســحرة مجموعة مرتزقة ، وضــعوا علمهم في خدمة شــهواتهم ، أو لــدعم ســلطة ظالمة ، شـأنهم شـأن الأقلام المـأجورة الـتي توظف نفسـها عند الظلمة.

هذا هو واقع السحر ، انه تخيلات لا تصمد أمام الحـقّ ، ومن كلمتي «حبالهم» و «عصـيهم» نسـتنتج إن السـحر ليس إلّا تأثيرات نفسية لا يغيّر من الواقع شيئا ،

والتعبير القرآني غاية في الوضوح حيث يقول : (**يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى**) فهي في الحقيقة لا حراك لها ، وما الحركة الظاهرة إلّا بتأثير الخيال السحري.

[67] لقد تحدّاهم موسى (ع) وهو يعرف بأنهم على باطل وانه على حقّ ، ومع ذلك تسرب الخوف الى نفسه حيث قال الله :

(**فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى**)]

فلما ذا خاف موسى؟

لهذه الآية تفسيران :

الأول : هو أن موسى (ع) بشر كسائر الناس ، من حيث الذات والبنية الجسدية والنفسية ، ولذلك ساوره الخوف ، والملاحظ أنه كلما تحدث القرآن الحكيم عن معجزات الأنبياء ، تحدث في ذات الوقت عن جانب من ضعفهم البشري ، كالخوف والعجلة والجزع والميل في اتجاه الضغوط ، إلّا أنّ هذا الجانب سرعان ما يتلاشى بتأييد الله.

وذلك حتى لا يظن البشر أنّ الاعجاز نابع من ذاتهم ، فيقدسونهم ويؤلهونهم ، ولكي يكونوا حجة على الناس ويقطع عنهم سبل الأعذار.

الثاني : إنّ موسى (ع) لم يكن خائفا على نفسه ، بل خشي أن يستأثر السحرة بقلوب الحاضرين فلا ينفعهم بعد ذلك إعجازه شيئا.

[68] (**قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى**)

وتدلّ هذه الآية على التفسير الثاني بما تحمل من تطمين لموسى بأنه هو الغالب ، وهذا النوع من التخوف موجود لدى كلّ الرساليين ، فهم يخشون من وسائل الاعلام

والثقافة المضـــللة أن تفسد النـــاس ، ولكن عليهم أن يتغلبوا على خشيتهم بذكر الله سبحانه وتعالى ، وأن يثقوا بـأن أقلامهم النظيفة الـتي تـبين الحقيقة تعـادل ملايين الأقلام التي تكتب الزيف والباطل ، لأن الحقيقة قوة تبتلع سحر المبطلين.

[69] (**وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا**)

وتقوم عصاك بابتلاع حبالهم ، وعصيّهم الـتي صـنعوها بما لها من وجود ماديّ ، وآثار نفسيّة.

(**إِنَّما صَـنَعُوا كَيْـدُ سـاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّـاحِرُ حَيْثُ أَتى**)

فكـلّ الـذي قـاموا به لا يعـدو أن يكـون مجموعة من الخطط المـاكرة الباطلة ، الـتي لا تلبث أن تنتهي بـوهج الحقيقة ، كما الظلام ينهـزم أمـام النـور ، وباسـتطاعة الإنسان المتصل بالله أن يتجاوز تأثيرات السحر الوهمية ، وهكذا فالسـحر لا يـؤثر فيمن يـؤمن بالله حقا ، وقد قـال عنه تعـالى : (**وَما هُمْ بِضـارِّينَ بِـهِ مِنْ أَحَـدٍ إِلَّا بِـإِذْنِ اللـهِ**) [1] ، كما إنّ ذات السـاحر لا يفلح ، لأن عمله هـذا يكرس فيه الانحراف عن خط الفطرة والحياة في الدنيا ، ويسبّب له العذاب في الآخرة.

[70] صـحيح ان عاقبة السـاحر هي الخسـار ولكن مـتى ما دام متمسـكا بسـحره وانحرافه ، أما إذا تـاب وتمسك بالحقّ والرسالة ، فان عاقبته سـتكون الى خـير ، وهـذا يـدلنا على إن عاقبة الإنسـان ، رهينة عمله ، لا لونه ولا جنسه.

وقد طلب موسى (ع) الى السـحرة أن يكونـوا أول الملقين ، حتى يكون أثر انتصاره على فرعـون عميقا في أنفس الجميع حـتى السـحرة ، حيث يصـبح ذلك السـحر الذي

---

(1) البقرة / 102.

أكبروه قبل لحظات هباء منثورا.

وبالفعل فقد جـــاءت النتيجة عظيمة إذ تجـــاوز الأثر الناس إلى أعماق السحرة.

(**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُـجَّداً قـالُوا آمَنَّا بِـرَبِّ هـارُونَ وَمُوسى**)

لقد كـان التـأثير بالغا ، بحيث وقع السـحرة سـجدا منهارين أمام نـور الحقيقة ، فكـأنهم ألقـوا بغـير إرادتهم ، وفي الآية إشـارة الى هداية الله بأنها العامل الحاسم في سجودهم.

والسجود هو قمة العبودية والخضـوع أمـام الله ، ولم يكن هـذا السـجود هيكليا إذ احتـوى أسـمى معانيه ، وهو الاعتراف بالعبودية لله.

والسؤال : لما ذا يذكر الله هارون في هـذه الحادثة ، مع أن موسى هو الـذي واجه السـحرة مباشـرة ، وكـان الحديث حتى الآن عنه وحده؟

هناك سببان رئيسيان؟

الأول : إنّ هـارون كـان النـاطق باسم موسى ، وهو معروف في أوساط المجتمع.

الثاني : هنـاك دائما قيـادات ثانية تتمثل في الأوصـياء والصــــالحين ، ويقتضي الموقف الســـــليم ، أن تبرزها القيادات العليا في اللحظات الحاسمة ، كلحظة الانتصار ، حـــتى يتأكد دورها في المجتمع ، وهكـــذا نجد في تـــاريخ الرسالة الإسـلامية أنّ النـبي (ص) أعطى الراية لعلي (ع) حتى حين دخلوا مكة فقال (ع) : «**اليـوم يـوم المرحمة اليــوم تصــان الحرمة**» ، كما إنّه (ص) رفض دخـــول المدينة حتى يـأتي علي (ع) ، وذلك ليعـرف دوره في أداء الرسالة.

[71] ولكن هل كـان فرعـون يقبل بـالحقّ أو يعـترف بالهزيمة ، أو حتى يسمح للآخرين بذلك؟
كلا ..
(**قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ**)
لقد كـــان نظـــام فرعـــون قائما على الديكتاتورية المطلقة ، ونرى كيف أنّ الطغيان بلغ بفرعون حدا سـلب الناس حريتهم في معتقداتهم.
ولكن الإيمـــان بالله يقـــاوم الدكتاتورية ، ويعطي الاستقلال ، فالتبعية التي وقع فيها السـحرة انتهت بمجـرد إيمـانهم بالله تعـالى ، والإنسـان إنّما يكـون تابعا بسـبب إحساسه بالضّعة ، فيعتقد أنّه يقـوى نفسه ويصـبح عظيما حينما يربط مصيره بالطغاة وأصحاب القـدرة ، ولكنه يثق بنفسه حينما يتصل بنبع الإيمان ، إذ يعطيه الإيمـان العـزة وروح الاستقلال.
وحينما أحسّ فرعون بانفصـال السـحرة عنه ، حـاول أن ينتقم منهم ، فأخذ يبحث عن مبرر للانتقام فقال :
(**إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ**)
وهـذا ديـدن الطغـاة مع المؤمـنين ، وسـائر أطـراف المعارضة الحقيقية ، إنّهم يلصـــقون بهم التهم الرخيصة ، لتبرر تعسفهم وممارساتهم الجائرة بحقهم.
(**فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْـــــــــــــدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَـذاباً وَأَبْقى**)
وكـان الصـلب قـديما يتم ـ فيما يبـدو ـ بمـدّ يـدي الإنسان على خشبة ، ثم يدقون

فيها المسـامير ، وهكـذا أرجله ومواضع أخـرى من بدنه ، ويظل على هذا الحال حتى يموت.

إلّا إن فرعون هدد بقطع أرجلهم وأيـديهم من خلاف ، زيادة في التعذيب ، وربما أراد التنكيل بعوائلهم ، وتشـوية سمعتهم بعد موتهم ، إذ قال : (**وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى**).

[72] ولكنهم صـمدوا أمامه بصـلابة الإيمـان ، وهكـذا ينبغي أن يكون المؤمن أمام الطغاة صلبا شديدا.

(**قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ**)

أي اكتشـفنا الحقيقة ، ومن يكتشـفها يعشـقها ، وأقسموا :

(**وَالَّذِي فَطَرَنا**)

تأكيد لقـرارهم ودعما لمـوقفهم ، وإنّه الموقف الحاسم ، وأضافوا ردّا على تهديداته :

(**فَـاقْضِ ما أَنْتَ قـاضٍ إِنَّما تَقْضِـي هـذِهِ الْحَيـاةَ الدُّنْيا**)

وهكذا يجب أن يكون المؤمن مسـتعدا لتحمل تبعـات إيمانه واستقلاله.

ولكن السـؤال : كيف بلغ هـؤلاء السـحرة وبهـذه السـرعة الى هـذه القمة السـامقة من الإيمـان والجهـاد ، حيث ألقـوا بكلمة الحـقّ أمـام السـلطان الجـائر ، وحيث آمنوا ذلك الإيمان العميق بالآخرة؟!

والإجابة كالتالي :

أولا : إنّ الحقـــائق تبقى غامضة إلى أن يتصل القلب بالحقيقة الكــبرى في هــذه الحيــاة ، والــتي تتجلى في معرفة الـربّ ، فـاذا عـرف الإنسـان ربه ، ذابت عن قلبه جبال الجليد المتراكمة فوق قلبه ، فرأى الحقائق بوضــوح كاف.

أو ليس الله ســبحانه خـــالق الســـماوات والأرض ، ومبدئ الخلائق جميعا؟ كذلك معرفته أول كلّ علم وينبوع كلّ معرفة.

وهــؤلاء الســحرة حينما آمنــوا بالله صــار بــديهيا أن يتيقنوا بالبعث والجزاء و... و...

ثانيا : عند ما يكون طريقه للإيمان بحقيقة معينة مليئا بالعقبـات والضـغوط ، ولكن يصــرّ الإنسـان على تجاوزها فيختصر المسـافة إلى الايمـان الخـالص ، الـذي يصـعب الحصول عليه في الظروف الطبيعية.

والســحرة ، حينما آمنــوا بالله ، كــانوا قد أســقطوا حواجز الإغراء والإرهاب الفرعـوني ، وتنـازلوا عن المكانة الاجتماعية ، واقتلعوا أنفسهم من حضيض الدنيا ، و... و...

وبالتالي وصلوا الى هذه المرتبة العليا ، بلى إن مجرد إيمــانهم في تلك الظـروف كـان يعـني تحـديا لسـلطات الشهوة والقوة ، بكلّ أبعادهما ، فطـووا كـلّ المراحل في لحظة عظيمة تجلى الرب فيها لقلوبهم ، بعد أن اسـتعدوا للتضحية بكلّ شيء لله ، وللحقّ الذي شاهدوه بأعينهم.

ثالثا : لأنهم عبـدوا الطـاغوت لبعض الـوقت ، ولعلّهم كانوا قد عرفوا ، بوحي ضـميرهم ، ودلالة عقـولهم : إنهم مجرمون ، لأنهم يؤيـدون مجرما قـذرا جبـارا في الأرض ، فكانت عقـدة الـذنب تلاحقهم ، فلما آمنـوا كـانوا يبحثـون عما يطهرهم

ويغسل ذنوبهم الكبيرة ، ويشهد على هذا التفسير الثـالث ، السـياق ، وهكـذا حينما تجلت الحقيقة في عصا موسى (ع) لم يتمالك السحرة أنفسهم فـألقوا سـاجدين ، نعم .. لقد آمنوا بالآخرة وتيقنوا من البعث والحسـاب فاسـتهانوا بالدنيا ، حتى صار تنازلهم في سـبيل القيم أمـرا هينا ، ثمّ استدركوا :

[73] (**إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا**)

ولو كان هذا الإيمان ، وهذه الأمنية بـالغفران ، يكلفنا العـذاب والصـلب ، وهـذا هو الإيمـان الحقيقي ، الإيمـان الذي يستعد صاحبه لكلّ شيء إلّا التنازل عنه.

ومع إنهم يطلبـون الغفـران بشـكل عـام ، إلّا أنهم يخصصون خطيئة السحر ، لأنهم أدركوا أبعادها السـيئة أن يخدم الإنسـان نظاما فاسـدا ، ويكـون وسـيلة له لمواجهة الرسالة والمؤمنين ، قالوا :

(**وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ**)

بسبب إغراءاتك ، وتهديداتك ، وخططك الماكرة.

(**وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقى**)

ردّا على مقولة فرعـون تحـديا : (**أَيُّنا أَشَـدُّ عَـذاباً وَأَبْقى**).

قالوا : كلّا .. الله ـ ولست أنت ـ خير وأبقى.

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَـهُ جَهَنَّمَ لا يَمُـوتُ فِيها وَلا يَحْيى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِـلَ الصَّـالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى (75) جَنَّاتُ عَـدْنٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَـزَكّى (76) وَلَقَـــدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْـــرِ بِعِبـــادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَسـاً لا تَخـافُ دَرَكـاً وَلا تَخْشى (77) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَـوْنُ بِجُنُـودِهِ فَغَشِـيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ (78) وَأَضَـلَّ فِرْعَـوْنُ قَوْمَـهُ وَما هَدى (79) يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنـاكُمْ مِنْ عَـدُوِّكُمْ وَواعَــدْناكُمْ جـانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّــلْوى (80) كُلُــوا مِنْ طَيِّبــاتِ ما رَزَقْنــاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي

---

77 [دركا] : أي إدراك فرعون لك.

78 [فغشيهم] : أي جاءهم الماء حتى أحاط بهم وغطّهم.

وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَـوى (81) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى (82)

واضلّ فرعون قومه وما هدى

هدى من الآيات :

خلاصة رسالات الأنبياء الـتي تتكـرر في القـرآن ، هي أن الإنسان رهين عمله ، فعاقبة المجـرمين النـار لا مـوت لهم فيها ولا حياة ، بينما عاقبة المؤمنين جنات تجـري من تحتها الأنهار ، وليست نتيجة العمل محـدودة بـالآخرة ، بل قد يحصل الإنســان على عاقبة عمله في الــدنيا أيضا كما انحرف فرعون بطغيانه. معاقبه الله بالغرق.

لهـذا حـذر الله بـني إسـرائيل من الطغيـان وكفـران النعمة حتى لا يحل عليهم غضبه ، أما لو انحـرف الإنسـان قليلا فان باب الرجعة والتوبة الصادقة يبقى مفتوحا له.

بينات من الآيات :

[74] (**إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمـاً فَـإِنَّ لَـهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى**)

الــذي يســتمر في جريمته الى حين لقــاء ربه فــان مصيره جهنم. والتعبير «**فَإِنَّ لَهُ**

جَهَنَّمَ» يوحي بأن المجـرم يشـتري جهنم بعمله الطـالح ، حتى تصبح ملكا له فعلا.

وكم هو المكـوث في النـار ، حيث يبقى المجرمـون بين الموت والحياة ، يتجرعون العذاب ، ويذوقون الألم!؟

جاء في الأحاديث : يأتي أهل النار الى مالك يتوسلون إليه ــ بذلة ــ سـبعين سـنة ، حـتى يخفف عنهم العـذاب فيرفض ، فيقولون له : إذا لا نريد الحياة ، ولكنه لا يجيبهم الى حين ، ثم يأتيهم النداء انكم ها هنا ماكثون ، فييأسـون ويطلبـون من مالك أن يـأذن لهم بالبكـاء على ما فرطـوا في جنب الله ، فيـأتيهم الإذن فيبكـون على أنفسـهم ألف سنة.

[75] وعلى العكس من ذلك تماما هو حال المؤمـنين :

(**وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ**)

فالإيمان المسـتمر حـتى لقـاء الله ، والمقـرون بعمل الصالحات ثمن الجنة.

(**فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى**)

فكل صـــــالحة من العمل بدرجة من الجنة ، وكلمة الدرجات جاءت هنا بإزاء كلمة الصالحات ، وفي الخـبر أن ما بين الدرجة والأخرى كما بين السماء والأرض.

[76] (**جَنَّاتُ عَـــدْنٍ تَجْــرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهــارُ خالِدِينَ فِيها**)

والخلود من أسمى طموحات الإنسان.

(**وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى**)

ان أعظم وأصــعب مســئولية على البشر في هــذه الدنيا ، هي أن يزكّي نفسه من آثار الشــرك ، من البخل ، والكسل ، والضجر ، والخوف من غير الله ، و.. و.. والذي لا يــزكي نفسه في الــدنيا يمكث بنســبة رذائله وانحرافاته في جهنم ، لأن الجنّة لا يــدخلها الا المطهّــرون ، والســبيل الى الطهـــارة أما هو الــتزكي في الـــدنيا ، أو النـــار في الآخرة.

[77] بعد التحـــدي بانتصـــار موسى على فرعـــون ، والحقيقة على السحر ، أوحى الله الى موسى بالخروج.

(**وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي**)

الســـاري هو المســـافر بالليل ، أما الســـارب فهو المســـافر في وضح النهـــار ، وأمر الله موسى أن يســير ببني إسرائيل ليلا ، حتى لا يشــعر به فرعــون ولا جنــده الا وقد فات الأوان ، وهذه من رعايته لعباده.

وبــالرغم من أن بــني إســرائيل يصل عــددهم الى (700) ألف ، الا أن واحـــدا منهم لم يفش السر ، ولـــذلك سماهم الله (عبادي) ، فقد كـانوا مخلصـين يسـتحقون أن يجعل الله لهم في البحر طريقا يبسا ، ويخلصــــــهم من فرعون وجنده.

(**فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً**)

لما ضرب موسى البحر بعصاه انفلق وصار كل جانب منه كأنه الجبل ، وبينهما طريق يابس يصلح للسير عليه.

(**لا تَخافُ دَرَكاً**)

أي لن يدركوك.

(**وَلا تَخْشى**)
لا تخاف من الغرق.
[78] (**فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ**)
لما طلع الصـباح واتضح الأمر ركب فرعـون وجنـوده دوابهم ليلحقوا بموسى وبني إسرائيل ، ولما وصلوا البحر وجدوا موسى (ع) وبـني إسـرائيل قد عـبروا خلال البحر ، فدخلوا خلفهم ، وقد أعماهم الحقد والتكبر ان يلتفتوا الى هذه المعجـزة الالهية ، فغشـيت الأمـواج فرعـون وجيشه وغرقوا.
(**فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ**)
يوحي هذا التعبير القـرآني بـأن الموقف الـذي مـرّ به فرعـون وجنـوده بلغ من الهـول والـرعب ما يفـوق كل وصف ، بلى إنّ منظر جبـال الأمـواج البحرية الهائلة وهي تبتلع مئات الألـوف من الرجـال والـدواب إن هـذا المنظر يفوق الوصف فعلا.
[79] والعـبرة الـتي نستخلصـها من ذلك الموقف ، تتلخص في الآية الكريمة :
(**وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدى**)
ان النهاية المأسـاوية كـانت بسـبب ضـلال الحـاكم ، واتباع الناس له في ضلالته.
[80] وحـتى لا يطغى بنو إسـرائيل ، أو ينسـوا نعمة الله عليهم ، يذكرهم الله قائلا
(**يا بَنِي إِسْـرائِيلَ قَـدْ أَنْجَيْنـاكُمْ مِنْ عَـدُوِّكُمْ وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ**)

الأمن أســـاس أولي لأي حضـــارة ، يينما الـــوحي هو القيم والتشريعات الحضـارية الـتي تحقق العز والفلاح و.. و.. للأمة.

وقد من الله بهما على بـــني إســـرائيل إذ أنجـــاهم وواعدهم جانب الطور.

(**وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى**)

المن هو الحلوى ، والسلوى طير مشوي ، كانا ينزلان عليهما من السماء.

[81] نعمة الله هدفها سعادة البشر ، ولكن قد تكـون عاملا لانحرافه وانفلاته ، لذلك حذر الله بني إسرائيل قائلا :

(**كُلُـوا مِنْ طَيِّبـاتِ ما رَزَقْنـاكُمْ وَلا تَطْغَـوْا فِيـهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي**)

وغضب الله هو عذابه الشديد في الدنيا والآخرة.

(**وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى**)

وتعالى الله أن يغضب ويطـرأ عليه التغيـير مثلنا نحن البشر ، انما هو العــذاب ، ومن يصــيبه فكأنما يهـوي من على قمة الجبل الى واديه ، وليس هـــــــــذا التمثيل الا للتقريب ، والا فالواقع أدهى وأمر.

[82] (**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صـالِحاً ثُمَّ اهْتَدى**)

من طبيعة الإنســـــان أن يطغى حين يجس بنعم الله عليه (**إِنَّ الْإِنْســـانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْـــتَغْنى**) ، ولكن سـبيل التوبة والعـودة الى الصـواب مفتـوح امامه ، حينما يتـــورط في ذلك بســـبب غفلته ، ونســـيانه ، و.. و.. وآنئذ سـيجد ربه غفـارا لو كـانت توبته كما تـذكر الآية .. (تـاب عن ذنبه (وآمن) بالله صادقا (**وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَـدى**) وكان

عمله بحيث ينتهي به الى الهداية.
وفي بعض الروايــات ان الهداية هنا بمعــنى الولاية ، فينبغي للإنسان أن يؤمن بالله ، ويعمل صالحا بعد التوبة ، وان يبحث عن القيادة الرسالية ، ذلك انه لا يكمل الايمان والعمل الصــالح الا بالولاية ، ومعرفة القائد ، لأن الامــام الذي يهدي الى سبيل الرشاد يكـون عكس فرعـون الـذي أضل قومه وما هدى ، وهذا هو سبيل التوبة النصوح ، وهو المعنى الحقيقي لكلمة الشفاعة.

وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى (83) قـالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْـكَ رَبِّ لِتَرْضى (84) قـالَ فَإِنَّا قَـدْ فَتَنَّا قَوْمَـكَ مِنْ بَعْـدِكَ وَأَضَـلَّهُمُ السَّـامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِـفاً قـالَ يا قَـوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْـدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِــلَّ عَلَيْكُمْ غَضَــبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَــأَخْلَفْتُمْ مَوْعِـدِي (86) قـالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِـدَكَ بِمَلْكِنا وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّـامِرِيُّ (87) فَـأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَـداً لَـهُ خُـوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ

---

84 [هم أولاء] : أولاء جمع الذي ـ أي هم الذين.
87 [بملكنا] : أي ونحن نملك من أمرنا شيئا.
[أوزارا] : أثقالا.

وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ (88) أَفَلا يَـرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِـعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِـكُ لَهُمْ ضَـرًّا وَلا نَفْعـاً (89) وَلَقَـدْ قـالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الـرَّحْمنُ فَـاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُـوا أَمْـرِي (90) قـالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى (91)

---

88 [فنســي] : أي فقد نسي موسى أنّ إلهه هنا ، فــذهب إلى الطّــور يطلبه ، وقيل معناه : فنسي السامري أي ترك ما عليه من الايمان.
90 [فتنتّم به] : أي امتحنتم بهذا العجل.

وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى

هدى من الآيات :

ذهب نــبي الله موسى (ع) ينــاجي ربه ، فما عــاد الا وقد حصـلت الـردة في قومه ، وفي الـوقت الـذي يـدلل الأمر على أهمية حضـــور القيـــادة في المجتمع لتقـــاوم محاولات التحريف من قبل الانتهازيين ، تشـير الآيـات الى أن علاقة بني إسـرائيل بموسى (ع) كـانت علاقة بشخصه لا برسالته ، مما أدى لانحرافهم بعد غيابه عنهم وتمــردهم على خليفته هــارون ، وكــان من الضــروري تغيــير هــذه العلاقة ، فأمر الله بمدّ غيبة موسى لهذا الهدف.

وقد انتقد النبي موسى (ع) هذا الوضع ، وحذرهم من غضب الله أن يحل عليهم ، وتساءل عن سبب هذه الـردة .. وحينما حاول بنو إسـرائيل التـبرير احتج عليهم الله بأنه أعطاهم عقـولا يمـيزون بها وكـان ذلك أبـرز حجة عليهم ، أما الحجة الثانية فكان شخص هارون وصي موسى الــذي نصحهم ولكنهم لم يسمعوا له.

بينات من الآيات :

[83] (**وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى**)

لماذا أسرعت إليّ وتركتهم وراءك؟

[84] (**قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي**)

ان قومي لا يزالون يقتفون أثري ، ويسيرون على نهجي.

(**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى**)

دفعني الى العجلة حبي لك وشوقي للقائك ، وهذه الآية توحي بمدى حب موسى لربه ، حيث بادر الى لقاء ربه ، وكان على عجل لنيل رضاه سبحانه. وهكذا حال من ذاق حلاوة مناجاة ربه ، وأنس بقربه ، وتجلى الرب لقلبه ، فمشى في أرجاءه الوجل ، واهتزت جنبات فؤاده بنور الشوق ، فوجد من نور خالقه ما جذبه الى ما يقربه اليه ، ولاح له من جمال بارئه ما أنساه كل جمال ..

لذلك كان رسول الله (ص) يجلس في محراب الصلاة على أشد من الجمر شوقا الى ميعاد اللقاء ، فاذا حان وقت الصلاة هتف ببلال المؤذن : أرحنا يا بلال بالصلاة.

وهكذا المؤمنون الصادقون يدعون الرب ليتجلى لقلوبهم بنور معرفته ، فيكونون :

«ممن دأبهم الارتياح إليك والحنين ، ودهرهم الزفرة والأنين ، جباههم ساجدة لعظمتك ، وعيونهم ساهرة في خدمتك ، ودموعهم سائلة من خشيتك ، وقلوبهم متعلقة بمحبتك ، وأفئدتهم منخلعة من مهابتك ..» [1]

---

(1) الصحيفة السجادية ص 249.

ويكررون أبدا :

«يا من أنـوار قدسه لابصـار مجيه رائقة ، وسـبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة ، يا مـنى قلـوب المشـتاقين ، ويا غاية آمال المحبين!» [1]

[85] وكـان غيـاب موسى قد تـرك فرصة مناسـبة للانتهازيين أن يسعوا الى مصالحهم.

(**قـالَ فَإِنَّا قَـدْ فَتَنَّا قَوْمَـكَ مِنْ بَعْـدِكَ وَأَضَـلَّهُمُ السَّامِرِيُ**)

يبدو أن السامري كـان منافقا ، وكـان يتحين الفـرص للقفز الى أريكة الحكم ، وكـانت مجموعة من الانتهـازيين وضعفاء النفوس ملتفين حوله ، ولعلهم كانوا يتـآمرون مع بعضهم ضد القيادة الرسالية.

والآن حيث تأخر موسى (عليه السلام) وظنـوا أنه قد أدركته الوفـاة ، بـادروا الى الفتنة ، لكي يبعـدوا خليفة موسى الشـرعي هـارون (عليه السـلام) عن السـلطة ، فأشـاع السـامري فيهم أن موسى قد مـات ، وصـنع لهم العجل كرمز لسلطته ، وأمرهم بعبادته ، مستغلا حب بني إسرائيل للذهب ورواسب الشـرك عنـدهم ، أو ليسـوا قد طالبوا نبيّهم بأن يجعل لهم إلها حين مـروا بقـوم يعبـدون الصنم؟

ولعل ذلك كـان ضـرورة حضـارية ، حيث أن موسى (عليه السلام) قضى على جيوب الفساد عند بني إسرائيل بعد هـذه الفتنة ، ولو لم تقع الفتنة فربما كـان السـامري وقومه ينجحـون في مـؤامرتهم بعد وفـاة موسى (عليه السلام).

أما الآن فقد افتضح السـامري ، وعـاد موسى بكل ما تميّز به من الحزم والشدة في الله.

---

(1) المصدر

[86] (**فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً**)
غضبان عليهم ، أسفا مما حدث.
(**قالَ يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً**)
كـالرجوع الى الأرض المقدسة ، والجـانب الأيمن من الطور ، والبركة ، وأن يقيم حضارتكم إن أنتم استقمتم؟!
(**أَفَطـالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْـدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِـلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي**)
بالطبع لم يكن بنو إسـرائيل يتحـدون الله حـتى يـنزّل عليهم غضبه ، ولكن إتباعهم السامري هو الاسترسـال مع الظروف والشهوات ، وهذا يـدل على أن البشر بأنفسـهم وبمحض إرادتهم يختارون نوع واقعهم ومصـيرهم ، والـذي يتجسد هنا بغضب الله.
[87] (**قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا**)
أي لم ننحـــــرف بكامل وعينا ، وبما نملكه من عقل وارادة.
(**وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها**)
هـذا الانحـراف جـاء من غيرنا ، فالسـامري هو الـذي جمع لنا الذهب والفضة التي جمعناها من القـوم وحملناها وصـنع لنا بها عجلا ، والواقع انهم حـاولوا بـذلك تـبرير واقعهم الفاسد ورفع المسؤولية عن أنفسهم.
(**فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُ**)

رأس الفئة الانتهازية التي عادة ما تكون موجـودة في المجتمعــات ، والآية الآتية تشــير الى أن المتــورط في عملية الإضــلال ليس الســامري وحــده ، بل كــانوا فئة متــآمرة ، ولعل معــنى القى الســامري : انه القى في روعهم وخــدعهم ، وقــالوا معنــاه : القى زينة القــوم في النار ، أو هو أيضا القى زينته فيها.

[88] (**فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ**)

جسدا أي ميتا لا حياة فيه ، والخور هو صوت الثور.

وهناك أقـوال في العجل ، فبعض المفسـرين قـالوا : ان العجل كــان يتحــرك لأن الســامري أخذ قبضة من أثر جبرائيل (ع) الـذي جـاء راكبا على فـرس ليغـري فرعـون وقومه حين رفضت خيـولهم دخـول البحر ، وكـان الـتراب الذي يدوس عليه فـرس جبرائيل يتحـرك ، والـذي قـام به الســامري أن جعل هــذا الــتراب في جسد العجل ، فأخذ يتحرك ويخور بسببه.

وقــال بعض المفســرين : ان العجل كــان في مكــان بحيث يظهر رأسه فقط للحاضرين ، ثم يـأتي شـخص من وراء العجل وينفخ في دبره فيخرج خــوار من فمه ، أو أنه صنع بحيث يصوّت إذا جرت فيه الرياح.

(**فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ**)

[89] ولكن هل كانت أعذار بني إسـرائيل وتـبريراتهم مقبولة عند اللــه؟ كلا .. لقد أجــابهم بــأن هنــاك حجتــان عليكم تبطل ادعاءكم :

أولا : العقل .. فأنتم عقلاء تستطيعون أن تهتــدوا الى الحق لو تفكرتم ..

(**أَفَلا يَـرَوْنَ أَلَّا يَرْجِـعُ إِلَيْهِمْ قَـوْلاً وَلا يَمْلِـكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً**)

فليس من صــفات الإله : أنّه لا حــراك به ، ولا ارادة يضربها أو ينفع.

[90] ثانيا : حجة القيادة الربانية.

(**وَلَقَـدْ قـالَ لَهُمْ هـارُونُ مِنْ قَبْـلُ يا قَـوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِــهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الــرَّحْمنُ فَــاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُــوا أَمْرِي**)

لقد دعـــاهم هـــارون الى طاعته ، بصـــفته القيـــادة الشـــرعية ، وأوضح لهم أن ما يدعيه الســـامري وجماعته باطل.

ومن الآية نستوحي بأن الصراع كان قائما على قيـادة المجتمع ، بين الخط الرسالي الذي يمثله موسى وهـارون (ع) ، وبين الخط الجـاهلي أصـحاب الـردة الى الجاهلية ، ولعل هذا الفريق كانوا هم قيادات بني إســرائيل قبل بعثة موسى فيهم ، كما كــانت قبيلة بــني أمية قبل الإســلام ، فتآمرت للوصـول الى السـلطة بعد غيـاب الرسـول حـتى تسنى لها ذلك على عهد معاوية بن أبي سفيان.

[91] (**قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْـهِ عـاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِـعَ إِلَيْنا مُوسى**)

يبدو من الآية ان تعلق بني إسرائيل لم يكن بالرسالة بقدر ما كان بشخص موسى (ع) ، فقد كـان هـارون أخـاه من أبيه وأمه ، وكـــان امتـــدادا له في المجتمع ، والوصي عليهم من بعده ، ولكنهم لم يستجيبوا له ، عند ما دعــاهم لطاعته ، وقـرروا البقـاء على الانحـراف حـتى يعـود إليهم موسى (ع).

وكانت هذه الفتنة مفيدة لبني إسرائيل ، فقد أفــرزت الفئــات الــتي لا تــزال تمثل رواسب الجاهلية والفئــات المصـلحية عن الأخـرى المؤمنة الصـادقة في ايمانهـا. أما الفائـــــدة الثانية فهي التحصن ضد الانحرافـــــات الفكرية والاجتماعية الــتي قد يتعرضــون لها في المســتقبل وذلك بعد غياب موسى عنهم.

ان طبيعة البشر هي التمحور حول الأشياء دون القيم ، وارتفاع الإنسان الى مستوى الايمان بالغيب وعبادة الله تعالى متجردا عن الأهواء وعن الضغوط المختلفة ، يعتبر قمة الحضارة ، ذلك لأنه يعني ان الإنسان قد أنهى صراعه الداخلي لصالح عقله ، حتى يخلص عبادته لله ، ولا يهبط الى مستوى الشيئية في الحياة ، وهذا الأمر يحتاج الى مزيد من التوجيه والتربية.

ولو ترك الإنسان وطبعه ، لهبط الى مستوى عبادة الأصنام ، لأنها جزء من التفاف الإنسان حول الأشياء ، والخضوع لسلبيات الحياة وضغوطها ، بينما الايمان بالله يعني الارتفاع عن كل ذلك والنظر الى الأشياء بأنها مخلوقات لله.

وقد هبط بنو إسرائيل الى مستوى عبادة الأشياء حينما غاب عنهم نبيهم موسى (ع) ، ثم هداهم الله اليه بعد الضلالة ، وفي ذلك عبر عظيمة.

قــالَ يا هــارُونُ ما مَنَعَـكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَــلُّوا (92) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَــيْتَ أَمْـرِي (93) قــالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُـذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْــرائِيلَ وَلَمْ تَــرْقُبْ قَــوْلِي (94) قـــالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ (95) قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْـتُ قَبْضَــةً مِنْ أَثَـرِ الرَّسُــولِ فَنَبَـذْتُها وَكَـذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِـي (96) قـالَ فَـاذْهَبْ فَـإِنَّ لَـكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَـهُ وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْـفاً (97) إِنَّما إِلهُكُمُ اللـهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً (98)

موسى (ع) يعالج الردة الجاهلية

هدى من الآيات :

بعد أن غـاب عن قومه أربعين ليلة ، جـاء موسى (ع) ليجد أكثرهم وقد تحول من عبادة الله الى عبـادة العجل ، فبـدأ مسـيرة الإصـلاح بـالبحث عن مصـدر الفسـاد حـتى يتسنى له علاج الـردة. وبـدأ ذلك بسـؤال أخيه لأنه خليفته في غيابه ، وانتهى بتوجيه خطابه الى بني إســرائيل ولكنه قبل ذلك التفت الى السـامري رأس الـردة ، وعـالج معه الموقف بحزم.

وحتى يقضي على الانحراف قام موسى (ع) بشــيئين :

الأول : عــزل القيــادة المنحرفة ، الــتي تعمق الواقع السلبي ، وتمده بأسباب البقاء في المجتمع. وفي القـرآن يــذكر الله النفي كوسـيلة لمواجهة الفسـاد والمفسـدين وذلك لكي لا يتأثّر أفراد المجتمع بها.

الثاني : تحطيم رمـوز الـردة وذلك حين حـرّق العجل ونفسه في البحر نسفا.

ويلاحظ أن موسى (ع) كـان صـداميا ، فلم يـراهن الواقع السـلبي الفاسد ، ولا رمـوزه بل اصـطدم معهما بشـدة ، كما اصـطدم من قبل مع فرعـون وسـحرته. وهـذه كلها شواهد على أن حركات الأنبياء (ع) ، والحركات الرسـالية التي تنبع منها وتمثل امتدادا لها حركات صدامية.

بينات من الآيات :

إن من طبيعة البشر هي التمحـور حـول الأشـياء دون القيم ، وإن ارتفاع الإنسان الى مستوى الايمـان بـالغيب ، وعبـادة الله تعـالى متجـردا عن الأهـواء وتحـدي المصـالح والضغوط المختلفة ، يعتبر قمة الحضارة الانسـانية. حيث ينهي الإنسان صـراعه الـداخلي لمصـلحة عقله ، ويتحـدى كل الشهوات المحيطة بقلبه ، وكل الضـغوطات المحيطة به في مجتمعة ، حـــتى يخلص عبادته لله ســـبحانه ، ولا يهبط الى مستوى الشيئيّة في الحيـاة ، وهـذا الأمر يحتـاج الى مزيد من التوجيه والتربية ، كما هو بحاجة الى عزيمة شديدة ، وارادة حديدية!

ولو تـرك الإنسـان وطبعه لهبط الى مسـتوى عبـادة الأصـنام ، لأنها تعـني الالتفـاف حـول الأشـياء ، والخضـوع لسـلبيات الحيـاة وضـغوطها ، بينما الايمـان بالله يعـني الارتفـاع عن هـذه الضـغوط ، والنظر الى الأشـياء نظـرة متسـامية ، باعتبارها ليست سـوى مخلوقـات يـدبرها الله سبحانه.

وهكــذا هبط بنو إســرائيل مــرة أخــرى الى حــالتهم البشــرية (عبـادة الأشـياء) حينما تـركهم موسى (ع) ولم يصـمدوا كثـيرا أمـام اغـراءات العجـل. وانما تؤكد آيـات القرآن دائما على ربوبية الله وحاكميته لكي يعرج الإنسان الى قمة العبودية له تعـالى ، ويقـوم بعمل جـاد من أجل الوصـول الى ذلك المسـتوى ، والاكتفـاء به عن الأشـياء حوله.

ومن العجب أن بعض المـــؤرخين يفلسف عبـــادة الطـــوطم ، والكـــواكب ، والأصـــنام ، ببعض التحليلات المعقـــدة ، علما بأنها لا تحتـــاج الى كل ذلك إذ أنها من طبيعة الإنسـان ، ففي يـوم كـانوا يعبـدون الحيـوان الـذي يخافونه لأنه كـان يرمز الى القـوة. فبعضـهم كـان يعبد الفيل ويعتبره رمزا للقوة ، وبعضهم كان يعتبر الأسد رمزا للقوة فيعبده. أما هذا اليوم فيعتـبرون الأبـاطرة والملـوك رمزا للقوة فيعبدونهم. فاذا أردنا أن نصل الى عبودية الله علينا أن نتجـاوز الأشـياء لخالقها ، والشـيئية الى القيم ، والشهود الى الغيب.

وهكـذا هبط بنو إسـرائيل الى درك الشـرك ، فـور ما تعرضـوا لفتنة السـامري. فلما عـاد إليهم موسى (عليه السلام) ، وجه خطابه الى هارون أولا :

[92 ـ 93] (**قـالَ يا هـارُونُ ما مَنَعَـكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا* أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي**)

ولعل السبب كان :

أ ـ أن هـارون كـان خليفة عليهم والقيـادة الشـرعية المسؤولة عنهم فكان أول من يسأل عنهم.

ب ـ أن موسى (ع) لن يهادن أحدا في قضـايا التوحيد حتى ولو كان وصيه وخليفته هارون.

ج ـ أن موسى (ع) أراد أن يوضح لجمـاهير بـني إسـرائيل ، أن قضـية التوحيد ليست هينة ، وأنه حـتى هـارون (ع) ، يتعـرض للسـؤال بل للمحاكمة ، حـتى يثبت أنه قد أدى وظيفته بالنسـبة إليها ، كيف وأن الله سـبحانه يسـأل المرسـلين في يـوم القيامة عن أممهم ، وكـان موسى (ع) قد أوصى أخاه قبل مغادرته الى الطور قائلا :

«**اخْلُفْنِي فِي قَــوْمِي وَأَصْــلِحْ وَلا تَتَّبِــعْ سَــبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**» وجاء الآن يسأل عمّا قام به.

أما هارون فقد أجاب موسى (ع) بأن بني إسـرائيل لا يخضعون إلا لك ولا يزالون معتقدين بك ، لذلك إذا أمرتهم بترك عبادة العجل قالوا سـنعكف على عبادته حـتى يرجع إلينا موسى ، فأشــاع الســامري بأنك مت واعــرف أنك ســتعود ويكــون ذلك دليلا على كذبه ، ولعل موسى (ع) كان يعرف بأن هارون (ع) شـديد الغضب في الله ، لـذلك وصاه بإصلاحهم دون القيام ضـدهم ، ونسـتوحي من هـذا الســؤال وجوابه ان الثــورة ضــرورة في المجتمعــات المنحرفة ، ولكن على الثــوار أن ينتظــروا الأوقــات المناسـبة لتفجـير ثـورتهم ، ذلك لأنه عند ما تشـيع فكـرة باطلة في مجتمع ما ، فــان الجمــاهير تلتف حولها فلكل جديد لــذة ، مما يســقط خيــار المقاومة لو تعجلــوا في محاربتها ، فـاذا انتظـروا قليلا حـتى يـذهب بريقها وتظهر عيوبها ، فـان مقاومتها آنئذ سـتكون ناجحة ، ولـذلك جـاء في الأحــاديث ما مضــمونه (لا تقــاوم الــدول في بداية أمرهــا) ، لأنها شــابة وتمتلك الجمــاهير وهي مســتعدة لحماية مكتسـباتها ، اما إذا ظهـرت سـلبياتها فـان النـاس سيتحركون ضدها ويساعدون على إسقاطها ، اضـافة الى تنامي عوامل الانهيار فيها بسبب انحراف مسيرتها.

[94] عند ما عتب موسى على هـــــــارون (عليهما السلام) ، وأخذ بلحيته وبرأسه يجرهما اليه ، طلب هارون من أخيه الا يغضب معللا بـأن قومه لم يسـتجيبوا له ، ولو أنه أخـذهم بـالقوة لتفرقـوا اجتماعيا ولنفـروا من الـدين نفســيا ، وأن الحركة المضــادة قد تكــرس فيهم الواقع السلبي ، فانتظر حتى يعود موسى (ع) إليهم.

ويبــــدو أن الخلاف بين هــــارون وموسى (عليهما الســلام) بــادئ الأمر كــان في فهم الموقف وليس في الحكم الشــرعي ، فبينما كـان هـارون يـرى أن الموقف يستدعي التريث ، لكي لا تنهار وحدة الأمة ، ولــذلك طبق موقف وصــيه موسى (عليه الســلام) حيث قــال له : «**وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِـدِينَ**» ، تسـاءل موسى (عليه السلام) :

كيف سكت هـارون عن انحـراف كبـير ، كتغيـير القيـادة ، والشرك بالله ، وعبـادة العجل ، وأن على هـارون أن يتبع نهج موسى (ع) في مقاومة الانحراف ، وأراد أن يتأكد بأن الضعف البشري لم يدفع بهارون الى التهـاون في مسـألة التوحيد ، فلما عـــرف موسى (ع) أن مصـــلحة الرســـالة وليس الخـوف من الطغـاة هو الـذي أسـكت هـارون عن حقه سكن غضبه.

(**قـالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُـذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِـي إِنِّي خَشِـيتُ أَنْ تَقُـولَ فَـرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْـرائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي**)

حينما قال له : «أصلح».

وهكـــذا كـــانت حكمة غضب موسى (ع) الظـــاهري توضيح الموقف للناس ولذلك سكت.

[95] بعد أن أنهى موسى (ع) الحـــــــديث مع أخيه التفت الى السامري.

(**قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُ**)

لما ذا فعلت الذي فعلت؟

[96] (**قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ**)

أي رأيت شيئا لم يروه.

(**فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ**)

أي من التراب الذي داست عليه خيل جبرائيل.

(**فَنَبَذْتُها**)

قذفتها في داخل العجل.

(**وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي**)

زينت لي أهوائي الانحراف.

لقد كان السامري ـ الـذي ينتمي الى سـمرون ، وهو ابن يشاكر من أولاد يعقوب ـ وكما يبدو من الآية ممن بلغ به الإيمـــان درجة عالية إذ أبصر ما لم يبصـــره الآخـــرون حيث رأى أثر الرسول ، ولعل السامري كان ممن سـاءت عاقبته ، وهو مثـــال للخط المنـــافق في الأمة ، والـــذي يسعى منتهزا الفرص ، كغياب القيـادة ليصل الى مطامعه ومصالحه المادية ، ولكن السـؤال هو لمـاذا ينحـرف كثـير من المؤمـــنين بعد ايمـــانهم ، أمثـــال بلعم ابن بـــاعوراء والسامري والزبير ابن العوام؟!

والجواب كالتالي :

أولا : الانحـراف في مسـيرة البشر شـيء ممكن لأن عوامله كثـيرة ، فربما يواجه فتنة معينة فيتحـداها ، ولكنه حينما تـــترى عليه الفتن المختلفة ينهـــار امـــام بعضـــها ، وأصعب فتن الحياة ، هي فتنة الرئاسة.

بلعم كـــــان مؤمنا ، ولكن حينما رأى أن موسى (ع) أصبح نبيا دونه ، دفعه نحو الانحراف ، حتى قال عنه الله : «**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِـلْ عَلَيْـهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْـهُ يَلْهَثْ**» [1] ، وهكذا كان السامري من أصحاب موسى (ع) ولكنه لم يرضى أن يكـــون هـــارون رئيسا عليه فاصـــطنع حادثة العجل ، وخدعته شـهوة الرئاسة ، وكـذلك الزبـير ، فلقد كـــان مع رســـول الله (ص) يقاتل معه ويـــذود عنه ، ولكن حينما أراد السلطة انحرف.

---

(1) سورة الأعراف آية «176».

وجـرت عليهم الامتحانـات لكي يتحـدوه ويصـبح ايمـانهم خالصا ، ولكنهم انهزموا بتكرس الانحراف في أنفسهم.

والصـديقون هم الـذين يقـاومون عوامل الانحـراف ــ من الحسد وحب الــدنيا ، وإذا تحــدّوا واســتقاموا دخلــوا الجنة والا سقطوا في النار.

ثانيا : أن ينحــرف في آخر لحظة من حياته ، ويــدخل النار ، فالذين يحسنون الظن بأنفسهم عادة ما ينحرفون ، وعلى عكسهم المتّهمون لها.

ثالثا : من الأسباب الرئيسية للانحـراف طـول الأمل ، والحرص على الدنيا ، لأنهما من بواعث التسويف بالتوبة.

[97] أما كيف عــالج موسى الموقف مع الســامري؟ فلقد قام بخطوتين رئيسيتين هما

1 ـ عــزل الســامري عن المجتمع لأنه جــذر الانحراف :

(**قـالَ فَـاذْهَبْ فَـإِنَّ لَـكَ فِـي الْحَيـاةِ أَنْ تَقُـولَ لا مِساسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ**)

وهكـذا يجب أن تكـون الحلـول الـتي تضـعها الحركة الثورية ، حلولا جذرية تتعدى تتبع الآثـار السـلبية وإزالتها ، الى اجتثــاث جــذر الفســاد ، فبــدل أن تحــارب الخمر ، والفساد الخلقي ، والبرامج المضللة في وسـائل الاعلام ، حارب الطاغوت الذي يقف خلفها ، لأن القضاء عليه يعني نهايتها جميعا.

ولم يقتل موسى (ع) السامري ليبقى عــبرة حية الى كل الانتهــازيين من بــني إســرائيل ، ولكي تتضح عدالة الرسالات الالهية وكيف أن مواقفها عقلانية ، ففي

إن انحـراف هـؤلاء يـدل على وجـود انحـراف نفسي عميق في قلوبهم لمّا يقاوموه ، الخـبر أن موسى (ع) هم بقتل الســامري ، فــأوحى الله له أن لا تفعل فانه كــان سخيا ، وثالثا حتى يكـون عذابه شـديدا يـوم القيامة بحيث يســتوفي كل ماله في الــدنيا ولا يلقى في الآخـــرة إلا العذاب. ولعـلّ السـامري ابتلي بمـرض جسـدي أو روحي يـؤدي إلى عذابه بـاقتراب النـاس اليه ، فكـان يهـرب من النــاس ويصــيح إذا اقــترب منه أحد لا مســاس : أي لا تمسوني أو لا تقتربوا منّي!

2 ـ تحطيم رمز الواقع السلبي ..

(**وَانْظُــرْ إِلى إِلهِــكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْــهِ عاكِفــاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً**)

أخذ موسى العجل الـذي عبد من دون الله وحرّقه ثم ذرّه في اليم لكي يقتلع جــذر الفتنة ، خشــية أن يقــدس العجل أو قطعاته أو حــتى رمــاده في المســتقبل ، كما يقـدس المرتبطة مصـالحهم بنظـام الطـاغوت آثـاره بعد الثورة.

ونســتوحي من هــذه العملية أن على الســلطات الرسالية أن لا تكتفي بتصفية شخص الطاغوت فقط ، بل تحاول اقتلاع جذوره وتصـفية آثـاره ورمـوزه ، كقصـوره ، وتماثيله ، ولو كان في ذلك بعض الخسارة المادية للثوار ، لأن الخسـارة الحقيقية أن تبقى هـذه الأشـياء تقـدس من قبل المنحرفين الذين لا يزالون يتعلقون بالطاغوت بسبب عدم استجابتهم للتطور الثوري الذي حدث.

[98] كان الخطـاب الأول موجها الى هـارون القيـادة الرســالية ، والخطــاب الثــاني الى الســامري القيــادة المنحرفة ، أما الخطاب الثالث فلبني إسـرائيل أنفسـهم ، لأن هــذه الجهـات هي المســؤول الحقيقي عن أي تغـير سلبي في الأمة.

فلا بد أن تحاسب الحركة الثورية هل أنها تحملت مسئوليتها أم لا ، وكذلك القيـادة المنحرفة لما ذا أقـدمت على الانحـراف ، والجمـاهير لمـاذا اسـتجابت الى ذلـك؟!

قال تعالى :

(**إِنَّما إِلهُكُمُ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ**)

فلا تعبـدوا العجل ، ولا المـال ، ولا من يملك المـال ، والعبادة تبدأ من حب الشيء حبا ذاتيا في القلب ، فلتذكر أن الله محيط علما بكل شيء ، حتى بخفايا القلوب الـتي قد تميل الى الباطل.

(**وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً**)

أي وسعه من كل صوب وجانب.

خاتمة الاية متناسـبة مع أجـواء الحـدث ، حيث كـان الـذنب وتـبرير الـذنب مما لا يخفى على الله الـذي أحـاط علمه بكل شيء.

كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً (99) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً (100) خالِدِينَ فِيهِ وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً (101) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (102) يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً (103) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً (104) وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً (105) فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً (106)

---

102 [زرقا] : جمع أزرق ، فإنّ الإنسان المكدّر المهموم تعلو وجهه زرقة.

106 [فيذرها] : فيجعلها.

[قاعا] : أي أرضا ملساء منكشفة.

[صفصفا] : أي مستوية ، لا علوّ فيها ولا نتوء ، والصفصف : هو المستوي من الأرض الذي لا نبات له كأنه على صف واحد في استوائه.

لا تَــرى فِيها عِوَجــاً وَلا أَمْتــاً (107) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُــونَ الدَّاعِيَ لا عِـوَجَ لَـهُ وَخَشَـعَتِ الْأَصْـواتُ لِلـرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسـاً (108) يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَـعُ الشَّـفاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِـيَ لَـهُ قَـوْلاً (109) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (110)

---

107 [ولا امتا] : الأمت الأكمة يقال مدّ حبلة حـتى ما تـرك فيه أمتا أي انثناء.

108 [لا عوج له] : أي لا اعوجاج للدّاعي بحيث يدعو بعضا ويذر بعضا ، وإنما دعوة عامة شاملة للجميع.

[همسا] : صوتا خفيفا.

وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمنِ

هدى من الآيات :

من العــبر الأساســية الــتي يســتفيدها الإنســان من قصص التاريخ هي معرفته بأن الحياة الدنيا ليست دائمة ، كما أن معرفته تعطيه معرفة أعمق بالحياة ذاتها ، إذ يرى انّها قصــيرة ، انها جسر الى الحيــوان الحقيقي في الــدار الآخرة.

ونفس هــذه الحقيقة نجد تــذكيرا بها في كتــاب الله ، الــذي يخسر من أعــرض عنه إذ يفقد البصــيرة في الــدنيا والبصر في الآخرة ، كما تتحول ذنوبه وأخطاؤه الى أثقـال يحملها يوم القيامة ذلك اليــوم الــرهيب ، الــذي تخشع فيه أصوات الخلائق لربها ، ونرى الناس يبحثون عمّن ينقــذهم من عذاب النار ، وليس ثمة شفاعة بدون اذن الله.

فمن أجل أن لا نتورط بحمل هــذه الأثقــال علينا : أن نعود الى التاريخ فنعتبر ، والى القرآن فنتذكر.

بينات من الآيات :

[99] (**كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْـكَ مِنْ أَنْبـاءِ ما قَـدْ سَـبَقَ وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً**)

البشر انما يضل عن سواء السبيل حين يغفل ويخـرج عن تمـام وعيه ، وانما ابتليت الأمم بمختلف النكسـات بسـبب الغفلة ، والنسـيان ، ولكي يعي الإنسـان واقعه ومستقبله لديه وسيلتان :

الأولى : النظر في التاريخ بروية وتفكر ، فالتـاريخ هو ذلك المصـباح الـذي يضـيء للعقلاء درب المسـتقبل ، والتاريخ هو ذلك المعهد التجريبي الذي يتخـرج من أروقته أفضل العلمـاء ، والتـاريخ هو ذلك الناصح الأمين الـذي يوقظ فطرة الخير في ضمير النابهين.

انه الذكر الذي يتجلى في آيـات القـرآن حين تـبين لنا سـنن الله فيما مضى ، وكيف سـعد من سعد من الأمم ، وكيف شقي من شقي منهم ، يقول الإمام أمير المؤمـنين ، وهو يـبين لولـده الحسن المجتـبى (ع) أهمية التجـارب التاريخية :

«أي بني إني وإن لم أكن عمرت عمر من كـان قبلي ، فقد نظرت في أعمالهم ، وفكرت في أخبـارهم ، وسـتر في آثارهم ، حتى عدت كأحدهم ، بل كـأني بما انتهى اليّ من أمورهم ، قد عمّـرت مع أولهم الى آخـرهم ، فعـرفت صفو ذلك من كدره ، ونفعه من ضـرره ، فاستخلصت لك من كل أمر نخيله» [1]

وحين ننظر الى التـاريخ ، علينا أن نعتـبر بـالجوهر ، ومن الخطأ أن نعلق بكل

(1) نهج البلاغة ـ رسالة «31».

لتفاصيل والجزئيات.

الثانية : القرآن ، وسـمي بالـذكر ، لأنه ينبّه المؤمـنين من نومة الغـافلين ، فيوقظ الضـمير ، ويسـتثير العقل ، مـذكّرا الإنسـان بعهـده مع الله ، وما أودع فيه الله من الفطرة.

وكما تتجلى الحقائق وسنة الله عبر أحـداث التـاريخ ، ومسيرة الحياة ، فانها موجودة في كتابه أيضا ، والذي هو بمثابة الخارطة التي تقود الإنسان الى الهدف.

ولتوضـيح مفهـوم الـذكر بصـورة واضـحة يمكننا ان نشـبهه بالخريطة الـتي يحملها الشـخص وهو يريد اجتيـاز حقل من الالغام ، فهو ينظر إليها باستمرار ليحدد المواقع الـتي زرعت فيها العبـوات الناسـفة فيتجنبها ، وبكل حـذر واردة ، ان لا يغفل عنها لحظة واحـدة ، لأن ذلك يعـني : أن يطير أشلاء في الهواء.

والحيـاة الـتي نعيشـها أشـبه ما تكـون بـذلك الحقل الملغـوم ، وإذا أردنا أن نجتازها بسـلام يجب أن يكـون الـذكر نصب أعيننا باسـتمرار ، والإنسـان العـاجز بذاته ، الـذي يعيش علي أرض محفوفة بالإخطـار ، ومليئة بالصـعوبات ، لهو بـأمس الحاجة الى الله القـوي ، مطلق العلم ، والارادة و.. و.. ليمد له يد العـون ، فيـدفع عنه الخطر ، والـذكر هو الوسـيلة الـتي يرتبط بها البشر الضعيف بربه العزيز القادر.

[100 ـ 101] (**مَنْ أَعْرَضَ عَنْـهُ فَإِنَّهُ يَحْمِـلُ يَـوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً* خالِدِينَ فِيـهِ وَسـاءَ لَهُمْ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ حِمْلاً**)

يتنـور قلب الإنسـان بالمعرفة الـتي يكتسـبها عـبر التجربة والتفكير ، وعبر النظر للتاريخ والحيـاة ، وأهم من كل ذلك ، عـبر رسـالات الله (الـذكر) ، بينما تصـنع الغفلة حجبا كثيفة عليه تمنع عنه نـور الحقيقة ، وسـحبا متراكمة من الحسد والحقد والعقد

وحب الـدنيا والتعلق بزينتها ، وهـذه الحجب الـتي تـتراكم فـوق القلب ، وتـدعو الى ارتكـاب المعاصي ، تصـبح هي أوزارا باهضة تثقل كاهل صاحبها في الدنيا وفي الآخرة.

والوزر هو الحمل الثقيل ، الـذي يضـغط على صـاحبه بقوة ، فمن حمل كيسا كبيرا من التراب فوق كاهله ينهـار من شدة الضغط ، كذلك الحاسد والحاقد وعبد الشـهوات ، والسائر في ظلمات الغفلة ، يتعرض قلبه لضغط معنوي هائل لا يكاد يتحمله.

والتعبـير القـرآني عن الغفلة (بـالوزر) أبلغ تعبـير ، أو ليست الغفلة تـأتي نتيجة ضـغط العوامل الماديـة؟ كـذلك الوزر (الحمل الثقيل) هو من الضغط المادي.

ولا يقتصر ضــرر الاعــراض عن ذكر الله على الــدنيا فقط بأن يفقد الإنسان البصــيرة فيها ، بل ويمتد ذلك الى يوم القيامة حيث تتجسد الحقائق ، وحيث يحمل من غفل عن ذكر ربه أثقــــالا باهضة على كتفيه ، كما يفقد البصر وهو يحــاول أن يجتــاز الصــراط فيقع في جهنم ، يتــذوق ألوان العذاب.

والتعبــير القــرآني من الدقة بمكــان إذ يقــول تعــالى (خالدين فيها) والضمير يعود إلى الــوزر ، إذ ذنوبه هنا هي اداة تعذيبه هناك ، حيث يخلد فيها مهانا ، أعوذ بالله.

[102] (**يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ**)

ولا منـاص يومها لأحد الا أن يخـرج من قـبره شـاء أم أبى ، فكما يولد الإنسـان ويمـوت من دون إرادته ، كـذلك يبعث من دون إرادته.

(**وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً**)

أي زرق عيـونهم من شـدة الخـوف ، ولعـلّ أهـوال القيامة تسبب في زرقة أجسادهم أيضا.

[103] (**يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ**)

يتحدثون لبعضهم همسا ، فيقول بعضهم لبعض :

(**إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً**)

إذ يتضح لهم تفاهة وقصر العيش في الـدنيا ، الـتي طالما اعتبروها آخر المطـاف ، وتوهمـوا أنفسـهم بـاقين فيها ، وذلك حين يقيسـونها بـالآخرة دار الخلد ، إن ملايين السـنين لا قيمة لها ، أمـام الخلد ، فكيف والإنسـان لا يعيش في الدنيا الا بضع عشرات من السنين فقط؟!

[104] (**نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً**)

ان علم الله سـبحانه وتعـالى يحيط بكل شـيء وكل زمان ، فهو غـير خاضع لقـانون الـزمن ، كما نحن البشر ، فالماضي والحاضر والمستقبل في علمه سواء ، فهو يعلم الآن ما سيقوله المجرمـون يـوم القيامة الـذي ربما يـأتي بعد ملايين السنين.

ولفظة أمثلهم طريقة ، ترفع شـبهة قد تتولد في الذهن ، بأن المتكلم الأول كـان فاقـدا للعقل عند ما قـدر عمـره في الـدنيا بعشـرة أيـام ، فهـذا (أمثلهم) أعقلهم وأفهمهم يقدر الفترة بيوم واحد لا بعشرة أيام.

ان على الإنسان أن يعلم بأن حياته قصيرة جدا ، وان أمامه حياة أخرى لا حصر لأمدها ، وان سعادته أو شـقاءه فيها مرهون بعمله في الدنيا ، فيسعى جاهـدا من أجل أن يكون سعيدا فيها.

من مشاهد القيامة :

[105] (**وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ**)

الضخمة الراسية.

(**فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً**)

[106] (**فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً**)

أرض خالية من كل أثر من آثار زينة الدنيا وزخارفها.

[107] (**لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً**)

أي تصـير الأرض مسـتوية ، فلا حفـرة فيها ولا نتـوء ، وتـزول منها كل المعـالم الجغرافيـة. تصـوّر لو كنت واقفا على مقربة من جبال الهملايا فاذا بها تنفجر مرة واحــدة ، فكم سيكون المنظر مهيبا ومخيفا؟

والســؤال : لما ذا نجد القــرآن يتحــدث في مواضع كثـيرة من الـذكر ، عن نسف الجبـال ، وتسـجير البحـار ، وانتشار الكواكب و.. و..؟

والجواب يبدو : ان كل ما في الكـون خلق لهـدف هو عبـادة الله ، وخدمة الإنسـان ، فما دام الإنسـان قد انتهى وجوده ودوره في الـدنيا ، فانه ينتهي تبعا لـذلك دور هـذه المخلوقات ، وفي الحديث القدسي يخـاطب الله سـبحانه وتعالى الإنسان قائلا :

«**خلقتك لأجلي وخلقت الأشياء لأجلك**»

ولعل من أساليب القـرآن في التـذكرة ، هو التعـرض لمشاهد القيامة بما فيها من

الإثــارة وشد الانتبــاه ، ليــوقض الضــمير ، خصوصا وان أسلوب العرض القرآني قمة البلاغة.

[108] ويواصل القرآن الحديث عن يوم القيامة :

(**يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُـونَ الـدَّاعِيَ لا عِـوَجَ لَـهُ وَخَشَـعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً**)

من المفارقــات الموجــودة بين الــدنيا والآخــرة ، مفارقتان تذكرهما هذه الآيات :

الأولى : المفارقة الزمنية ، فبينما الــدنيا محــدودة زمنيا ، نجد الآخرة أبدية.

الثانية : وتــذكرها هــذه الآية ، وهي ان الـدنيا حيـاة الارادة البشرية ، بينما الآخرة (يوم القيامة) يجرد الإنسان من إرادته ، وبالذات المجرم ، ويخضع لله جبريا.

فهذا البشر الذي كان يتمرد على رسل الله ورسـالاته ، نجده ـ هنالك ـ خانعا خاضعا لـداعي الله ، وصـوته الـذي طالما رفعه يحــارب به الله ، وعبــاده ، ورســالاته ، هــذا الصوت تجده خاشـعا لله تعـالى ، الـذي ينتظر منه الجميع كلمة العفو والغفــران ، ويتبعــون داعيه دون أي تلكأ وبلا عــوج ، ذلك الــداعي الــذي يــدعوهم الى صــراط الله المستقيم لا عوج له.

[109] (**يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَـعُ الشَّـفاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَـهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً**)

كل العلاقات لا تنفعه يوم القيامة ، ولا تبقى الا علاقة واحدة ، وهي علاقة المؤمنين وشفاعتهم وشفاعة الرسل والصـديقين والشـهداء والصـالحين لمن اتبعهم في الـدنيا وأطاعهم ، فالعلاقة الرسالية اذن هي الباقية يـوم القيامة ، وليس هنـاك انصـاف آلهة يفرضـون إرادتهم على الله ، كما يدعي البعض أو يتصورون ، وهذه الوساطات

والوجاهــــات الــــتي يتوسل بها الإنســــان قد تنفعه عند السـلطان ، أما عند الله فلا ، الا لمن يعطيه الله صـلاحية الشـفاعة ، ونتسـائل : ما هي إذا فائـدة الشـفاعة ومن ذا الذي تعطى له صلاحيتها؟

أولا : ان الشفاعة هناك نتيجة العلاقـات الايمانية هنا ، وبالــذات العلاقة بين المؤمــنين وقيــادتهم الشــرعية من رســـــول ووصي رســـــول ، ومن أمر الله بطاعته وحبّه ، وكلما ازداد حبك في الله للأنبيــــــاء والأئمة وخلفـــــــائهم وطاعتك لهم ، كلما ازدادت فرص نجاتك من النـار ، لأنهم وحدهم الشفعاء عند الله.

ثانيا : قد يلقي الشـيطان في قلب المــذنبين اليـأس من روح الله ، فيفتح الله لهم بابا واسـعا الى رحمته عـبر الشفاعة ويهديهم الى صراط التوبة ، وهو العودة الى الله ، ومن أمر الله بطاعته ، من الرســــــــــول وأولى الأمر الشرعيين من بعده.

وسؤال آخر : لما ذا التأكيد على أن لا شفاعة الا لمن ارتضى الرب؟

والجـــواب : ان فكـــرة المســـؤولية هي أثقل ما في الميزان من فكر ، وان البشر يسعى جهده للتخلص منها ، والاسـتراحة الى ظل التـبريرات ، والشـفاعة أبرزها ، إن الإنسان يخدع نفسه كلما ذكّـره الله بـالجزاء ، ويتمـنى لو ان شخصا يشفع له ، فيؤكد الله سبحانه : كلا ، لا شـفاعة عند الله الا ممن يرتضـيه الله سـبحانه ، هكـذا لكي تبقى النفس عارية أمـام حقيقة المسـؤولية ، ويتقبلها طوعا أو كرها.

[110] (**يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ**)

فسلوك الإنسان وخلفياته هي التي تـؤثر في مصـيره غدا ، وكل ذلك يعلمه الله.

(**وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً**)

وهكذا يقفون امام سلطان الرب القاهر ، عـاجزين لا يحيطـــون به علما ، فلا يمكنهم التغلب عليه ، أو مقاومة مكره ، إذا ليس امامهم الا التسليم له والهروب من عدله الى عفوه ، ومن غضبه الى رحمته ورضوانه.

وَعَنَتِ الْوُجُـوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَـدْ خـابَ مَنْ حَمَـلَ ظُلْماً (111) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّـالِحاتِ وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَلا يَخـافُ ظُلْمـاً وَلا هَضْـماً (112) وَكَـذلِكَ أَنْزَلْنـاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (113) فَتَعالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَـقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْـكَ وَحْيُـهُ وَقُـلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (114) وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْـلُ فَنَسِـيَ وَلَمْ نَجِـدْ لَـهُ عَزْمـاً (115) وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَـةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى (116) فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما

---

111 (**وَعَنَتِ الْوُجُـوهُ**) : العنـوة الخضـوع والـذّل ، والعـاني الأسـير وأخذت الشيء عنوة أي غلبة تذل المأخوذ منه ، وقد تكـون العنـوة عن طاعة وتسليم لأنّه على طاعة الذليل للعزيز.

مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْـقى (117) إِنَّ لَـكَ أَلاَّ تَجُـوعَ فِيها وَلا تَعْرى (118) وَأَنَّكَ لا تَظْمَـؤُا فِيها وَلا تَضْـحى (119) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّـيْطانُ قـالَ يا آدَمُ هَـلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى (120) فَـأَكَلا مِنْها فَبَـدَتْ لَهُما سَــوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِــفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَــوى (121) ثُمَّ اجْتَبــاهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى (122)

---

121 [وطفقا يخصفان] : أي شـرع آدم وحـوّاء يلصـقان على أنفسـهما من الورق حتى لا يتعرّيا.

المسؤوليّة ... بين التذكّر والنسيان

هدى من الآيات :

الإنسان خاضع بكيانه الطـبيعي لله سـبحانه ، ويتجسد خضـوعه الكامل يـوم القيامة ، أما في الـدنيا فقد أعطـاه الله فرصة لتجربة إرادته ، فهو يســـتطيع بها أن يســـمو ليصـير أفضل من المخلوقـات ، الـتي تخضع لله خضـوعا قهريا تكوينيا.

وهـذه المسـؤولية بحاجة الى التـذكير بها ، وإن كـان الإنســان بطبعه وفطرته يشـعر بالمسـؤولية ، ولكنه ربما أنسـته إيّاها ضـغوط الحيـاة ، ووسـاوس الشـيطان فيها ، ومشاكلها ، فهو بحاجة الى تذكير مستمر ليقاوم كل ذلك.

وهكذا جاء القرآن الحكيم تذكيرا للإنسان بمسـؤوليته ، وثمة عامل آخر يجعل الإنســان ذاكـــرا لا ينسى ، وهو العزم والارادة ، وفي هذه الآيـات يـذكرنا الله تعـالى بـأن آدم لم يكن من أولي العـــــزم حيث نسي عهد الله اليه وأخـــرج ، ولم يخـــرج آدم من الجنة ، الـــتي وفر الله له ولزوجه فيها الطعـام واللبـاس والشـراب والسـكن ، الا بسبب

إثارة الشيطان لغريزتي حب الخلود وحب السـلطة ، فلما اتبع إبليس ، تجرد من لبـاس الجنة (حيث جـرّد نفسه من لباس التقوى) وأضحى عاصـيا وقد غـوى ، الا ان الله فتح أمامه باب التوبة فاجتباه وهداه.

وفي نهاية الـدرس بشـارة بـأن وراء هبـوط الإنسـان الى الأرض بالذنب ، التوبة التي هي معراجه الى الجنة.

بينات من الآيات :

[111] (**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ**)

عنت أي خضــعت خضــوعا ذليلا ، أما الوجــوه فهي المظهر البـارز من الإنسـان ، وحينما تقـول تـوجهت أي جعلت كل أبعـاد حيـاتي في هـذا الطريق ، فعنت الوجـوه بمعنى خضعت أبعاد حياة الإنسان للحي القيوم ، بلى هـذا الوجه الضـعيف الفــاني ، حق له أن يخضع لــذلك الوجه الحي القيوم ..

هكذا نقرأ في الدعاء :

(سـجد وجهي الـذليل لوجهك العزيز الجليل ، سـجد وجهي البالي الفاني لوجهك الـدائم البـاقي ، سـجد وجهي الفقير لوجهك الغني الكبير ، سجد وجهي وسمعي ولحمي ودمي وجلـــدي وعظمي وما أقلت الأرض مـــني لله رب العالمين) [1]

ولعـلّ اسـمي الحي والقيـوم يجمعـان أسـماء الله الحسنى.

(**وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً**)

(1) مفاتيح الجنان ـ ص 227 ـ من دعاء الجوشن الكبير.

الخيبة هي الفشل ، والـــذي يخيب هو الـــذي لا يصل الى هدفه ، والظلم حمل ثقيل على كاهل الإنسـان يتجلى في صور سلبية شتى في الـدنيا ، كعـدم التوفيق والفشل و.. و.. ، أما في الآخرة فيتجلى في صورة العذاب المهين ، وهذا خلاف ما ينتظره الإنسان من وراء ظلمه ، أو ليس كان يأمل الظالم أن يحقق لنفسه وأهله السـعادة والفلاح ، الآن تراه يفشل ويخيب أمله ، ويحمل أوزار الظلم.

[112] في مقابل الظلم يوجد العمل الصـــالح ، وهو حالة بنـاء ، سـواء للنفس أو المجتمع ، فبـدل أن تسـجّر لنفسك تنورا في جهنم بالظلم ، شيّد لك قصـرا في الجنة بالعمل الصـالح ، وبـدل أن تهـدم علاقاتك بـالمجتمع عـبر الظلم ، وسعها ومتنها بالإحسان والعمل الصـالح ، والـذي يعمل الصالحات لا يخاف الهضم ولا الظلم.

ثم أن عمل الصــــالحات في الخط الفاسد ليس من الصالحات في شيء ، لذلك يؤكد القرآن :

(**وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ**)

فحـــتى تثمر الصـــالحات يجب أن تكـــون في خط الايمان.

(**فَلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً**)

لا يمكن في يوم القيامة أن تـرى صـحيفة عملك وقد ذهبت بيد غـيرك ، كما لا يمكن أن يضـيع الله عملا صـالحا مهما يكن صغيرا ، فلو أنك قمت في أحد الليالي لحظـات وسـبحت الله ثم نمت فهي سـتبقى مكتوبة في صـحيفتك يـــوم القيامة ، والفـــرق بين الظلم والهضم ، أن الظلم ذهاب كل العمل ، والهضم نقصان بعض الأجر.

[113] (**وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا**)

عربيا : بليغا يفهمه كل الناس ، ويوضح كل الحقائق ، واللغة العربية تمتاز ببلاغة نافذة ـ باعتراف علمـاء اللغة ـ لا نجدها أبدا في غيرها.

(**وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ**)

أي ثبتنا فيه الوعيد ، بأســـــاليب مختلفة ومع أمثلة حقيقية.

(**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**)

لكي تترسخ فيهم روح التقــوى ، والــذي تترسخ فيه هــذه الــروح لا يظلم ولا يغفل ولا يــذنب ، لأنه مســلح بالتقوى والحذر نتيجة الوعيد.

(**أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً**)

هدف القرآن هو زرع التقوى في نفس الإنسان ، وإذا كــان قلب الإنســان لا يتقبل التقــوى ، فلا أقل ليتــذكر بالقرآن ، والتذكر حسبما جاء في الأحـاديث هو تـذكر الله عند ممارسة الخطيئة ، من هنا يمكن القـول بـأن التقـوى نوع من العصمة أما التذكر فيشبه الكابح.

[114] (**فَتَعالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُ**)

تعـالى عن التشـبيه والتصـوير والتصـور ، فهو الملك المالك لكل شـــيء والمهيمن عليه ، وهو الحق وما دونه الباطل ، فنحن ملكه يهدينا الى القرآن.

ولكي نصل الى علم القـــرآن لا بد من التســـليم والاستزادة من الوحي دون العجلة.

(**وَلا تَعْجَـلْ بِـالْقُرْآنِ مِنْ قَبْـلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْـكَ وَحْيُهُ**)

في تفسـير علي بن إبـراهيم ، في سـبب نـزول هـذه الآية ، قال : كـان رسـول الله (ص) إذا نـزل عليه القـرآن بادر بقراءته قبل تمام نزوله ، فأنزل الله :

(**وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ**)

ولعل زيـادة حب النـبي وشـوقه الى وحي ربه ، كـان يدفعه الى ذلك ، فنهـاه الـرب عنه ، ومهما كـان السـبب فان ذات العجلة غير حميدة :

1 / إذ المطلوب من المـؤمن التسـليم المطلق امـام الرب ، ليزيد الله علمه ، ومع الاستعجال بالوحي حتى ولو كـان من منطلق الشـوق ـ يفقد كمـال التسـليم له ، وبالتالي لا يزداد علما.

2 / والمهم قراءة القرآن بتأن وتدبر لاستيعاب معانيه ، لأن هـذا الطريق فقط هو الـذي يجعلنا نفهم القـرآن ، وخطأ أن نقرأ القرآن بهـدف القـراءة لأنها ليست مطلوبة بذاتها ، إذا عريت عن الفهم والتدبر ، الذي يحقق التقـوى أو الذكرى.

(**وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً**)

وان من آداب تلقي الذكر ـ بعد التسليم ـ الشوق الى زيـادة العلم ، فمن اغـتر بما يملك من العلم لم يـؤت الزيادة.

ولذلك نجد كيف يأمر الرب رسوله بطلب الزيادة في العلم ـ وجاء في الحديث الشـريف عن أئمّة أهل الـبيت : لو لا اننا نزداد لأنفدنا. [1]

وفي الحـديث المـأثور عن عائشة عن الرسـول (ص) انه قال :

(1) تفسير نور الثقلين ج 3 / ص 397.

«إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علما يقربني الى الله ، فلا بارك الله لي في طلوع شمسه» [1]

[115] (**وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ**)

لقد حـدد الله سـبحانه الهـدف من القـرآن (التقـوى والتذكر) ، وكمثال على هذين الهدفين يذكر الله قصة آدم (ع) عند ما نهـاه عن الشـجرة وحـذره من الشـيطان أن يخرجه من الجنة ، فلا هو اتقى الشيطان ولا هو تذكر نهي الله له.

ومن كلمة «نسـي» نسـتنتج ان عصـيان آدم لم يكن متعمدا ، ويدل على ذلك عجز الآية (**وَلَمْ نَجِدْ لَـهُ عَزْمـاً**) اي عزما على ترك المعصية ، كما ان النسيان ضد التـذكر ، وعهدنا بمعنى أمرنا ، فهو لم يتحد ذلك الأمر انما نسيه.

(**وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً**)

وهناك تفسيران لهذه الآية :

الأول : ان آدم (ع) نسي العهد الالهي ولكن لم نجد له عزما على الخطيئة أي تعمدا.

الثـاني : لم يكن آدم من أولي العـزم وأولو العـزم خمسة هم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد (ص) ، وهـذا التفسـير تأكيد للقـول بـأن الارادة «العـزم» تمنع الغفلة والنسيان.

[116] (**وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَـجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى**)

---

(1) المصدر ص 298.

ان سجود الملائكة الموكلة بالطبيعة للإنسان يعني ان الله ســـخرها للبشر ، بلى يبقى إبليس موكل بـــالنفس الأمـارة الـتي لن تسـجد لله الا ان يجبرها الإنسـان على ذلك.

[117] (**فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى**)

بيّن الله لآدم وزوجه ، أن إبليس عـدو لهما ، يسـعى لاخراجهما من الجنة ، ونستفيد من هذه الآية عدة أفكار :

1 ـ ان الإنسـان بحاجة الى ان يعـرف عـدوه إبليس ويتذكر ذلك أبدا.

2 ـ ان عـــداوة إبليس للمـــرأة كعداوته للرجل ، وبالتالي على المـرأة أن تكـون على أشد الحـذر كما على الرجل سواء بسواء.

3 ـ ان هدف الشيطان هو إضـلال البشر وجـرهم الى الشـقاء المـادي والمعنـوي ، ووسـيلته في ذلك التغرير والمكر والخداع!

[118 ـ 119] (**إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُـوعَ فِيها وَلا تَعْـرى * وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَلا تَضْحى**)

هذه أربع من النعم المادية التي أودعها الله في الجنة وهي (نعمة الأكل واللباس والشراب ، والمسكن).

[120] ولكن هل يترك الشيطان الإنسان لسـبيله؟ .. كلّا.

(**فَوَسْوَسَ إِلَيْـهِ الشَّـيْطانُ قـالَ يا آدَمُ هَـلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى**)

نستوحي من هذه الآية الكريمة أفكـارا عديـدة تعـالج قضـــايا هامة ، لا زال بعضـــها موضع بحث ودراسة عند المفسرين :

1 ـ ان الشيطان يوسوس للإنسان ، فيسـتثير طبائعه الدفينة ، ويدغــدغ تمنياته المكبوتة ، ويحــرك تلك الغرائز الخامدة ، وهو يفعل كل ذلك بهدف التشويش على بصره ، والتمويه عليه ، وزرع الشـــبهات في قلبه ، وإلقـــاء التبريرات والتسولات في نفسه.

وهكذا لا يكفي الحـذر من إغـواء الشـيطان المباشر ، بل علينا أن نعــرف أنه يشــوش علينا ، ويشــبه الأمــور ويخلط الحق بالباطل ، ويمكر ويكيد ، ويغر ويخـــدع ، إن علينا أن نكون في قمة الحذر ، والا وقعنا في شركه.

2 ـ وآدم أول من وقع في مصــيدة إبليس ، فهو لم يعزم عصيان ربه ، بل أنساه الشيطان أمر الرب ، وخدعه حيث حلف له بالله كذبا أن الله لم ينهه عن تلك الشجرة.

ولم يكن آدم يعلم أن من الممكن أن يحلف أحد بربه كاذبا ، ثم شبه عليه بأن المنهي عنه انما هو شـجرة معينة من الحنطة ، وليس كل أشــجار الحنطة ، وهنا اســتفاد إبليس من نقطة ضــعيفة عند البشر حيث يتهــرب من المسـؤولية بـأدنى تـبرير ، وكـانت أداة وسوسـته اثـارة مشـاعر حب الخلـود والملك عند البشر ، جـاء في حـديث شــريف عن جميل بن درّاج عن أحد الصــادقين عليهما السـلام : «سـألته : كيف أخذ الله آدم بالنسـيان؟ فقـال : انه لم ينس ، وكيف ينسى وهو يـذكره ويقـول له إبليس : (**ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هــذِهِ الشَّــجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ**)» [1].

---
(1) المصدر ص 402.

3 ـ غريزتا الملك وحب الخلود غريزتان متأصلتان في أعماق الإنسـان ، فبالرغم من أن الله أسـكن آدم وحـواء الجنة ـ وهي دار الخلـود ــ الا انهما لا زالا ينتابهما الشـعور بالنهاية ، وقد أثـار الشـيطان فيهما هـاتين الغريـزتين ، وهكذا انخدع آدم بإبليس الذي زين له الأكل من الشـجرة المحرمة ، وكـانت النتيجة أنه طـرد من الجنة وأهبط الى الأرض.

وانما خـدع آدم حين أثـار إبليس فيه غريـزتي (حب الملك وحب الخلـود) ، ومن المعلـوم انه لم يكن الهـدف من خلق هـاتين الغريـزتين في النفس ان يسـتخدمهما الشيطان في اغوائه الإنسان ، انما أعطاه الله حب الملك والسـيطرة ، لكي يسـتعمر الأرض ويتحمل الصـعاب والمشـاق في سـبيل ذلك ، وأعطـاه حب الخلـود لكي يحافظ على نفسه من جهة ، ولكي يعرف انه خلق للبقـاء ولكن ليس في هـذه الـدنيا ، بل في الآخـرة ، وانه لو لم يخلد في الدنيا ، فان هناك دارا أخرى سيخلد فيها.

ولكن إبليس كعادته يحـرف غرائز الإنسـان ، الـتي لو اسـتفاد منها اسـتفادة سـليمة ، إذا لكـانت وقـوده في الطريق الصاعد ، أما لو استخدمها بصـورة غـير سـليمة ، فانها ستكون سببا لهبوطه وترديه.

والشيطان حينما يوسوس للبشر فهو قد لا يتراءى له ، ولكنه يأتيه في صورة خواطر وأوهام.

(**فَـأَكَلا مِنْها فَبَـدَتْ لَهُما سَـوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ**)

كانت نتيجة اقترافهما السـيئة أن بـدت لهما سـوآتهما بعد أن البسهما الله الرياش.

(**وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى**)

عصى باقترافه الخطيئة ، أو تركه الهدى ، وغـوى عن رحمة ربه الى دار الشقاء إذ من معاني الغواية الضياع.

[122] (**ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى**)

وفي هــذه الآية اشــارة الى ان بيد الإنســان نفسه ســعادته أو شــقائه ، وانه لو وقع في فخــاخ الشــيطان وانحـرف عن الجـادة ، فـان امامه فرصة التوبة الـتي هي معراجه الى الفضيلة.

وهنــاك حــديث مــأثور عن الامــام الرضا (ع) يوضح الكثير من الشبهات في الآية ، والحديث كالتالي :

يقول علي بن محمد بن الجهم قال : حضرت مجلس المــأمون وعنــده الرضا (ع) فقــال له المــأمون : يا بن رسول الله أليس من قولك ان الأنبياء معصومون؟ قـال : بلى ، قـال فما معـنى قـول الله عز وجل : «**وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَــوى**»؟ قــال (ع) : ان الله تعــالى قــال لآدم : (**اسْــكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُــكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَــداً حَيْثُ شِــئْتُما وَلا تَقْرَبا هــذِهِ الشَّــجَرَةَ**) ، وأشــار لهما الى شـــجرة الحنطة «**فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ**» ولم يقل : ولا تـأكلا من هـذه الشـجرة ، ولا مما كـان من جنسـها ، فلم يقربا من تلك الشـــــــجرة ، وانما أكلا من غيرها لما أن وسوس الشيطان إليهما ، وقال : «**ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هــذِهِ الشَّــجَرَةِ**» وانما نهاكما ان تقربا غيرها ولم ينهكما عن الأكل منها «**إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِـدِينَ**» «**وَقاسَـمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِـحِينَ**» ولم يكن آدم وحـوا شـاهدا قبل ذلك من يحلف بالله كاذبا «**فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ**» فأكلا منهـا» ثقة بيمينه بالله وكـان ذلك من آدم قبل النبوة ، ولم يكن بذنب كبير استحق به دخول النار ، وانما كـان من الصـغائر الموهوبة الـتي تجـوز على الأنبياء

قبل نزول الوحي عليهم ، فلما اجتباه الله تعالى ، وجعله نبيا معصوما لا يذنب صغيرة ، ولا كبيرة ، قال الله تعالى : (**وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى * ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى**) وقال عز وجل : (**إِنَّ اللهَ اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ**) [1].

وكلمة أخيرة :

ان الشيطان يقدر على إغواء البشر ما دام الإنسان مغرورا بنفسه ، غير مستعيذ بربه من شر إبليس وخدعه واحابيله ..

وهكذا وقع آدم في شرك إبليس حيث اعتمد على نفسه ، فعلينا أن نعرف مدى خطورة الشيطان فنستعيذ أبدا منه بالله سبحانه.

ونكرر : أعوذ بالله القوي من الشيطان الغوي.

جاء في حديث شريف عن الكافي عن أبي جعفر (عليه السلام) :

«**فقال لهما لا تقرباها يعني لا تأكلا منها فقال آدم وزوجته : نعم يا ربنا لا نقربها ولا نأكل منها ، ولم يستثنيا في قولهما ، نعم (لم يقولا الا ان يشاء الله) فوكلهما الله في ذلك الى أنفسهما والى ذكرهما**» [2].

---

(1) المصدر ص 403.

(2) المصدر ص 402.

قـالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعـاً بَعْضُـكُمْ لِبَعْضٍ عَـدُوٌّ فَإِمَّا يَـأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُـدىً فَمَنِ اتَّبَـعَ هُـدايَ فَلا يَضِـلُّ وَلا يَشْقى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُـرُهُ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ أَعْمى (124) قـالَ رَبِّ لِمَ حَشَـرْتَنِي أَعْمى وَقَـدْ كُنْتُ بَصِـيراً (125) قـالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى (126) وَكَـذلِكَ نَجْـزِي مَنْ أَسْـرَفَ وَلَمْ يُـؤْمِنْ بِآيـاتِ رَبِّهِ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى (127) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسـاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (128) وَلَوْ لا كَلِمَةٌ

---

124 [ضنكا] : ضيّقة.

128 [أفلم يهد لهم] : أفلم يبيّن لهم ، وألم يرشـدهم : وهـذا اسـتفهام استنكاري.

سَـبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكـانَ لِزامـاً وَأَجَـلٌ مُسَـمًّى (129) فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُـوعِ الشَّـمْسِ وَقَبْـلَ غُرُوبِها وَمِنْ آنـاءِ اللَّيْـلِ فَسَـبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى (130)

---

130 [مــتربّص] : منتظر لــيرى المصــير ، وينتظر لمن الغلب ، وأيّنا يعذّب وأيّنا ينعّم؟.

هدى الله معراج الفضيلة

هدى من الآيات :

الإنسان مـزيج من حفنة من تـراب وومضة من نـور ، والأولى هي التي تحتوي على جـوانب ضـعيفة ، أما الثانية فتستر سوءات التراب ، فارادة الإنسـان تسـتر شـهواته ، وعقله يسـتر جهله ، وتقـواه تسـتر غرائـزه ، ولو لا هـذا الجانب الخيّر في حياته لكان أضـعف وأعجز من كثـير من الأحياء.

نعم إن لباس التقـوى هو أفضل ما يسـتر به الإنسـان عجـزه وجهله وغـروره ، ولو لا هـذا اللبـاس لما تـدافن الناس ، ولو تعرى كلّ إنسـان للثـاني ، لظهر أشد سـبعية من الـذئب ، وأخبث حيلة من الثعلب ، وألـدغ من الحية ، والـذي يـنزع عن نفسه هـذا اللبـاس فـان أمامه طريقا عريضا ، ليعود الى الله ، مرة أخرى عبر التوبة.

والإنســان إنّما يضــعف ويــذنب ، حينما ينشــدّ الى التراب ، بينما يسـمو حينما يميل الى جـانب النـور ، وإنّما هبط آدم عند ما تأثر بترابيته لا بروح الله التي نفخها فيه.

ولما خـــــدع الشــــيطان آدم أنزله الله الى الأرض ليخوض صراعا عنيفا بين الحقّ والهوى ، بين من يتبع هـذا ومن يتبع ذاك ، وهــــذا ما يجعل الإنســــان محتاجا الى رسـالات الله لتهديه الى سـبيل الرشـاد والسـعادة ، فمن اتبع هدى الله فلا يضل عن الطريق ، ولا يصـيبه الشـقاء ، أما من اتبع هــــواه وأعــــرض عن ذكر الله ، فانه يخضع لضـغوط الشـهوات ، ويعيش في زنزانة الجهل والجهالة ، ويصــاب بمعيشة ضـنك ، أما يــوم القيامة فيبعث أعمى ، وحين يتســاءل عن ذلك يأتيه الجــواب : أو لم تنس آيــات الله؟ بلى فأنت اليوم تنسى.

إن المسرفين الـذين يكفـرون بآيـات الله لهم عـذاب شديد ، في الدنيا ــ كما أهلك الله القـرون الغـابرة وأشـدّ منه وأبقى في الآخرة.

إنّ الله سبحانه وتعـالى يهمل الكفـار لأجل مسـمّى ، ولو لا ذلك لأخذهم بكفرهم.

بينات من الآيات :

[123] (**قـالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعـاً بَعْضُـكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**)

لقد هبط آدم وزوجته فقط ، وقد أكّد القــــرآن ذلك حين جـــاء الحــديث بلفظ التثنية (**اهْبِطا**) ، ولكنه بعدئذ يقـول : (**جَمِيعـاً**) فلعلّه يضم إبليس معهما ، ثمّ يقـول : (**بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**) بصيغة الجمع ، لما ذا؟

لأنّ آدم لم يختلف مع زوجته في الأرض أبــــدا ، بل ظــلّ على وئــام معها ، حــتى صــارت لهما ذرية فانقسم هؤلاء ، فمنهم من اعتنق مبادئ الخــير ، ومنهم من اعتنق مبادئ الشرّ ، فنشب الصراع بين الطرفين.

(**فَإِمَّا يَـأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُـدىً فَمَنِ اتَّبَـعَ هُـدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى**)

الضلالة هي الانحـراف والشـقاء نتيجتها ، ولكن الـذي يتبع هدى ربه لا يضل ولا يشـقى ، لأنه يسـير في الطريق الصـحيح الـذي يوصـله الى أهدافه ، ولعـلّ الضـلالة تعـني الجـانب المعنـوي ، بينما الشـقاء يعـني الجـانب المـادي ليتقابل مع قوله سـبحانه في الآية التالية ، (**فَـإِنَّ لَـهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً**) يعني من لم يتبع هدى الله.

[124] (**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي**)

من يعرض عن ذكر الله ، وعن الحقّ ، وأبـرز قضـاياه هو تـولي القيـادة الشـرعية ، فانه لا يعـرف كيف يسـتفيد من الحياة لذلك يشقى فيها.

(**فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً**)

أي معيشة ضـعيفة تضـغط عليه وتجلب له التعاسة ، بـرغم مظـاهر الـثروة الـتي قد يكـون متلبسا بها ويغبطه النـاس عليها ، والواقع : إن ضـنك العيش يتمثل في واحد من بعدين :

1 / فقد يكـون بسـبب نقص الوسـائل المادية الـتي توفرها المنـاهج الالهية ، والـتي لن توجد من دونها إلّا مؤقتة ومشوبة بالمشاكل الأعظم منها.

2 / وقد تضـيق النفس بالحيـاة وتصـبح حرجة قلقة ، غير مطمئنة ولا راضية حتى ولو توفرت الوسائل المادية ، إذ النفسـية المعقـدة الـتي تـتراكم عليها الصـفات الرذيلة كالحسد والحقد والكبر والغرور يعيش صـاحبها في زنزانة ضيقة ولو كان جسمه في روضة فيحاء.

وفي السياق إشارة الى بعض جوانب السعة والضـيق في القلب.

(**وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى**)

ولماذا يعمى الإنسان في الآخرة؟ لأنه قد ترك الانتفاع بالبصيرة في الدنيا ، ذلك لأنّ العمى في القرآن منه ما هو عمى البصر ومنه ما هو عمى البصيرة ، كما قال الراغب في قوله سبحانه : (**وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً**) فالأوّل عمى البصيرة والثاني عمى البصر ، ولعلّنا نستطيع أن نعبر عن عمى البصيرة بعدم الوعي ، والذي يعمى عن النور لا بدّ أن يعمى عما يضيئه ذلك النور من الحقائق ، فهدى الله نور جاء ليضيء الحقائق ، ويبين السنن الحاكمة في الحياة ، وبديهي إنّ من يعرض ببصره وبصيرته عن رؤية ذلك الهدى ، سيعمى عن حقائق الحياة وسننها ، وسيصعب عليه تمييز الخير عن الشر ، وسيتجسد في الآخرة في عمى ظاهر هو عمى العين ، لذلك يقول تعالى

[125] (**قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً**)

يبدو من الآية إنّ الرجل لم يكن من الكفار ، إنّما ممن نسي آيات الله بعد أن جاءته ، ولذلك احتار في سبب عماه وتساءل : (**رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى**) وأضاف : (**وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً**) ولو كان كافرا إذا لم ينسب نفسه الى البصر ، وربنا حين أجابه ، ذكّره بأنه نسي آيات الله ، ولم يقل أنه لم يؤمن بها ، هكذا جاءت النصوص تفسر الآية بمن ترك الولاية الالهية أو الحج المفروض ، فقد روى أبو بصير قال : سمعت أبا عبد الله يقول : «من مات وهو صحيح موسر لم يحج ، فهو ممن قال الله عزّ وجل : (**وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى**) قال قلت : سبحان الله ، أعمى! قال نعم أعماه الله عن طريق الحقّ» [1]

وحينما يسأل الضّال ربه عن سبب عماه يأتيه الجواب :

(1) نور الثقلين ج 3 ص 406

[126] (**قالَ كَذلِكَ أَتَتْـكَ آياتُنا فَنَسِـيتَها وَكَـذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى**)

أي أهملتها كما ينسى شـيئا ، وكـذلك تهمل في النـار كمن نسي شيئا ، ويبدو من هذه الآية أن مشكلة الإنسـان هي إهماله لتعاليم الرسالات الالهية ، بسـبب عـدم الجدية (العـزم) فيها ، وعلاج هـذه الآفة بـذكر الله تعـالى ، عـبر الصلوات الخمس والعمل الصالح ، فالصلاة تذكر المـؤمن بربه باسـتمرار ، وبالتـالي تـذكره بـأوامره ونواهيه الـتي بلغها الرسل ، ومن خلال ذلك يعـــرف الحيـــاة وســـبل تسخيرها ، فيفوز في الدنيا والآخرة.

[127] ما الـذي يجعل الإنسـان لا يـؤمن بآيـات الله ، إيمانا عمليا ينعكس في واقع حياته ، ويلتزم بأحكام الـدين بجد وعــزم؟ الجــواب : إنّها نزعة الإســراف الكامنة في نفسه ، والتي تدعوه الى الاسـتزادة من متع الـدنيا الزائلة ، حيث إنّ التمسك بالـــدين يتطلب شـــيئا من الصـــبر والتحمل والتضحية ، ولعلّه لذلك يقول الربّ سبحانه :

(**وَكَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ**)

والإنسـان الـذي يحـاول الهـرب من صـعوبات الحيـاة بالالتفات على آيات الله ، فانه سـيواجه في الآخـرة نفس الصعوبات والمشاق ، وقد اكتسبت صفتين خطـيرتين هما الشـــدة أولا ، والامتـــداد الزمـــاني الـــذي يصل الى درجة الخلود ثانيا.

(**وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى**)

[128] (**أَفَلَمْ يَهْـــدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُـرُونِ يَمْشُـونَ فِي مَسـاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيـاتٍ لِأُولِي النُّهى**)

الذي لا يتعظ إمّا لا يشعر بالخطر فيأمن من مكر الله ، أو لأنّ قلبه قاس لا يستطيع أن يسـتوعب به العـبر ، ولا يستفيد من العبر إلّا اولي النهى (أصحاب

العقول).

[129] (**وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى**)

كلمة الله سبقت بتأخير العذاب ، وإلّا لكان لزاما أن يصبّ الله عليهم عذابه ، إنّ من رحمة الله بالإنسان أن ترك له فرصة كي يهتدي ولم يعاجله بالعقوبة.

[130] بما ذا نتقي النسيان؟ نتقي النسيان بأمرين :

الأول : الصبر.

(**فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ**)

عدم التأثر بكلام الكفار وأفكارهم السلبية ، وعدم مجاراتهم في كلامهم.

الثاني : ذكر الله بالتسبيح دائما.

(**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ**)

صلاة الصبح.

(**وَقَبْلَ غُرُوبِها**)

صلاة العصر.

(**وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ**)

صلاتي المغرب والعشاء.

(**وَأَطْرافَ النَّهارِ**)

أي وسط النهار وهي صلاة الظهر.

(**لَعَلَّكَ تَرْضى**)

وهــذه الكلمة تقابل (**فَـإِنَّ لَـهُ مَعِيشَـةً ضَـنْكاً**) ، فالمعيشة الضنك هي معيشة الإنسـان الـتي تحبس نفسه بسـببها في زنزانة السـخط على الحيـاة ، أما المعيشة الرحبة فهي معيشة الإنسان الراضي بقضاء الله تعالى.

وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْـرَةَ الْحَياةِ الـدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيـهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْـرٌ وَأَبْقى (131) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّـلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْـئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى (132) وَقالُوا لَوْ لا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّـحُفِ الْأُولى (133) وَلَـوْ أَنَّا أَهْلَكْنـاهُمْ بِعَـذابٍ مِنْ قَبْلِـهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى (134) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدى (135))

سلبيات النفس البشرية

هدى من الآيات :

تحدثنا سورة طه عن الإنسان وتقص علينا أنباء أربعة نمــاذج بشــرية هم : موسى وهــارون ، وهما أعلى قمة بشــرية ، ثم السـحرة الـذين اهتـدوا بعد الضـلالة ، ثم فرعـون في الحضـيض ، وأخـيرا : جنـود فرعـون الـذين استخفهم فأطاعوه وأضلهم وما هدى.

وفي الـدرس الأخـير تلخص السـورة عبرها ، وتـبين : ســلبيات النفس البشــرية ، بعد أن أشــار الى عوامل الانحـــراف فيها ، ذلك ان معرفة الإنســـان بنفسه ، وبالعوامل المـؤثرة فيها ، تسـاعده على الاختيـار السـليم وحيث : ان القــرآن يبصــرنا في هــذه الســورة بحقيقة وساوس الشـيطان ، وكيف ان النسـيان (وعـدم العـزم) ، والغفلة عن مكر الشيطان ، وإهمـال ذكر الله ، كل أولئك يهبط البشر من جنته الى أرض الصراع.

بلى ان هناك مجالا للإنسان أن يسمو ويسبق الآخرين ، ولكن ينبغي أن يكون

تسـابقه معهم شـريفا يتجه نحو البنـاء ، والا يكـون على حطام الدنيا والا يتحول الى صراع هدام.

ولكي نبتعد عن الضـلالة ، ولا نتـأثر بعامل الحسد ، فيصـير التنـافس صـراعا ، علينا أن نـذكر الله تعـالى وان نقيم الصلاة ، ونأمر بها أهلنا ، لأنهم قد يؤثّرون علينا سلبا لو لم يكونـوا مؤمـنين ، فالصـلاة معـراج المـؤمن ، ومن يعرج الى الله ، لا يتأثر بضـغوط الهـوى ، ولا بزينة الحيـاة الدنيا.

ثم يشير القرآن الى سبب من أسباب الضـلالة ، وهو عدم القناعة بقضاء الله ، ولا ريب ان الذين يحملون هـذه الـروح لن يقبلـوا برسل الله ولا برسـالاته ، وسـيبررّون موقفهم هذا بطلب المزيد من الآيـات والـدلالات الحسـية المادية ، ولكنهم يغفلون عن حقيقة هامة ، وهي ان كثـيرا من الأنبياء السابقين كانت لهم آيات ومعجـزات ظـاهرة ، كعصا موسى ومعـاجز عيسى من قبيل احيـاء المـوتى وإشفاء المرضى ولكن مثل هؤلاء الناس لم يؤمنوا بهم.

بينات من الآيات :

[131] (**وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجـاً مِنْهُمْ زَهْـرَةَ الْحَيـاةِ الـدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيـهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى**)

النعم الـتي يمن الله بها على الإنسـان تكـون لحكم مختلفة وغايات متباينة ، فقد تكـون للابتلاء والاختبـار لمن هو في مسـتواها ، لعل نفسـية شـخص لا تتحمل النعم العظيمة ، وبالتالي لا يكـون من الحكمة تحميله مسـئولية تلك النعمة العظيمة ، فالأفضل ـ إذا ـ الّا تطـاول بنظـرك الى نعم الله على الآخرين.

وقد تكـون للزيـادة في الإثم واسـتدراج الفـرد نحو مصيره الأسود.

وكثـيرون هم الـذين يسـقطون في الامتحـان فيحق عليهم العذاب ، فلا داعي اذن ان يحسد الإنسان الآخـرين على ما في أيـديهم من نعم الله ، بل يقنع بما في يـده ما دامت النعم تعطى بحكمة للبشر ، ولو فكر ان يســـتزيد من الفضل فليكن ذلك بـــالطرق المشـــروعة .. بالعمل والسعي بدل المكر والسرقة.

[132] ان التنـــافس على حطـــام الـــدنيا لا يختص بالرجـــال فقط ، بل قد نجد البعض يرضى بقســـمته من العيش ، الا ان اهله هم الـذين يـدفعونهم الى التكـاثر من زينة الحياة ، ودائما يقولـون له : أفلا تـرى أهل فلان كيف يتنعمون بالرخاء ، أفلا تعمل كما يعمل لأهلـه؟ فما هي إذا مسـئولية الإنسـان تجـاه أهلـه؟ الجـواب : عليه أن يكـون فـاعلا في أسـرته وليس منفعلا ، فلا يتـأثر لضـغوطهم الشـيطانية ، وذلك عـبر تـربيتهم على الروحانيـات ومن أبرزها الصلاة.

(**وَأْمُـرْ أَهْلَـكَ بِالصَّـلاةِ وَاصْـطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْـئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ**)

وتـدل هـذه الآية على ان الصـلاة ليست عبـادة فردية يؤديها الفرد تجـاه ربه فقط ، بل هي أيضا عمل اجتمـاعي متكامل الأركـــان ، نســـتفيد ذلك من كلمـــتي (الأمر ، والاصــطبار) ، فـــالأولى تـــدل على ضـــرورة الالـــتزام الاجتمــاعي بهــذه الشــعيرة ، بينما تـــدل الثانية على ان الصــلاة تتطلب أعمــالا أخــرى فيها مشــقة وتعب ، فهي بحاجة الى الصبر والاستمرار.

فالصـــلاة على ســـبيل المثـــال تحتـــاج الى الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر ، والالـتزام الحـاد بتعـاليم الشريعة في كافة مجالات الحياة ، الاجتماعية والسياسـية والاقتصادية والثقافية و.. و..

ونهتدي من الآية الى أن الصلاة باب من أبواب الرزق ، كما أن فائدتها تعود

على مقيمها ، مما يجعل الإنســـــان يقبل عليها بشـــــوق وتلهف ، لأن وراءها الرزق والخير أيضا.

(**وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى**)

لكي نوضح بعدا من أبعاد هذه العبارة القرآنية نضرب المثل التالي : قد يأكل الإنسان أكلة شهية ، ولكنها تحتوي على ميكروب لا تراه عينه ، فهو وان شـعر باللّـذة الآنية ، الا انه سيجد نفسه طريح الفراش في المستقبل القـريب ، بسبب تكاثر الميكروب ، والآلام التي يسببها ، مما يجره الى إنفـــاق الكثـــير من الـــوقت والمـــال بين الأطبـــاء والمستشــــــفيات طلبا للصـــــحة ، بينما يأكل آخر أكلة متواضعة ولكنها نظيفة فيحصل على فوائدها.

ان المفاسد الاجتماعية تشبه الميكروب في الطعام ، فالإنســـان الـــذي يكتسب المـــال عن طريق الحـــرام ، كالسـرقة ، والاحتيـال على النـاس ، هـذا وان حصل على كثير من المال ، فان عاقبته غير حسنة على صـعيد الـدنيا حيث يبغضه النـــاس ، وقد يقع ضـــحية لظلم الآخـــرين وســـــرقتهم واحتيـــالهم ، إذ كما ان في المجتمع من هو أضـعف منه يمــارس تجاهه الظلم ، فكــذلك فيه من هو أقـــــوى منه يســــــتطيع ان يظلمه ، لكل عمل انعكاسا اجتماعيا يشبه أمـواج الصـوت ، ترتد الى صـاحبه قريبا أو آجلا ، ذلك لأن المجتمع وجــود حي يتفاعل أعضــاؤه فيما بينهم ، فمن عمل بـالظلم فانه يكـرس قـانون الظلم في مجتمعة ، وسيصبح في يوم ضحية هذا القانون ، والحديث الشريف يقول :

«**من طرق باب الناس طرق بابه**»

اما الإنسان الــذي يتقي ، فانه وان لم يحصل الا على قليل من المـــــال لكنه يحس بالبركة والراحة الدائمة في الدنيا ، كما يكون سعيدا في الآخرة برضى الله وجنته.

ان موقف الإنســـــان من نعم الله المادية هو موقفه من نعمه الرسالية المعنوية ، فترى الذين لا يرضــون بنعم الله عليه ويمدون أعينهم أبدا الى ما لا يملكــون من النعم ، لانعـدام الشـكر والرضا والطمأنينة عنـدهم ، هم الـذين يطالبون الرسل أبدا بآيات جديـدة ، ولا يرضـون بما أنـزل الله معهم من آيات مبينات.

[133] (**وَقالُوا لَوْ لا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ**)

انهم يطالبون بآية جديدة تشـهد على صـدق الرسـالة فيجيبهم الله :

(**أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى**)

لقد أحاط الله رسوله ورسـالته بالآيـات الواضـحات ، كالأخبار التي جاءت في الصحف الأولى (التـوراة والإنجيل ، ...) الـتي تنـبئ كلها بقـدوم النـبي محمد (ص) ، وتـذكر سائر الصـفات والأحـوال المتصـلة به ، وقد تحققت امـام أعينهم صدقا وعـدلا ، ولكن عمى قلـوبهم وطلبهم المزيد من الآيات منعهم من الايمان بها.

[134] ان العيب موجود فيهم حيث لا تقنع بمعطيـات الواقع ، ولا ترضى بحكم الله ، فاذا بعث الله إليهم رسولا منذرا مؤيدا بالحجج والآيات الواضحة اعرضوا عنه وعنها ، وقالوا نريد معجزات حسبما تراها أعيننا وتلمسـها أيـدينا ، وحين ترسل إليهم الآيـات المـدمرة يقولـون لقد كنا على اسـتعداد للايمـان لو أرسل الله إلينا رسـولا ينـذرنا بهـذا المصير.

(**وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَـوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْـلِ أَنْ نَـذِلَّ وَنَخْزى**)

ان موقفهم المتعصب لا يعطيهم فرصة للايمــان بالله والخضــــوع لحاكميته ، ولو كــــانت الآيــــات مليء الأرض والسماء ، ذلك ان الآيات لا تنفع بدون العقل والتفكر

العميق.

[135] (**قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدى**)

الجميع ينتظر المستقبل ، ولكن ترقب المؤمن مبــنيّ على أســـاس التعـــاليم الالهية ، بينما لا يســـتند تـــربص الكـافرين الا على وهم ، فهم في ضـلالة حاضـرة ومصـير مظلم ، وهذه الآية تنطوي على إنذار بالغ لهذه الفئة.

سورة الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

عن النبي محمد (ص) قال :

«**من قـرأ سـورة الأنبيـاء ، حاسـبه الله حسـابا يسيرا ، وصافحه وسلم عليه كلّ نبي ذكر اسمه في القرآن**».

(مجمع البيان ـ ص 38 ـ ج 7)

وعن الامام الحسين (ع) قال :

«**من قرأ سورة الأنبياء حبا لها ، كان كمن رافق النبيين أجمعين في جنـات النعيم ، وكـان مهيبا في أعين الناس حياة الدنيا**».

(الثقلين ـ ص 413 ـ ج 3)

الإطار العام

شـــروعها هـــزة ضـــمير ، ونهايتها ومضة أمل ، وبين البداية الصاعقة والنهاية الحانية ، يتلو علينا القرآن الكريم آيــات الــوعي ، ليعــالج فينا الغفلة والإعــراض ، واللعب واللهو ، مــذكرا بعاقبة المكــذبين ، وان الحيــاة جد ، وان الملائكة عبــاد مكرمــون ، وان الآلهة لا تنفع ، وهي ليست كهفا منيعا للاعــــــبين واللاهين ، وان الله واحد أحد ، وان الموت واقع ، وان الاستهزاء بالرسل عاقبته العــذاب. كما انها تذكر بــدور الرسل ، وعاقبة المكــذّبين بهم ، وشــهادة صدقهم في نصر الله لهم.

فما هو إذا الإطار العام لهـذه السـورة؟ هل انه يحيط بمحور النبوة ودور الأنبياء كما يدل عليه اسم السورة؟ أم ان محور السورة قضية الغفلة ، وكيف تعالج في النفس ، ليشعر الإنسان بمسؤولياته ، وان الحياة جد لا هي لهو ولا لعب؟

لعل الســـورة تحـــدثنا عن الأنبيـــاء ، ولكن من زاوية تــذكيرهم البشر ، وكيف ينبغي أن نــداوي حالة الغفلة من أنفسنا بالاستماع إليهم ، والايمان بهم وبما أرسلوا به.

ذلك إنّ سورا أخـرى تحـدثنا أيضا عن الأنبيـاء ، ولكن من زوايا مختلفة مثل طبيعة الصـــــراع الاجتمـــــاعي أو السياسي الـذي خاضـوه (مثل سـورة القصـص) أو الأذى الــذي لحقهم وكيف اســتقاموا حــتى نصــرهم الله (مثل سورة هود).

إن الشعور بالمسؤولية ، قمة الوعي وإن السبيل إليه مقاومة حالة الغفلة والسـهو ، والـتي لا تتحقق إلا بالإنـذار باقتراب موعد الحساب!

وقد جاء النـبي يـذكرهم إلّا انهم اسـتمعوا الـذكر وهم يلعبون ، لان قلوبهم لاهية ، لا تستقر على فكرة.

وبعد أن يذكّر السياق بان إعراضهم عن الذكر بادعـاء إنّه سحر ، أو حلم مختلط ، أو افتراء ، أو خيـالات شـاعر. وبالتـالي تـبريرهم التكـذيب بـالحق ، باننا نبحث عن آيـات جديدة ، بعدئذ ينذرهم : بأن الهلاك هو مصـير المكـذبين (11).

ويبين القـرآن : إنّ الحيـاة جد لا لعب ، وأنّ الله خلق السماوات والأرض بـالحق ، وبالتـالي لا ينبغي اتخاذها لعبا ولهـــوا ، (16) ويؤكد ذلك بـــان الملائكة (وهم الأعـــرف والأقوى منهم) يعبدون الله بجد ويسبحونه وله يسجدون (19) ولأنهم يهربون من المســؤولية عـادة الى كنف الآلهة فيزعمون انها تنقـذهم من جـزاء أفعـالهم يـذكرهم الـرب بأنه الله الواحد (20) ويســـتمر الســـياق بـــذكر التوحيد والشـواهد الفطرية عليه (30) ثم يعـود بعد تزييف فكـرة الشرك التبريرية ، ليهز الإنسان من أعماقه بذكر الموت ، وان كلّ نفس ذائقة الموت ، حتى النبي الكريم عند ربه (34).

أما الاســتهزاء (وهو صــورة اللهو وعــدم الجدية في استقبال القضية المصيرية) فان عاقبته الدمار (36).

وبعد تفنيد الشـرك والاسـتهزاء يعـالج القـرآن حالة الاسـتعجال (37) (حيث إن الإنسـان يبعد المسـؤولية عن نفسه بالادعـاء انه لو كـان لكـلّ فعل جـزاء فلما ذا يتـأخر الجزاء).

ويعود السياق ليبيّن مصير المسـتهزئين (41) ويقـول ان الله هو حـــافظكم في الليل والنهـــار فاحـــذروه (ولا تسـتهزؤوا بـه) وانه هو الـذي يكلـؤكم لا أحد غـيره ، وان الآلهة لا تمنع عنكم العذاب (43).

واسـتمرار النعم ، قد يـوحي الى الإنسـان بأنّه لا نقم ولا جزاء في الحياة ، ولكن الـرب يـذكرنا بـأن نظـرة الى الأرض كفيلة بإثبـات هـذه الحقيقة : ان الله غـالب على أمره (44).

إن من يلهو لا ينتفع بـالوحي لأنه الصـمّ ، وهل يسـمع الصم الدعاء (حتى ولو تمّ إنذارهم بـالخطر المحـدق بهم) (45).

إنهم يعـترفون بـذنبهم إذا أصـابتهم نفحة بسـيطة من عذاب الله ، فكيف يغفلون عن المـوازين القسط الدقيقة التي وضعت ليوم القيامة؟ (47).

لهذا الهدف وهو تـذكرة الإنسـان ، وإيقـاظ ضـميره ، واستثارة عقله ، جاء الأنبياء ، يحملون معهم الذكر ، والله أيـــدهم بنصـــره فأهلك المكـــذبين بهم ، والمســـتهزئين. وأنقـــذهم ، ومن آمن معهم من العـــذاب ورفع كلمتهم ، وهكـذا يقصّ علينا القـرآن قصة موسى وهـارون (والنـبي محمد (ص)) وإبراهيم ولوط واسحق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذا الكفل وذا النـون وزكريا ويحيى ومريم وابنها (عيسى) ويـبيّن كـرامتهم عند ربهم وشـهادة الصـدق على رسـالتهم الواحـدة حيث ان الاختلاف جاء من قبل الناس أنفسهم (93).

ويستلهم السياق من تلك القصص المضيئة إن من يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه (94) وهو الجانب الآخر لفكرة المسؤولية.

وبعد أن يبيّن أشراط الساعة واقتراب الوعد الحقّ وندم الكفار وكيف ان الله يلقي الآلهة المزيفة ومن عبدها في النار ، يؤكد بأن دخول هؤلاء النار التي لهم فيها زفير ، لدليل على أنهم ليسوا بآلهة (99).

أتريد أن تتخلص من النار؟! فكن ممن هداه الله ، واستمع الذكر ، فهناك لا تسمع حسيسها ، ولا يحزنك الفزع الأكبر (103) هنالك يطوي الله السماء كما تطوى الأوراق ، ولكن قبل ذلك اليوم سوف يورث الله الأرض لعباده الصالحين ، وهذا البلاغ يفهمه القوم العابدون! (106).

والرسول رحمة للعالمين (وتتجلى الرحمة في يوم وراثة الأرض). وبعد أن يذكرنا السياق بالتوحيد ، وينذرنا من مغبة التولّي ، ويخبرنا بأن الله يعلم الجهر وما تكتمون ، وان المتاع الدنيوي فتنة ونهايته قريبة يختم السورة بالدعاء الذي يأمر به رسوله النذير ، بأن يطلب من الله أن يحكم بالحق (بينه وبين الجاحدين) وهو الرحمن المستعان على الأعداء وما يصفونه من تهم (112).

سورة الأنبياء

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**اقْتَـــــرَبَ لِلنَّاسِ حِســـــابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَـــــةٍ مُعْرِضُونَ (1) ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْـتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُـونَ (2) لاهِيَـةً قُلُـوبُهُمْ وَأَسَـرُّوا النَّجْـوَى الَّذِينَ ظَلَمُــوا هَــلْ هــذا إِلاَّ بَشَــرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَـأْتُونَ السِّـحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِـرُونَ (3) قـالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ**

---

2 [محدث] : جديد.

3 [وأسـرّوا النجـوى] : أي أخذ ينـاجي بعضـهم بعضا في شـأن القـرآن والرّسول.

[أفتأتون السحر] : أي كيف تقبلون السحر الذي أتى به محمد ، وتـأتون بمعنى : تذهبون إلى السحر.

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4) بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (5) ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6) وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (7) وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَما كانُوا خالِدِينَ (8) ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (9) لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (10)

---

5 [أضغاث أحلام] : أي تخاليط أحلام ، وأحلام مضطربة ، وأضغاث جمع ضغث ، وهو : الخلط من الشيء.

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ

هدى من الآيات :

عجيب أمر النــاس إنهم يلهــون ويلعبــون والحســاب يقترب إليهم.

لما ذا تراهم يعرضون عن الحق ، حتى أنهم لا يـأتيهم ما يذكّرهم إلّا تراهم يتخذونه لعبا ، وتحيط بأفئدتهم الغفلة ويتناجون بينهم ـ ظالمين أنفسهم ـ هل هـذا إلّا بشر مثلنا ، لما ذا نتبعه ، ويفسرون ذكر الله الجديد وأثره البليغ في قلوبهم ، بأنه سحر ، ويتناهون عنه.

والرسول يبلغهم رسـالات ربه ، ويتوكل عليه ويشـهد على صدقه الله الـذي يعلم القـول في السـماء والأرض ، ويحتــارون بما ذا يفســرون هـذا الــذكر المحــدث الــذي يتهربون منه ، بسبب لهو قلوبهم. فتـارة يقولـون أضـغاث أحلام ، وحينا ينســبونه الى الافــتراء ، ومــرة يقولــون إنه خيال شاعر ، وأخرى يطالبونه بآيات مقترحة.

ويتساءل السياق إذا لم يؤمن السابقون حتى أهلكهم الله وقد أنزلت إليهم تلك الآيات المقترحة أفهم يؤمنـون؟ ومن هم الرسل السـابقون؟ أو لم يكونـوا رجـالا يـوحى إليهم؟ دعهم يسألون من انتفع بالذكر إن كانوا لا يعلمـون ، بلى كان الأنبياء يتعرضون للجوع ولم يكونوا خالدين.

وكانت ـ مع ذلك ـ شـهادة صـدقهم قائمة في الأمـداد الالهي الـذي تجلى في إنقـاذهم ثمّ إهلاك المكـذبين بهم ، الذين أسرفوا على أنفسهم.

وهـذا كتـاب فيه ذكر محـدث ، وعلى المسـلمين أن يتذكروا به إن كانوا يعقلون.

بينات من الآيات :

معرفة المصير :

[1] (**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ**)

معرفة الإنسـان لمصـيره وحسـابه ، أفضل وسـيلة لهدايته وفي الحـديث : «**كفى بـالموت واعظا**» لأن الموت زائر غير مرغوب فيه ، يزور الإنسان في أيّ لحظة يشـاء ، دون أن يأخذ موافقة مسـبقة ، فعلى الإنسـان أن يستعد للمـوت في كـلّ لحظة (فـاذا مـات ابن آدم قـامت قيامتـه) ومن هنا يظهر الخطأ الفـادح لأولئك الـذين يزعمـون بـأن يـوم القيامة بعيد ، إذا فلما ذا الغفلة ، ولما ذا الاعراض عن ذكر الله وعن الرسالة؟!

والنـاس على أقسـام ثلاث ، فمنهم من يتحـول قـبره الى روضة من رياض الجنّة ، وهم الصـالحون ، ومنهم من يصبح قبره حفرة من حفر النيران ، وهم المجرمون.

وواضح إن حساب هـؤلاء أقـرب إليهم من كـلّ شـيء لأنه لا يفصلهم عنه سوى المـوت الـذي يـنزل بهم في أية لحظة.

أما القسم الثـالث فهم الـذين يلهى عنهم حـتى قيـام الساعة حسب بعض النصوص ، وبالرغم من بعد الحساب عنهم زمنيا إلّا إنّ انعــدام شــعورهم خلال الفــترة يوصل الموت وقيـام السـاعة ببعضـهما في الواقع ، ولعلّه لـذلك جـاء في الحـديث النبـوي الشـريف : «**بعثت والسـاعة كهاتين ، وهو يشير إلى إصبعي السبابة والوسـطى بعد جمعهما**»

(**وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ**)

تحيط بهم الغفلة ، ويهربون مواجهته الحقيقية.

[2] (**ما يَـأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْـرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْـدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ**)

كلما أتتهم آيات جديـدة من ربهم ، تـذكرهم بـواقعهم ومصـيرهم ، إذا بهم يتشـاغلون عنها بتوافه الأمـور ، أو يتخـذونها لعبا ، فلا يتعـاملون معها بجديـة. تصـور إنّك لو مثلت أمـام محكمة ، وأنت تعتقد بأنها إما أن تحكم عليك بالاعـدام ، وإما أن تـبرئ سـاحتك ، كيف تقف في قفص الاتهـام ، أو ليس متحفـزا يقظا ، حـتى لا تبـدر منك كلمة في غـير محلها ، لأنها لحظة حاسـمة. أمّا إذا أخـذت تـدير مسـبحة في يـدك أو تـدخل يـديك في جيبك تبحث عن محتوياته العادية فان ذلك يسمى لعبا.

وكذلك الإنسـان في هـذه الحيـاة أشـبه ما يكـون في قاعة محكمة ، وعليه أن ينتظر الحكم عليه بـدخول الجنّة أو بـورود النـار ، ولهـذا ينبغي عليه أن يأخذ الحيـاة بجدية تامة ، ويحسب لأعماله وتصرفاته ، وأقواله ألف حسـاب ، وإلّا كـان من الـذين يشـملهم قـول الله سـبحانه : وهم يلعبون.

تخرصات البشر :

[3] (**لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ**)

إن القلوب اللاهية لا تتقبل حقائق الحياة ، ولا تتفاعل معها ، تماما كالأحجار الصلدة التي كلما صببت عليها الماء فانها ترفض أن تحتفظ بقطرة واحدة منه.

(**وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَـلْ هـذا إِلَّا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ**)

لما ذا كان حديثهم بينهم نجوى؟

لأنهم يخافون أن يفتضحوا أمام الملأ بسبب ضعف موقفهم العلمي أمام شواهد الصدق التي تميزت بها الرسالة ، ولأنهم انهزموا في واقع أنفسهم أمام قوة الرسالة ، فلم يجدوا بدّا من المؤامرة في السر ضدها! ولان ادعائهم بأنها سحر كان واضح البطلان فاحتاجوا الى التواطئ عليه في السر ، فالسحر شيء والرسالة شيء آخر ، السحر يداعب خيالهم بينما الرسالة تثير عقولهم.

[4] (**قالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّـماءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**)

إنّ الإنسان يبرّر عمله أمام الآخرين ما دام يعلم إن تبريره يمكن أن ينطلي عليهم ، أما إذا علم أن هناك من يعرف حقيقة أمره ، فانه سيخجل من ذاته ، ويكف عن انحرافه إن كان أهلا للموعظة.

لذلك ذكر النبي (ص) المشركين بأن الله يعلم إنّ كلامهم باطل وهم بدورهم يعلمون ذلك ، فلما ذا يتحدثون به؟ ثمّ إنّ رسولهم الذي جاء بالذكر هو أول من يحذر ربّه ، لأنه يعرف أنّه يعلم القول في السماء والأرض ، فكيف يمكن أن يفتري عليه وهو الشاهد الناظر؟

[5] (**بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ**)

أي أحلام مختلطة ببعضها.

(**بَلِ افْتَراهُ**)

إنّ كلامه معقــول ، ولكنه كــاذب في ادعائه أنّه وحي من الله.

(**بَلْ هُوَ شاعِرٌ**)

ولمّا رأوا إنّ كلامه عميق وذو أثر قــالوا : إنّه شــاعر! لأنّ الشعر أعلى درجات الثقافة لديهم. هكذا كان حـديثهم عن الرسالة متناقضا ينبّئ عن حيرة كبيرة ، منشؤها عدم اسـتعدادهم للإيمــان بها ، وتحمل مسـئولياتها ، وتـرك ما تعودوا عليه ، كذلك الإنسـان حينما يقـرر رفض مـذهب أو موقف يتشبث بأعذار واهية وربما متناقضة.

ثمّ قالوا :

(**فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ**)

ومن الممكن أن نــؤمن ، لكن على شـــرط أن يأتينا بآيات جديدة ، وإن آيات الله التي تنزل على البشر نوعان :

النوع الأول : هي التي تأتي لإثارة العقل وبيان الحجة من قبيل الآيات القرآنية التي تأتي في زمان الفرصة وفي أيـام الأجل ، أما النـوع الثـاني : فهي الـتي تـأتي لتفـرض على الإنسان الحقّ شاء أم أبى وإنما تكون هذه بعد انتهاء الأجل ، ففرعــون كــان يقــول : أنا ربكم الأعلى ، وحينما غــرق في البحر وتقاذفته الأمــواج ، قــال : آمنت بــرب هارون وموسى ، ولكن هذا الإيمان مرفـوض لأنه جـاء بعد فوات الأوان.

وهؤلاء حينما يطالبون بهبوط الآيـات الحسـية عليهم ، فإنهم يخطئون في ذلك! لأن هـذه الآيـات إذا جـاءت فـان فرصـــتهم تكـــون قد انتهت ، ولن يكـــون في مقـــدورهم الاستفادة منها شيئا.

[6] (**ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها**)

أي حينما أنـــزلت عليهم الآية أهلكت هـــذه القرية ، لتصبح عبرة للأجيال.

(**أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ**)

إنّ هؤلاء ينتظرون أن تـنزل عليهم آية من نـوع آيـات القرى الهالكة ، ليؤمنوا بالرسالة ، في حين إنهم يرفضون الإيمان بالآيات العقلية الكثيرة ، وهـذا خطأ فـادح لأن في ذلك يكون هلاكهم.

حقيقة الرسل :

[7] (**وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ**)

لمّا زعمـوا بأنه بشر أجـابهم القـرآن بلى إنّه لبشر ، وكذلك كلّ الأنبياء السابقين كانوا بشرا.

(**فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**)

لقد أعطى الله سـبحانه الجاهل قـدرا كافيا من العلم ليهديه الى ضرورة البحث عن عـالم يسـأله ، وهكـذا فـان لم يكن للناس علم بطبيعة الرسالات فليسألوا أهل الذكر والمعرفة عن كـــلّ ذلك ، والآية تشـــير الى إن ســـؤال الجاهل من العـــالم أصل شـــرعي يمكن الاعتمـــاد عليه بشرط أن يكون العالم من أهل الذكر ، أي أن يكون قد

استفاد من علمه.

[8 ـ 9] (**وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَـأْكُلُونَ الطَّعـامَ وَما كانُوا خالِـدِينَ* ثُمَّ صَـدَقْناهُمُ الْوَعْـدَ فَأَنْجَيْنـاهُمْ وَمَنْ نَشاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ**)

مع ذلك نحن نؤكّد لكم : بـأن الأنبيـاء متصـلون بالله ، وإنّ كلامهم وعد من الله ، وأن الله سـبحانه وتعـالى ينفذ ما قال ، وينجي رسله ويهلك الآخرين.

وتتكـرر في القـرآن الكـريم كلمة الإسـراف بصـيغ مختلفة لتـدل على حقيقة يجب أن نتـذكرها دائما ونتأمل فيها كثيرا وهي : إن الإسراف هو أحد الأسـباب الرئيسـية لانحـراف البشر ، فالإنسـان الـذي يأكل ويشـرب وينـام ويـتزوج بقـدر حاجته ، لا ينحـرف لأن الله دائما يـوفر للإنسـان رزقه ، ولكن الـذي يضل عن الصـراط هو المسرف الـذي يريد أن يجمع أمـوال النـاس الى أمواله ، ويبني سعادته على حساب الآخـرين ، والقـرآن يؤكد هنا : بأن الذين يهلكون إنّما هم المسرفون.

دور القرآن :

[10] (**لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ**)

القرآن يأتي لينبه الإنسان عن تلك الغفلة التي تفصل بينه وبين الحساب ، ولا تدعه يتـذكر أنّه مسـئول محاسب وأن حسابه قريب.

إذا كلما رأيت نفسك غافلا فاقرأ القـرآن ، لأن قـراءة القرآن تعطيك ذكرا ، وتوجهك الى الحقيقة.

(**أَفَلا تَعْقِلُونَ**)

القـــرآن لا يقـــول أليس عنـــدكم عقل ، لما ذا؟ لأنّ النـاس جميعا رزقـوا العقل ، ولكنهم يختلفـون في مـدى اســتفادتهم من عقـــولهم ، وهو التعقل ، كما إنّ النــاس جميعا يملكــون الأبصــار ، ولكن بعضــهم يفتحــون أعينهم فـيرون ، وبعضـهم يـذهلون عنها فيـنزلقون ، لـذلك يقـول القرآن : «**أَفَلا تَعْقِلُونَ**» أي لما ذا لا تنتفعون بعقولكم؟

إنّ الإنســـان يبحث في حياته عن هـــدى ويبحث عن الوصـول إلى الحقيقة فـاذا قـرأ القـرآن بعمق وتـدبر فيه وصل إلى الحقيقة ، فــاذا وصل إلى الحقيقة عــرف بــأنّ القرآن من الله ، لأنه أوصله إلى الحقيقة.

وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ (12) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ (13) قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (14) فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ (15) وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ

---

11 [قصمنا] : أهلكنا ، وأصل القصم كسر الظهر الذي يكون مع الصوت.

13 [ما أترفتم فيه] : أي أسباب ترفكم من زخارف الدّنيا ، والترفه النعمة.

15 [حصيدا] : أي محصودا ، قد شملهم العذاب حتى كأنّهم السنبل المحصود الذي يقطع فلا حياة له.

عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْـلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18) وَلَـهُ مَنْ فِي السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِـرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ (20)

---

18 [زاهق] : زائل مضمحل ، والزاهق من الأضداد ، يقال للهالك زاهق ـ وللسمين من الدواب زاهق ـ وزهقت نفسه تزهق زهوقا.

19 [لا يستحسـرون] : الاستحسـار ـــ الانقطـاع عن إعيـاء ، يقـال : استحسر فلان عن عمله ـ يعني انقطع عنه إعياء.

20 [لا يفترون] : أي لا يأخذهم الفتور والضعف عن العبادة.

هدفية الحياة

هدى من الآيات :

يتحـدث القـرآن هنا عن الجـزاء الـذي ينتظر الإنسـان اللامســؤول الــذي اتخذ الحيــاة لهــوا ولعبا ، وحين يحل العذاب فلن يفلح كـلّ من يحـاول الهـرب منه لأنّ حكومة الله لا يستطيع الفرار منها أحد ، ويـأتي النـداء الى هـؤلاء بـأن عـودوا الى تلك الأسـباب الـتي دعتكم الى الـذنب ، فـانظروا هل إنها تشــفع لكم اليــوم شــيئا؟ وهل تنفعكم الأمـوال الـتي كنزتموها والأولاد الـذين من أجلهم تـركتم عبادة الله و.. و..؟

إنّ هذا اليوم كان نتيجة اللاأبالية واللاجدّية في الحيـاة ، وكما يقول القرآن الحكيم : إنّ نظـام الكـون قـائم على الحقّ وليس على اللعب واللهو.

إنّ الكـون الـذي تعيش فيه ــ أيها الإنسـان ــ وتخضع لقوانينه وســننه ، أنشــأه الله بعلمه وقدرته للحــقّ فكيف تريد بـالرغم من ضـعفك وضـآلتك ، أن تخـرج من دائـرة الحقّ الى دائرة اللهو واللعب؟! إنّ ذلك شيء محال!!

يؤكد القرآن الحكيم هذه الفكرة مرة أخرى فيخبرنا : كما إن السماء والأرض خلقتا بحـقّ وليس بلعب ، فكـذلك المجتمعات ، ولـذلك فـان السـنن الحاكمة فيها هي سـنن الحقّ ، وهذه السنن يجب أن تحكم المجتمعات كما تحكم في الأرض والسماوات ولكن بفارق واحد وهو : إنها تحكم في الســماوات والأرض بصــورة مباشــرة وفورية ولكنها تحكم في المجتمعـات بصـورة غـير مباشـرة بعد إعطـاء الفرصة ، وتقـديم الإنـذار ، وبعد محاولة هداية وإصــلاح ، وهــذه نعمة كبـيرة من الله ، فلو كـان الإنســان يحاسب على كـــلّ خطأ فــورا وبــدون إعطــاء أيّ فرصة للتوبة ، لتحولت حياته إلى جحيم.

ولكن إعطـاء الفرصة شـيء ، وتطـبيق الحـقّ شـيء آخر ، فليس معـــنى إعطــاء الفرصة إن الله ســبحانه قد نسي الحـقّ الـذي فطر عليه السـماوات والأرض ، وجعله محـورا للخليقة جميعا ، بل إن الله لا يـزال ينصر الحـقّ ، وسوف يطبقه ويدمغ به الباطل.

إنّ أيّ شـيء ينحـرف عن سـنة الحيـاة ، سـرعان ما ينتهي ويتلاشى. إذن يجب علينا أن نتمحور حول الحقّ كما يقـرره القـرآن الحكيم بـأن الحـقّ هو عبـادة الله وعـدم إشـــراك أحد معه في ألوهيته ، فكما إنّ الملائكة والأرواح والســماوات والأرضــين كلّها تعبد الله وتخضع له كـــذلك الإنسان.

وهناك فكرة أخـرى تـوحي بها هـذه الآيـات وهي : إن الإيمان الصادق هو الإيمان بـأن محـور الكـون هو الحـقّ ، فالكون جدّ لا لعب ولا لهو فيه ، وهـذا الإيمـان هو ضـمان لاثارة إحساس الإنسان بالمسؤولية في حياته الـدنيا ، كما إنّ اللهو واللعب هما عدوّا إحساس الإنسان بمسؤوليته.

بينات من الآيات :

جزاء الظلم :

[11] (**وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ**)

إنّ نعم الله التي تحوطنا قد توحي إلينا بفكرة خاطئة وهي : بما إن الله أرحم الراحمين فهو لن يعذب أحدا. ولكي ننسف هذه الفكرة ، ونقتلع جذورها من أنفسنا لا بدّ لنا من قراءة التاريخ ، والسير في الأرض لنرى آثار الماضين كيف انتهوا وكيف جاءهم عذاب الله ، فان الله سبحانه وتعالى قد قصم كثيرا من القرى ودمرها بظلمها لأنها رفضت أن تؤمن بالحقّ وتنصاع له ، فالقضية ـ إذا ـ جدّية ، وما ينذرنا الله به قد وقع فعلا بالنسبة لمن سبقونا ، لذلك ينبغي أن نخاف فلا نالوا جهدا عن مواجهة هذا المصير السيء.

ونلاحظ في هذه الآية لفتة لطيفة في التعبير القرآني ، حيث يقول : «**وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ**» ، ثمّ يقول : «**وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ**» ، فلما ذا لا يقول القرآن وكم قصمنا من قوم وأنشأنا بعدهم قوما آخرين؟ أو وكم قصمنا من قرية وأنشأنا بعدها قرى أخرى؟

والجواب هو حينما يقصم الله سبحانه وتعالى قرية فانه لا يهلك أهلها فقط ، ويترك العمارات والشوارع والمصانع سالمة ، وانما يدمر كلّ شيء فيها ، مرة واحدة ، وحينما ينشئ قوما آخرين فانه لا ينشئ معهم قراهم ، ومعابدهم ومصانعهم ، بل يخلقهم ، وبعد ذلك يقول لهم : اسعوا في الأرض أي اصنعوا حضارتكم بأنفسكم ، فهم المسؤولون عن بناء البيوت والشوارع وتأسيس المصانع.

[12] (**فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ**)

إنّ إرهاصات غضب الله عليهم كـانت قائمة ، ولكنهم تغـافلوا عنها ، ولو انهم تحسسـوا بها وتـابوا الى الله قبل نـزول البـأس والعـذاب لقبلت تـوبتهم ، مثلما قبلت توبة قوم يونس (ع) ، ولكنهم بقـوا على حـالتهم حـتى أحسـوا بأس الله ولمسوه لمسا ، آنئذ قاموا يركضون ، وظنّوا أنّ الهرب ينفعهم.

[13] (**لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ**)

إلى أين تركض أيها الظالم؟! لما ذا تخـرج من قريتك التي عمرتها والزينة التي جمعتها؟ ارجع وابق هنـاك حـتى نهـدم بيتك على رأسك ، وعند ما نفجّر مصـنعك نفجّـره وأنت فيه ، وعند ما ننسف بيتك ننسفه معك.

ولعـلّ الآية تشـير الى إنّ الـركض لا ينفع ، كما إن كلمة «لعلّكم تسألون» في ذيل الآية ربما توحي بالسـؤال الشـائع من الأطلال وبقية آثـار الشـعوب ، وكـأنهم بعد الـدمار يتحولـون الى عـبرة للأجيـال القادمة حيث يقفـون على ديارهم ويسألونهم : أين حضارتكم الـتي أتـرفتم فيها ، أين مساكنكم التي اطمـأننتم إليهـا؟! كما جـاء في رائعة منسوبة الى الامام عليّ عليه السلام :

نـاداهم سـائل من بعد دفنهم	أين الأسـرة والتيجـان والحلل
أين الوجـوه الـتي كـانت منعمة	من دونها تضـرب الأسـتار والكلل
فأفصح القـبر عنهم حين سـائلهم	تلك الوجـوه عليها الـدود ينتقل

والسؤال هو : من يناديهم بهذا النداء؟ والجـواب : إنّه واقع حـالهم ـ كما يبـدو لي ـ ، وكـأن كـلّ من اطّلع على وضعهم ناداهم بهذا النداء.

ويظهر أنّ الآية توحي أيضا بفكرة هامة هي :

إنّ أيّ بشر يظلم نفسه أو يظلم الآخـرين اغـترارا بعامل مادي ، فان العذاب

سوف يأتيه انطلاقا من ذلك العامل نفسه. فمثلا قوم فرعون كانوا معجبين بالمياه المتدفقة عبر النيل ، حتى إنهم كانوا يعبدون الماء ، وكانوا يختارون في أول الربيع أجمل فتاة عندهم فيلقونها في نهر النيل قربانا لهذا الإله ، وكان فرعون يقول : «**وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي**» ، فانتقم الله منهم انطلاقا من ذلك الماء نفسه حيث أغرقهم فيه.

وقوم عاد كانوا يفتخرون بالبيوت الصخرية وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا ويتصورون إنّ تلك البيوت سوف تخلدهم وتمنع عنهم البأس ، فبعث الله سبحانه وتعالى إليهم برياح كانت تحطم هذه الصخور وتهدمها عليهم ، وهكذا غيرهم. فيكون معنى (**وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ**) ارجعوا الى تلك النعم التي بسببها انحرفتم وضللتم لكي تروها وهي تتحول عليكم نقمة.

(**وَمَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ**)

قبل أن ينحرف الإنسان ، ويظلم الآخرين من أجل الحصول على متاع الدنيا وحطامها ، عليه أن يسأل نفسه أولا : هل إنّ هذه الأشياء ستنفعه يوم الجزاء ، وهل سترفع عنه العذاب عند ما يقع؟! وبعد أن يفكر في الأمر جيدا ، عليه أن يفعل ما يشاء ويتحمل المسؤولية في كلّ أعماله وتصرفاته.

[14] (**قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ**)

[15] لقد اعترفوا بخطئهم وظلمهم ولكن الاعتراف جاء متأخرا! حيث استمروا ينادون على أنفسهم بالويل حتى لحظة النهاية.

(**فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ**)

لقد حصـــدهم العـــذاب حصـــدا كما تحصد المكـــائن الزراعية الضـــخمة الســـنابل ، فلم تقم هنـــاك لأحد منهم قائمة ، ثم خمدوا كما تخمد الجمرة فلا حرارة ولا حركة.

هدفية الخلق :

[16] لما ذا يا إلهي فعلت هـــــذا؟! أليس هـــــؤلاء عبـــــادك؟! أو لست أرحم الـــــراحمين؟! بلى ربنا أرحم الراحمين ولكنه خلق السماوات والأرض بـالحقّ ، وهـؤلاء تجاوزوا قيم الحقّ.

(**وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ**)

إنّ هؤلاء اتخذوا الحياة لعبا فكان هذا مصيرهم.

[17] (**لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ**)

إن كانت الخليقة بلا هدف ، فان الله كـان ينـتزع منها الهدفية ، ويتخذها لهـوا ، أي يجعلها بلا غايـات مرسـومة ، ولا ســنن دائمة ، ولا قـــوانين دقيقة تفـــرض على أصـــغر جزيئة في الذرة بنفس الصرامة الـتي تفـرض على أعظم مجردة في الفضاء.

وحيث نـرى كـلّ شـيء يسـعى نحو هدفه ، أو بتعبـير أفضل يسير الى غايته ، فهل من المعقول أن يكــون خلق الإنسان عبثا ، وبلا هدف (**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثـاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ**)؟

كلّا .. أنت بـدورك تخضع لقـانون الهـدف ، وبالتـالي لمعادلة المسؤولية والجزاء.

وفي معنى الآية أقوال شتى إلّا إن هذا المعـنى العـام يمكن أن يستوحى من كلّ تلك الأقوال.

[18] (**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ**)

وهذه هي سنة الله الثابتة في الكون على مرّ العصور والدهور ، وعلى الإنسان أن يبـني حياته على أسـاس ، إذا أراد أن يفوز ويحقق أهدافه ويتجنب مصارع الـردى وينجو من العذاب المحتوم.

وكلمات الآية صـاعقة شـديدة الوقع نافـذة الى عمق الضمير ، فالحقّ يقذف (يرمي بقوة وربما من مكـان بعيد وقد يتأخر قليلا ليقطع المسافة ولكنّه يصل حتما) ، ثمّ إنّه يهدف أمّ الرأس حيث الدماغ ، ويتلاشى الباطل ويضمحل فلا يبقى منه شيء أبدا.

والآية تبصرنا بواقع الخليقة والأنظمة السـائدة عليها ، وتـوحي إلينا بضـرورة تزكية أنفسـنا من خلال معرفة تلك الأنظمة ، فقانون الجاذبية الذي يسـقط به الحجر من عل ، ليس بـأقوى من قـانون سـقوط الظـالم من كرسي الحكم!

[19] (**وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ**)

هذا الحقّ يجب أن يتجسد في واقع السلوك البشـري ، كما تجسد في واقع سـلوك الملائكة وسـلوك عبـاد الله الصـالحين ، الـذين لا يسـتكبرون عن عبادته ويفعلـون ما يؤمرون.

[20] (**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ**)

الحياة يجب أن تكون جدّيّة ، ويجب أن يسبّح الإنسان ربّه دونما تعب أو استكبار.

أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَــةٌ إِلاَّ اللــهُ لَفَسَــدَتا فَسُــبْحانَ اللــهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لا يُسْـئَلُ عَمَّا يَفْعَـلُ وَهُمْ يُسْـئَلُونَ (23) أَمِ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِـهِ آلِهَـةً قُـلْ هـاتُوا بُرْهــانَكُمْ هــذا ذِكْــرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْــرُ مَنْ قَبْلِي بَــلْ أَكْثَـرُهُمْ لا يَعْلَمُـونَ الْحَـقَّ فَهُمْ مُعْرِضُـونَ (24) وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلــهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُــدُونِ (25) وَقــالُوا اتَّخَـذَ الـرَّحْمنُ وَلَـداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ (26) لا يَسْـبِقُونَهُ بِـالْقَوْلِ وَهُمْ بِــأَمْرِهِ يَعْمَلُــونَ (27) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْــدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْــــــــفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (28) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلــهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (29)

---

21 (**هُمْ يُنْشِرُونَ**) : أي يقدرون على نشر الأموات واحيائهم؟

لا للتبرير .. نعم لتحمّل المسؤولية

هدى من الآيات :

ما أبهض ثقل المسـؤولية على قلب البشر ، يكـاد فـؤاده يتصـدع حين يعلم إنّه لمسـؤول ، أمـام خـالق السـماوات والأرض لا يخفى عليه شـيء في السـماء والأرض.

وكذلك تراه يبحث عما يخفف عنه هذا الثقل الباهظ ، وينجّيه ـ بزعمه ـ من سؤال بارئه.

ويفند السـياق القـرآني ـ في إطـار تحسيسه بواقع المسـؤولية ـ هـذا الـزعم ، ويقـول : هل الآلهة تنشر الموتى؟ أو لا يعلمون أن لو كـان في السـماوات والأرض آلهة إلّا الله لفسـدتا وتفطرتـا؟ تقـدس رب العـرش عما يصف المشـركون ، إنّه فـوق التـأثر بخلقه ، فهم يسـألون عن أفعـالهم ، وهو لا يسـأل عما يفعـل. ثم يطـالبهم بالبرهان ، ويؤكد إنّ كلّ الرسالات الالهية تتفق على كلمة التوحيد ، وان شرك هؤلاء نابع من إعراضهم عن الحقّ.

وربما زعموا إنّ الملائكة الأشـداء هم أولاد الله ، أو لا يعلمون إنهم عباد مكرمـون (مقربـون الى الله وهـذا سـرّ قدرتهم) ، وانهم لا يظهرون رأيهم بل يطيعون أمر ربهم ، وان الله تعـــالى محيط بهم علما ، وانهم لا يشـــفعون إلّا باذنه ، وانهم يخشــــون ربهم؟ فكيف يعارضـــــونه؟ وانهم مجزيون على أعمالهم ، فلو قـال أحـدهم إفكا إنّه إله من دون الله يجزيه ربّه جهنم كما يجزي سائر الظالمين.

بينات من الآيات :

[21] من العوامل الــتي تبعد الإنســان عن إحساسه بالمســؤولية وتعطيه مــبررا لتنصــله عنها في الحيــاة هو الاعتقاد بإله غير الله ، أنى كـانت صـورة ذلك الإله ، وأنى كان اسمه.

بل إن تعلق الإنسان بـأيّ شـيء تعلقا ذاتيا بعيـدا عن الله ، يـــدعوه الى أن يتقـــرب الى ذلك الشـــيء ويجعله واســــطة بينه وبين الله في زعمه ، لا لشــــيء إلّا لكي يتخلص من ثقل المســؤولية ، ذلك لأنه من الصـعب جـدا على الإنسـان الاحسـاس بأنه مسـئول أمـام قـوة قـاهرة عليمة حكيمة محيطة به ، تجازيه على كلّ صغيرة وكبـيرة تبدر منه ، لذلك فهو يحاول ـ جهده ـ أن يتهـرب من هـذه المســؤولية ، ولو لا إحســاس المؤمــنين برحمة الله لما استطاع أيّ منهم أن يتحمل ضغط المسؤولية على قلبه.

والقرآن الحكيم يؤكد ـ المرة تلو الأخرى ـ على عـدم وجود أيّ شيء أو شخص يمكنه أن يقف أمام قدرة الله ، وذلك لكي يواجه الإنســان ربه عاريا عن كـلّ التــبريرات والحجج الواهية ، وبالتالي يصـبح جـديا في حياته ، ويـترك اللهو واللعب ، ومن ثمّ يتحمل هـــذا الحمل العظيم وهو أمانة المسؤولية التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها ، وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوما جهولا.

وتؤكد هـذه الآية إن الإله الحقيقي هو الـذي يسـتطيع أن يحـيى الأمـوات ، فهل هـذه الآلهة المزعومة تسـتطيع ذلـك؟ أم هل يقـدر أحد أن يـدعي ذلـك؟ كلا بل تـراهم يعـــترفون في لحظـــات الحاجة ، عن مـــدى ضـــعفهم واستكانتهم ، حتى إن نمرود الذي ادعى ـ مرة ـ إنه يحيى ويميت ، انهـار عند ما رأى النـيران الملتهبة ــ الـتي عمل جلاوزته المستحيل من أجل تأجيجها وتهيئتها لحرق شخص واحد ـ قد خمدت وتحولت الى برد وسلام على إبـراهيم ، فقـــال : من أراد أن يتخذ إلها فليتخذ مثل إله إبـــراهيم ، وكـذلك بهت حينما حـاجّ إبـراهيم في ربّه ، وذلك عند ما قال له : إنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فـأت به من المغرب.

كلّ شـيء في السـماء والأرض من أصـغر شـيء الى أكبر شيء ، دليل على وحـدة الربوبية في الوجـود ، حيث إن الانسجام والتناغم الدقيق الذي نـراه فيما بين الأنظمة المختلفة التي تحكم الكون دليل وجود مدبر له ، فالنظـام الذي يدير أضـخم المجـرات هو نفس النظـام الـذي يـدير الذرة الصغيرة المتواضعة.

يقـول الامـام عليّ (ع) : «ما دلّتك الدلالة إلّا على إنّ فـاطر النملة هو فـاطر النخلـة» ، بلى لأن النظـام الـذي يحكم الــدورة الحياتية في جسد النملة هو نفس النظــام الذي يحكم انتقال الماء والهواء والأملاح في هيكل النخلة.

(**أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ**)

وهكـذا تـبيّن هـذه الآية فكـرة وحدانية الله سـبحانه وتعـالى ، في حياتنا العملية وقد سـبق أن قلنا : إنّ توحيد الله سبحانه وتعالى ، توحيدا حقيقيا هو أحد أبــرز العوامل التي تساعد الإنسـان على تحمّل المسـؤولية في الحيـاة ، وهو ما تســعى الى ترســيخه ســورة الأنبيــاء ، كما إن الاعتقـاد بآلهة من دون الله هو أحد أبـرز التـبريرات الـتي تحول دون

تحمّل المسؤولية.

[22] (**لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا**)

لو كان في السماوات والأرض آلهة غـير الله سـبحانه وتعالى ، إذا لاضطرب النظـام فيهما ، لأنّ تعـدد السـلطة يسـبب فسـاد المملكة واختلال أمورها ، جـاء في حـديث نجده في كتاب التوحيد باسناده إلى هشـام بن الحكم في حديث الزنديق الـذي أتى أبا عبد الله (ع) وكـان من قـول أبي عبد الله له : «**لا يخلو قولك : إنّما اثنـــان من أن يكونا قـديمين قـويين أو يكونا ضـعيفين أو يكـون أحدهما قويا والآخر ضعيفا ، فإن كانا قـويين فلم لا يـدفع واحد منهما صـاحبه وينفـرد بالتـدبير ، وإن زعمت إن أحدهما قوي والآخر ضـعيف ثبت إنّه واحد كما نقـول ، للعجز الظـاهر في الثـاني ، وإن قلت : إنّهما اثنـان لا يخلو من أن يكونا متفقين من كـلّ جهة أو متفـرقين من كـلّ جهة ، فلما رأينا الخلق منتظما ، والفلك جاريا ، واختلاف الليل والنهـــار والشـمس والقمر دلّ صـحة الأمر والتـدبير وائتلاف الأمر إنّ المـدبر واحد ، ثمّ يلزمك إن ادّعيت إثـنين فلا بدّ من فرجة بينهما حـتى يكونا إثـنين ، فصـارت الفرجة ثالثا بينهما قـــديما معهما ، فليزمك ثلاثة ، فـان ادّعيت ثلاثة لزمك ما قلنا في الاثـنين حـتى يكون بينهما فرجتان فيكون خمسا ، ثمّ يتنـاهى في العدد الى ما لا نهاية في الكثرة**» (1)

هذا من الناحية العقلية ، أما من الناحية النفسية فـان فكرة تعدد الآلهة جاءت لتعكس حالة التبرير والصراع عند البشر ، ذلك إن الأسـاطير الـتي تتحـدث عن تعـدد الآلهة وإن كانت خرافة وبعيدة عن الحـقّ والحقيقة إلّا إنّها تمثل انعكاسا لنفسـية واضـعيها والمعتقـدين بها ، لـذلك فباستطاعتنا أن نكتشف من خلالها طبيعة البشر عبر

(1) نور الثقلين / ج 3 ـ ص 417 ـ 418.

الأزمنة المختلفة ، ونصل الى قناعة بأنّه وإن تغـــــــيرت صورة الإنسان وأشكال حياته فان طبيعته لم ولن تتغير.

والأســـاطير دائما تقصّ علينا قصص الآلهة المزعومة وهي تقاتل بعضـــها أو لا أقل تتنـــافس مع بعضـــها في السلطة وتقـرّ بـأن كـلّ إله له تفكـير وإرادة يختلف تماما عن شركائه الآخرين.

مثلا يزعم المجوس وجود إلهين كبـيرين هما : (أهـور مـردا) إله الخـير و (أهـريمن) إله الشر ، (أهـريمن) هـذا خلق الشر ، فخلق (أهـــور مـــردا) الخـــير مضـــادا له ، والصــراع قائما بينهمــا. وفي بعض المــذاهب المســيحية المنحرفة نـرى هـذه الأسـطورة أيضا ، وهي إنّ الأب يريد أن يعذب الناس ، فيأتي الابن ويشفع لهم رغما عن أبيه!

وفي الأســاطير اليونانية القديمة كثــيرا ما نقــرأ عن معـــارك طاحنة تجــري بين الآلهة في الســـماء. ومن هنا نعــرف إنّ فكــرة تعــدد الآلهة نابغة من حالة الفــرار عن المســؤولية والبحث عن ملجأ موهــوم يخلص الفــرد من ثقل الجزاء ، وإن الزعم بتعدد الآلهة يعكس حالة الصــراع الـداخلي بين الشـهوات والعقل ويـأتي لتـبرير الشـهوات التي تـأمر بها النفس الأمـارة أمـام العقل النـاهي عنها أو النفس اللوامة.

إنّ كـلّ ذلك دليل على إنّه إذا كـان الآلهة متســالمين مع بعضـهم البعض إذا لم تكن هـذه الحاجة المزعومة الى الآلهة المتعـددة ، لان احتيـاج الإنسـان المزعـوم للاعتقـاد بتعدد الآلهة ينعدم آنئذ.

لذلك نرى القرآن الحكيم يبيّن بأن فكـرة تعـدد الآلهة المنعكسة عن تنـــاقض الـــذات ، والـــتي تعتقد بـــأن في السماوات والأرضين آلهة متصارعة إنّما هي فكـرة خاطئة لأن وجـود سـلطات متصـارعة في الكـون يـؤدي لفسـاده واختلال نظام

الموجودات.

(**فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**)

رب العرش رمز لإله السماوات والأرض وكلّ شيء ، والعرش يعـني القـدرة والهيمنة ، وليس هو مكـان يجلس عليه ربنا ســبحانه وتعــالى ، ولعــلّ هــذه الخاتمة البليغة توحي بأن عدم معرفة الله هو السبب لتصور شــريك له ، إذ أن الزعم بوجود شـريك للـرب دليل على جهل صـاحبه بأن الله سبحانه هو الملك الجبار الذي لا يغلب ســلطانه ، ولا يمكن الفرار من حكومته.

[23] ودليل قــدرة الله المطلقة وســلطانه الشــامل العظيم إنّه فــوق الســؤال ، وإنّه لا أحد يخــرج عن إطــار المسؤولية أمامه :

(**لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ**)

[24] (**أَمِ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِــهِ آلِهَـةً قُـلْ هـاتُوا بُرْهانَكُمْ**)

كما إننا نــأتي بالبرهــان والــدليل على ألوهية الله ، فعليكم أيها المشركون أن تأتوا ببرهان ودليل على ألوهية آلهتكم. وإنّ هذه الآية توحي بفكرة هامة وهي : إن الـذين يدعون وجود إله غير الله سـبحانه وتعـالى ، إنّما يزعمـون ذلك انطلاقا من أهواء نفسـية يـبررون بها عـدم الـتزامهم بمسـؤولياتهم أمـام الله ، فـاذا طـالبتهم ببرهـان عقلي أو حجة منطقية فسيعجزون عن ذلك وتتبخر دعاويهم ، حيث لا تصمد ظلمات أنفسهم أمام وهج الحقيقة.

(**هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي**)

هذه ليست فكرة جديـدة موضـوعة في رسـالة السـماء ، فكلّ الرسالات الالهية تؤكد على وحدانية الله.

ومن عوامل الضـلالة النفسـية ، إحسـاس الإنسـان بضرورة التوافق الاجتماعي ، والقرآن الحكيم يذكرنا هنا ـ وفي آيات عديدة ـ بأنّ كثرة الضالين ليست دليل صدقهم ، بل الحقّ المدعم بالبرهان العلمي هو المقياس ..

(**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ**)

[25] وإذا كـان النـاس في بلد (مثل مكة يـوم نـزلت فيها هـذه الآيـات) يشـركون بالله ، فـان هـؤلاء هم خط الضلالة ، وفي مقابلهم صراط الهدى أقدر وأعمق جذورا.

(**وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُـوحِي إِلَيْـهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**)

إن رسـالات الله لا تختلف في فكـرة التوحيد ، وما نـراه في بعض الـديانات من تعـدد الآلهة إنّما هو نتيجة التشويه ، والتحريف الـذي طـرأ عليها ، وإلّا فـان اليهودية الحقيقية والمسيحية الأصلية وكلّ ما سـبقها من الـديانات إنّما هي كالإسـلام تـدعو الى توحيد الله ، وعـدم عبـادة غـيره بـأيّ حـال من الأحـوال ، وبأيّة صـورة من الصـور ، وسواء بشكل مباشر أو غير مباشر.

شفاعة الرسل :

[26] (**وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ**)

هنـاك أنـاس طيبـون صـالحون ، ولكن هـؤلاء ليسـوا أولادا لله ، إنّما هم عبـاد الله ، وإن صـفتهم الوحيـدة هي صفة الكرامة من الله ، فلا تتصور ـ أيها الإنسان! ـ أن

يأتي أحد من هؤلاء يوم القيامة لينقذك من عـذاب الله إذا كنت أسخطته في حياتك.

[27] (**لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**)

عبـاد الله لا يقولـون الكلام الـذي لا يقوله الله ، فهم امتـداد لرسـالة الله وسـلطته لـذلك فـإنهم لا يشـكلون تناقضا مع ألوهية الله وسلطته المطلقة.

[28] (**يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْـــــدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى**)

في بعض الحكومات الفاسدة ، تفرض السلطة قانونا ما ، ولكن أيّ متلاعب يستطيع خرق هذا القانون بأن يضع مبلغا من المـال في يد أحد المسـؤولين ، فيسـاعده على مخالفة هذا القانون والالتفات حوله.

ولكنّ الإنسان لا يستطيع أن يفعل مثل ذلك أمام الله وســننه ، فملائكة الله وعبـــاده المكرمـــون لا يأخـــذون الرشوة ، ولا يحـاولون أن يفعلـوا أيّ شـيء خـارج نطـاق مشيئة الله سبحانه.

(**وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**)

الرسل والملائكة هم بدورهم يخافون الله ، ويعرفـون إنه محيط بهم فكيف يشـــفعون لأحد ويدخلونه الجنّة من دون أمر الله وعلمه؟!

جاء حديث مأثور عن النـبي (ص) في ذكر ما رأى في المعراج وفيه قال (ص) :

«**ثمّ أمررنا بملائكة من ملائكة الله عـــــزّ وجل خلقهم الله كيف شاء ، ووضع وجوههم كيف شـاء ، ليس شيء من أطباق أجسـادهم إلّا وهو يسـبح الله ويحمده**

من كـلّ ناحية بأصـوات مختلفة ، أصـواتهم مرتفعة بالتحميد والبكـاء من خشـية الله ، فسـألت جبرئيل عنهم فقال : كما ترى خلقـوا ، إن الملك منهم الى جنب صــاحبه ، ما كلمه قط ، ولا رفعــوا رؤوســهم الى ما فوقها ، ولا خفضـــوها الى ما تحتها ، خوفا وخشـــوعا ، فسـلمت عليهم فــردوا عليّ إيمـــاء برؤوسهم ولا ينظرون إليّ من الخشوع ، فقال لهم جبرئيل : هــذا محمد نــبيّ الرحمة أرســله الله الى العباد رسولا ونبيا ، وهو خاتم النبيين وسـيدهم أفلا تكلموه؟ قال : فلما سـمعوا ذلك من جبرئيل أقبلـوا عليّ بالســلام وأكرمــوني وبشــروني بــالخير ليّ ولأمتي» [1]

إذا لتسقط كلّ التـبريرات السـخيفة الـتي يحـاول بها الإنسـان تـبرير تنصـله من مسـئوليات أفعاله في الـدنيا ، وليبقى عاريا أمام أعماله ، وآنئذ فقط يصــلح عمله وتزكو نفسه.

[29] إن أولئك الذين لهم مـيزة في الحيـاة من عبـاد الله الصالحين ، إنّما هم مكرمون بعبادتهم لله وخضـوعهم لحاكميته المطلقة ، ولو قـال أحد منهم بـأنّي إله من دون الله للقي مصير الظالمين.

(**وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَـذلِكَ نَجْزِيـهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**)

فلا يمكن إذن أن نتوسل بآلهة أخـــرى لتنقـــذنا من عـذاب الله ، وهكـذا يهـدم القـرآن فكـرة الأصـنام الـتي يتشبث بها الإنسـان لكي يبعد نفسه عن المسـؤولية ومن ثمّ الجزاء.

---

(1) نور الثقلين / ج 3 ـ ص 417.

أَوَلَمْ يَــرَ الَّذِينَ كَفَـرُوا أَنَّ السَّــماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُــونَ (30) وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِــيَ أَنْ تَمِيــدَ بِهِمْ وَجَعَلْنا فِيها فِجاجـاً سُـبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَـدُونَ (31) وَجَعَلْنَا السَّـــماءَ سَـــقْفاً مَحْفُوظـــاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُــونَ (32) وَهُــوَ الَّذِي خَلَــقَ اللَّيْــلَ وَالنَّهــارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُـلٌّ فِي فَلَـكٍ يَسْـبَحُونَ (33) وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ (34) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْــرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُـونَ (35) وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَـرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً

31 [فجاجا] : الفجاج جمع فج ، وهو الطريق الواسع بين جبلين

أَهــذَا الَّذِي يَــذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِــذِكْرِ الــرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ (36)

---

36 [يذكر آلهتكم] : أي يقول إنّها لا تنفع ولا تضر.

كل شيء يقول : الحياة جدّ لا لعب

هدى من الآيات :

توحي آيات هذا الـدرس ، بـأن الحيـاة كلها مبنية على أسـاس الحـقّ ، وبحكمة بالغة ، ولغاية محـدودة ، ونظـرة واحـــدة من الإنســـان لما حوله من المخلوقـــات كافية لإقناعه بأن لكلّ شيء هدفا لا يشذ عن ذلك مخلوق أبدا ، وان كـلّ شـيء بقـدر وحسـاب ، فالجبـال الراسـيات لها هـدف ، وكـذلك سـقف السـماء ، ولو تمعنّا قليلا لوجـدنا الشـمس والقمر يسـبحان في فلك معلـوم ويسـيران نحو هدف محدد وبصورة منتظمة.

وعلى الإنســان أن يبحث عن فلكه (وهو الحــقّ) وأن يســير ضــمنه لا يحيد عنه ، ولا يتــأتى ذلك إلّا حين يعــود البشر الى فطرته ، ويتفكر فيما حوله ، لـــيرى : إنّ وراء هـذا الخلق تقـديرا وتـدبيرا دقيقين ، وهـذا التفكـير يقودنا الى الحقّ الذي يجب أن نتمحور حوله ، وبالمسؤولية التي تنعكس من خلاله على أنفسنا ، إذ ما دام هناك حقّ فأنت

مسئول أمامه ، ولا بدّ أن تسير في حياتك باتجاهه.

ويبين لنا القـرآن في هـذه الآيـات بـأن بداية الإنسـان تمت بحقّ ، ونهايته كـذلك حـقّ ، فهل يسـتطيع أن يهـرب من المــوت أحــد؟ وما دامت البداية والنهاية ليســتا بيد الإنسـان ، فاسـتمرارها كـذلك ليس بيـده. إذن فلا بـدّ أن يتكيف مع الحقّ ، وذلك عبر الجدّية في تحمّل المسؤولية.

بينات من الآيات :

[30] (**أَوَلَمْ يَــرَ الَّذِينَ كَفَــرُوا أَنَّ السَّــماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما**)

أي كانتا متصـلتين ففصـلهما الله عن بعضـهما ، كيف كــانت الســماوات والأرض متصــلة ففصــلت ، (رتقا ثم فتقا)؟

والجواب :

أولا : لقد كانت المادة الأولى التي خلقها الله سبحانه ، وكـان عليها عـرش قدرته وسـلطانه ، ذات كتلة شـديدة التركيز ، فأحدث الربّ فيها انفجارا هـائلا ، لا يـزال صـداه منتشرا في أطراف الفضاء برغم مـرور (15) مليـار سـنة عليـه. كما تقـول نظريـات العلم الحـديث ، وتضـيف : إنّ الكـون لا يـزال في اتسـاع ، ولا تـزال أجهـزة التلسـكوب التي تغـور بنا في عمق الفضـاء الـرحيب ، تكشف لنا عن مجرات ناشئة أو هي في طور الخلق.

وإنّ نظرة علمية الى هـذه الحقـائق كفيلة بـأن تبلـور في نفوسنا فطرة الإيمان.

ثانيا : وآية واضـحة من تجليـات هـذه الحقيقة ، نراها في ظاهرة الأمطار ، كيف

كـانت السـماء رتقا لا تمطر وكيف كـانت الأرض رتقا لا تنبت ففتقهما الرب. [1]

وهكـذا يخـرج الله الخبء في السـماوات والأرض ، ويفتق ما رتق من الأشياء باسـتخراج كنوزها ، واسـتظهار مكنونها ، سبحانه.

إذن فالحيـاة ليست لعبا ولا لهـوا كما يزعمـون ، بل لكـلّ شـيء هـدف ، وعلى الإنسـان أن يشـخص هدفه ويسعى نحوه.

(**وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ**)

لقد تمّ خلق الكـون بـالفتق بعد الرتق ، والفصل بعد الوصل ، أما وجـود الحيـاة فـوق الأرض فتمّ عن طريق الماء ، وهذه هي الأخـرى من أحـدث النظريـات العلمية ، والماء يشـكل (70 خ) من وجـود الإنسـان ، وبالـذات من وجود المخ الذي تتجلى فيه الحياة بأبرز صورها.

[31] (**وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ**)

تقـوم الجبـال بـدور الرواسي وهي الثقل الـذي يثبت الأرض كما تثبت المرساة السفينة.

إنّ الجبـال أشـبه ما تكـون بـدرع واقية ، تلف حـول الأرض ومن أعماقها لتحافظ على توازنها :

أولا : في مواجهة الرياح والعواصف الـتي تتعـرض لها الأرض.

ثانيا : بمقاومة الزلازل العاتية التي يتعـرض لها كوكبنا بسبب ضغط الغازات

---

(1) انظر نور الثقلين / ج 3 ـ ص 424 ـ 426.

التي في جوفها.

ثالثا : لتخفيف أثر جاذبية القمر على اليابسة كما تؤثر على مياه البحر.

أرأيت كيف وضع الله هـــذه الجبـــال في مواقعها ، وكيف ربطها ببعضـــــــها في دقة ومتانة ، وكيف ألزمها مواضـــعها؟ فهل لك أن تختـــار لنفسك اللعب واللهو .. وتزعم أن لا هدف وراء حياتك؟

(**وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**)

وبين هـذه الجبـال طـرق يتحـرك النـاس عبرها من مكـان لمكـان ، ويتفاعل أهل كـلّ طـرف مع الآخـرين ، ولهذه الطرق فائدتان :

الأولى : الاهتـداء من خلالها الى الأهـداف والأمـاكن التي ينشدها الإنسان.

الثانية : الســير عبرها والاهتــداء بها الى معرفة الله عن طريق التفكر في الجبال التي تحفهـا. وكلمة «**لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**» تحتمل المعنيين معا.

[32] (**وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً**)

حينما ننظر الى السماء سـواء نظـرة بدائية كما كـان ينظر إليها آباؤنا قبل ألف عام ، أو نظـرة علمية كما يراها العالم الفلكي اليوم ، فاننا نرى الأجرام الكثيرة تسبح فيها صغيرة وكبيرة ، وبعضـها ذو خطر علينا فمن الـذي حفظنا من هذه الأخطار؟!

إن البـــدوي في الصـــحراء عند ما يـــرى النـــيران في السماء ليلا يســميها شـهبا ، أما عـالم الفلك فيعـرف بأنها قذائف ضخمة ، لو لا الغلاف الواقي حـول الأرض لـدمرت الأرض تـدميرا ، فمن الـذي جعل السـماء سـقفا محفوظا غير الله؟!

ففي كلّ يوم يتوجه عشرون مليون جــرم الى الأرض بسرعة خاطفة ، تبلغ حوالي 50 كيلومترا في الثانية ، ولو لا السقف المحفوظ الذي يحيط بـالأرض لكـانت الصـخرة الصـغيرة منها والـتي تبلغ حجمها واحد من ألف جــزء من الغرام ، ذات أثر هـدام بسـبب سـرعتها الفائقة الـتي تبلغ سـرعة نـواة القنبلة الذرية ، كيف وان بعضـها يبلغ قطرها عشرات الكيلومترات؟!

ولقد حفظ الله ـــ برحمته ـــ الكـــرة الأرضــية منها بالغلاف الواقي المكوّن من الغـازات الـتي تـذوّب أو تبخّر ما يصل إليها من هذه الأجرام الخطيرة.

كما تتعرض الأرض لأمواج هائلة من الأشعة المضرّة ، سـواء منها تلك الـتي تبعثها الشـمس أو تقـذفها النجـوم الأخرى ، فيقوم الغلاف الواقي بدور المصـفاة حيث تـأذن لما ينفع منها الأرض بــــــالمرور من خلالها وتمنع القسم الخطـير منها .. ولو انخـرق هـذا الغلاف ، بقـدر كيلومـتر واحد ، لكانت آثار الأشعة الكونية على الأرض مدمرة.

أو ليس الحكمة الالهية مشـــــهودة من وراء هـــــذا السقف المحفوظ؟ أو كان خلق السماوات والأرض لعبا؟! سبحان الله عما يصفون.

إنّ الغلاف الــواقي يقــوم أيضا بحفظ حــرارة الأرض على مقياس معين ينفع الناس والأحيـاء ، ولـولاه ، لكـانت أمواج الحرارة تحرق الرطب واليابس. كما إنّه يقــوم أيضا بادخار كميات من الميـاه المتبخـرة لنقلها من المحيطـات الكبيرة الى الصـحاري .. أو ليس كـلّ ذلك شـاهد صـدق ، على إنّ الله لم يخلق الحياة عبثا؟ سبحانه. [1]

(**وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ**)

---

(1) راجع تفسير «نمونه» / ج 13 ـ ص 400 ـ 402.

فبالرغم من كلّ هذه الآيات التي بثّها الله في السماء ، فان الناس يعرضون عنها ، لا لأنهم لم يـزودوا بالبصـيرة الكافية لوعيها ، ولكن لأنهم يعرضون عنها تعمدا.

[33] (**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ**)

وهذه الآية تشير الى الزمن ، ولقد وصل العلمـاء الى صـنع سـاعة تقيس الـزمن بدقة فائقة تصل الى واحد من ألفي جـزء من الثانية ، ومقيـاس الليل والنهـار الزمـني لا يتغير ولا بمقدار جزء من هذه الألفين أو أقل ، وليس ذلك إلّا دليلا على إنّ خلق الكون لم يكن عبثا ، وهكذا يجب أن تكـون حياتنا قائمة على أسـاس الدقة والجدية ، وتكـييف النفس مع حقائق الحياة.

إنّ جوهر الحقّ والمسؤولية في الحياة هو البحث عن الهدف ، والسعي الحثيث نحوه.

(**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**)

هما يسبحان ويتحركان والبشر أيضا يتحرك ، ولكن لا بدّ أن تكون حركته ضـمن إطـار وخطة من أجل الوصـول الى شيء ، لأن الحركة من دون هدف لعب ولهو.

سنة الموت :

وتتجلى جدّية الحيــاة ، وانها ليست لعبا ولهــوا ، في أمــرين : المــوت ، والابتلاء. ولقد جعل الله المــوت حتما على البشر :

[34] (**وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ**)

فكلّ النـاس ميتـون ، ولعـلّ الأدب القـرآني السـامي يــذكر هنا ضــمير المخــاطب ليجعلنا جميعا في جو رهيب بحيث نشـــعر بمــــرارة النهاية لكي لا نلعب ولا نلهو في الحياة.

وما دام الرسول وهو أكـرم الخلق على الله قد مـات فهل يخلد أحد بعده؟!

[35] (**كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ**)

وتعبـير ذائقة يقـرب المعـنى للـذهن أكـثر ، إذ يصـور الموت وكأنه شربة يذوقها الجميع ، لكي نتحسس بمـرارة الموت عن طريق التذكر المستمر له ، ولعـلّ الآية تـوحي بأنه ليس هناك إنسـان إلّا ويتحسس المـوت بـوعي تـام ، حتى لو كان الموت قد وافاه أثناء نومه.

بلى لا بـدّ أن نتـذوق جميعا كـأس المـوت غصة بعد غصة ، أفلا نعتـبر بمن مضى منــا؟ ومن لم يتعظ بهــذه النهاية الرهيبة فبم ـــ يا تـرى ـــ يعتـبر؟ لقد قـال أمـير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ يوما وقد تبع جنـازة فسـمع رجلا يضـحك ، : «**كـأن المـوت فيها على غيرنا كتب ، وكــأن الحــقّ فيها على غيرنا وجب ، وكــأن الــذي نسـمع عن الأمـوات سـفر عما قليل إلينا راجعـون ، نــواريهم أجـداثهم ، ونأكل تــراثهم ، كأنا مخلــدون بعدهم ، وقد نسينا كلّ واعظة ورمينا بكـلّ جائحة**» (1)

(**وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ**)

الخـير أفضل من الشّـر ، ولكن القـرآن يـأتي بـذكر الشـرّ قبل الخـير ليـبيّن لنا بأننا محكومـون بـإرادة الله ، فلنتكيف مع هذه الارادة. ولكي نعي حقيقة هامة تبين

---

(1) نــور الثقلين / ج 3 ـــ ص 428. وفي الأصل نـــريهم ولعله خطأ مطبعيّ ، والجائحة : النازلة والشدّة.

الآيات الوجه المشترك لظواهر الحيـاة المختلفة ، فمع أن الشّر يختلف عن الخير في ظـاهره ، إلّا انهما يلتقيـان في نقطة واحــدة هي إنهما لبلاء الإنســان حيث يتقلب البشر بين الخـــير والشر ، بين العافية والمـــرض ، بين الغـــنى والفقر ، والأمن والخـــوف و.. و.. ولا حيلة له فيهـــا. فهل رأيت مريضا يحب الاســــــتمرار في زوبعة الألم ، أم هل صادفت فقيرا يستمرئ البقـاء في سـواد الفقر ، أو خائفا لا يريد التخلص من ضـــائقة الخـــوف؟ ، ولكن تــدبير الله المحيط بنا يقلبنا بين الشر والخـــير ليفتننا بهما ، ثمّ يبعثنا إليه ليحاســبنا ، أفلا نوقظ أنفســنا من نومة الغــافلين؟! لكي لا نتخذ الحياة لهوا ولعبا.

وما دامت نهاية الإنســان الى الله ، فهو مســئول أن يجيّر كـلّ الظـروف ، خيرها وشـرها ، في صـالح الهـدف الأســمى ، ويفكر في المســتقبل بــدل أن يتــأثر ســلبا بـالظرف الـذي يعيشه خـيرا أو شـرا تـأثرا آنيا ، فيطغى بسبب الخير ، أو ينهزم وينحرف بسبب الشر ، وهــذه من طبيعة الإنسان فهو ينسى أهدافه بسبب ظروفه المحيطة به.

ولا ريب إنّ الـذي يعي حقيقة البعث يكـون بعيـدا عن اللعب واللهو.

[36] (**وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَــرُوا إِنْ يَتَّخِــذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الـرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ**)

مع هــذه الآيــات الجلية في الآفـاق ، وفي أنفســهم ، تجد الكفـار يسـتهزئون بـالحقّ ويتخذونه لعبا ، أمّا القـرآن فيبيّن بأن الحقّ لا ينبغي أن نســتهزئ به ، لأنه ينتقم ممن يستهزئ به قريبا أو بعد أمد محدود.

وكم هو صلف هذا الإنسان ، ففي الوقت الــذي يتميّز غضبا حين يسـمع إنّ الرسـول يـذكر آلهتهم الـتي لا تغـني عنهم شيئا ، ويتساءل : هذا هو الشخص الذي يــذكر الآلهة (ولا ينقل كلام الرســـــول فيها احتراما لهــــا) ، في ذات الوقت تراه يكفر بالرحمن الذي أسـبغ عليه نعمه ظـاهرة وباطنة؟!!

خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (37) وَيَقُولُونَ مَتى هـذَا الْوَعْـدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (38) لَـــوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَـــرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُـوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُـورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَـرُونَ (39) بَلْ تَـأْتِيهِمْ بَغْتَـةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْـتَطِيعُونَ رَدَّها وَلا هُمْ يُنْظَـرُونَ (40) وَلَقَـدِ اسْـتُهْزِئَ بِرُسُـلٍ مِنْ قَبْلِـكَ فَحـاقَ بِالَّذِينَ سَـخِرُوا مِنْهُمْ ما كـانُوا بِـهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (41) قُلْ مَنْ يَكْلَـؤُكُمْ بِاللَّيْـلِ وَالنَّهـارِ مِنَ الـرَّحْمنِ بَـلْ هُمْ عَنْ ذِكْـرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُـونَ (42) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ

---

40 [فتبهتهم] : فتحيّرهم.

42 [يكلؤكم] : يحفظكم ، من كلا بمعنى حفظ.

أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (43) بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَفَهُمُ الْغالِبُونَ (44) قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ (45)

خلق الإنسان من عجل

هدى من الآيات :

هناك حواجز نفسية تمنع تحسس الإنسان بمسؤوليته الكـبرى في الحيـاة ، وتدفعه الى اللهو واللعب ، وتحجبه عما تمليه الرسـالة الالهية من توجيهـات ومواعظ ، ومن تلك الحواجز النفسية التي يعالجها القرآن الحكيم هنا :

أولا : حالة الاسـتعجال عند الإنسـان. حيث يعتقد بـأن تأخر الجزاء دليل على أن العمل لا يستلزم الجزاء ، وهـذا يمنعه من التفكير الجدّي في الحياة ، لأن أكثر الأعمـال لا يأتي جزاؤها إلّا بعد حين ، حسب حكمة الله وتقديره.

ثانيا : الشـرك. وهو من الحجب النفسـية الـتي تمنع الإنسـان من الإيمـان بمسـؤوليته الملقـاة على عاتقه ، والذين يشركون بالله بأي شـكل وتحت أيّ عنـوان كـان ، إنّما يهـدفون أساسا الى التخلص من مسـئولية التوحيد ، والتي تتطلب قـدرا من التضـحية والصـبر ، وتحـدّى عامل الزمن ، ولكنهم بعدولهم من الحقّ الى الباطل ، يعرّضون أنفسهم للجزاء المرهق والعذاب الدائم ، في مقابل راحة وقتية وهمية ركنوا إليها

بجهلهم وحمقهم.
ثمّ يشير القرآن الى فكرة هامة وهي إنّ الجزاء يأتي في اللحظـات الـتي يـزداد فيها غـرور الإنســان بنفسه ، فـــالمجتمع في بداية حياته يكـــون حـــذرا ، ولكن عند ما يطول عمره ، وتكـثر النعم والخـيرات عنـده ، فانه ينسى حـــذره ويركبه الغــرور ويعتقد : إنّ ما عنـــده من الراحة والمتعة سيكون أبديا ، ومع استمراره في الحياة ، وازدياد غروره ، فان سلبياته تتكاثر ويزداد ظلمه ، فيـتراكم جـزاء أعماله وفي لحظة واحدة ، يفاجؤه الجزاء ويدّمر عليه كلّ شـــيء ، وهــذا قــانون اجتمــاعي ثــابت لا يســتثني منه مجتمعاتنا في هذا الزمان.

بينات من الآيات :

[37] يســتعجل الإنســان الجــزاء لأنه خلق من عجل ولكن ما هو العجل ، وكيف خلق الإنسان منه؟

بعضهم قال إنّ العجل الـذي خلق منه الإنسـان صـفة له ، وكأن الله سـبحانه وتعـالى أراد أن يركز الضـوء على خاصية بشرية في خلقة الإنســان وتكوينه ، وليست صــفة عارضة تكتسب من البيئة المحيطة به.

وبعضــهم قــال إنّ المقصــود بالعجل الطين ، أي إنّ الإنســان قد خلق من مــادة دنيئة ذات صــفات ســلبية ، ولـذلك فهو يتعجل الأمـور ولا يملك الصـبر عليها بطبيعته المادية المحضة.

ويبـدو إنّ العجل يعـني شـيئا آخـرا أبعد أفقا ، وأكـثر عمقا ، وهو إنّ الـزمن قد جعل من عوامل خلقة الإنسـان وأحد عناصره ، شأنه شأن كلّ مظاهر الطبيعة المســخرة له ، فكلّ المخلوقات والموجـودات الـتي نراها في أرضـنا وسمائنا ، يشكل الزمن جزء من

طبيعتها وتركيبها.

ولقد كشـفت لنا الفيزيـاء الذرية عن هـذه الحقيقة ، بسلسـلة من التجـارب العملية ، حـتى لم يعد يحيط بها غموض ، وقبل ذلك أشارت إليها جملة من الآيات القرآنية ، منها «**خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**» ويبدو من الآية إنّ الله جلّ شأنه جعل الـزمن جـزء من الخليقة حيث مرت بعدة مراحل الى أن أخذت شكلها النهائي.

وهكذا فالإنسان يحسّ بالزمن لأنه عنصر أساسي في خلقته الطينية المادية ، ولولا روح الإنسان وقيم الرسالات الالهية الـتي تبلـور هـذه الـروح وتعطيها خصـائص عالية ، لكان الإنسان يعيش لحظته وحـدها ، ولما كـان يتطلع الى المستقبل أو يرى الآفاق البعيدة للحياة.

وهكـذا يريد القـرآن أن يخبرنا بـأن هـذه الطبيعة البشرية الـتي يشـكل الـزمن جـزء منها ، هي الـتي تـدعو الإنسـان الى اللامسـؤولية ، لأنه يعيش بطبيعته لحظته وحـدها ، وبالتـالي يعجز عن إدراك حتمية الجـزاء ، الـذي يتطلب مقـدارا معينا من الـزمن ، لكي يتحقق ويأخذ مجراه.

إنّه ينتظر جزاء عاجلا وقريبا لأعماله ، فـاذا تـأخر عنه فترة ، قد تطـول أو تقصر ، قـال : لا جـزاء ، وطـبيعي إن من ينكر الجـزاء ينكر المسـؤولية كـذلك. مثلا إذا ظلمت السلطة شعبها فثـار بعد عشـرين عاما ، لا يقـول رجالها : إنّ هذه الثورة انفجرت بسبب ذلك الظلم ، ولا يرون أيضا ذلك الظلم ، ولا يـرون أيضا ذلك الارتبـاط الوثيق بين الأمرين ، بل إنهم يأخذون بـالبحث والتفـتيش عن أية علّة ليقولوا : إنّ الثورة جاءت من الخـارج ، في حين إنّ العلة الحقيقية تكمن في الداخل ، وبالذات في جهاز الحكم

الفاسد ، فهم لا يفكـــرون إن ظلمهم ســـوف يولّد حركة ثورية تتنامى ، وتنتشر ، وتتحول الى بركان مـدمر ولو بعد حين.

والقرآن الحكيم ينبهنا بأنكم ، سواء عشتم مستقبلكم أم لا ، وآمنتم به أو كفـرتم ، فـان الجـزاء سـيأتي حتما ، وسوف يحيط بكم عذابه ، وما دام المسـتقبل حقا فلا بـدّ أن نؤمن به ، متحدين بذلك كلّ الضغوط التي تواجهنا في الحياة ، وعلى رأسها طبيعتنا البشرية الاستعجالية.

إنّ الذي ينكر الجزاء ، بأن يسلم قيادته لنفسه النزقة المتعجلة ، يسـلب الله منه عقله وبصـيرته ، ويسـتدرجه شـيئا فشـيئا ، فلا يشـعر إلّا والعـذاب مطبق عليه بغتة ، سواء كان ذلك عذاب الساعة أو ما هو دونها ، فالطاغوت الحاكم يفقد تمييزه للأمـور ، وتبصـره بـالعواقب فيسـتمر في سياســـته الخاطئة ، وإذا به يصـــحو يوما ليجد نفسه ملقى عن عرشه ، كشـــاه إيــران ، أو ممزقا برصاصـــات المجاهدين ، كفرعون مصر.

وكــذلك بالنســبة لبعض المجتمعــات البشــرية الــتي تــراكمت أعمــال أفرادها الســيئة حــتى أحــاطت بهم ، استهزءوا برسلهم أو بمن يمثلهم من الأوصـياء والعلمـاء ، واتخـــذوا ما جـــاءوهم به لهـــوا ولعبا ، فقد حـــاق بهم ما استهزءوا به وأزال حضارتهم.

وكثيرا ما نجد القرآن الحكيم يتحدث عن المجتمعــات وليس الأفـــراد ، مما يثـــير الســـؤال التـــالي : ما دامت المسؤولية هي مسئولية الفرد فلما ذا يحدثنا القـرآن عنها بصيغة المجموع؟

والجواب : إن ذلك لسببين :

الأول : إن مسـئولية الفـرد لا تقتصر على حـدود ذاته الضيقة ، وإنّما تمتد لتشمل

المجتمع الــذي يعيش فيه ، لأن أكــثر أعمــال النــاس هي أعمـال اجتماعية ، وجزاؤها لا بـدّ أن يكـون جماعيا أيضا ، وذلك لطبيعة التواجد في مكــــان واحد والتفاعل نفســــيا وماديا بين النّاس.

الثاني : هو إنّ جزاء الأفراد ــ عـادة ــ لا يـرى ، إننا لا نستطيع مثلا أن نحيي شابا مات في مقتبل عمره لنسـأله ما هي أعمالك الســيئة الــتي أدت بك الى هــذه النهاية ، وبالتالي نعـرف إن ميتته المنكـرة كـانت جـزاء لانحرافه ، وسوء مسلكه ، أما المجتمعـات فأعمالها تكـون ظـاهرة ، وآثارها واضحة ، لذلك يضرب القرآن بها أمثالا لنعتبر بها.

إنّ هــذه المجتمعــات لم تــؤمن بــالجزاء ، فاتخــذت المســؤولية لهــوا ولعبا ، فأحــاط بها كفرها حــتى أزالها ، وعند ذلك لم تنفعها الآلهة الــتي اعتمــدت عليها من دون الله.

(**خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ**)

أن تعجل الأمور ، وعـدم الاصـطبار على الـزمن ، هو من طبيعة الإنســان ، ومن العناصر الأساسـية في تكـوين خلقته.

(**سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ**)

ســـتأتي آيـــات العـــذاب وســـترونها حتما ، فلما ذا العجلة؟!

[38] (**وَيَقُولُــونَ مَــتى هــذَا الْوَعْــدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

إنّهم كلما ســمعوا وعظا وتــذكيرا من أحد قــالوا أين ذلك الجزاء الذي تعدنا بـه؟! لو كـانوا يعلمـون إنّ الجــزاء الذي يستعجلونه شديد ، وإنّه حين يحيط بهم لا

يمكنهم الفـــرار منه بأية صـــورة كـــانت ، لما لجـــأوا الى السخرية والاستهزاء ولما لوّوا رؤوسهم معرضين.

جزاء الاستهزاء :

[39] (**لَـوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَـرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ**)

وهما المنطقتان الحساستان من الإنسـان ، وفي ذلك إشارة الى شدة العذاب وإحاطته.

(**وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ**)

فلا تنصرهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها ويخضــعون لها من دون الله.

[40] (**بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ**)

أولا : تــأتيهم النــار فجــأة كما لو كــان ذلك من دون ســابق إنــذار ، لأنهم تعــودوا على الكفر بالنــذر ، وعــدم اتخاذها مأخذ الجد ، فأصــبحوا مع مــرور الــزمن كالجاهل الذي يفتح عينه على الحقيقة لأول مرة.

ثانيا : إنّ النـار الرهيبة تسـبب لهم البهت ، فتسـلبهم عقولهم وتحيّرهم ، ثمّ تكتنفهم بعذابها الأليم.

(**فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ**)

إنّهم لا يســتطيعون دفع العــذاب عن أنفســهم ولن يعطــوا مهلة أكـثر مما أعطــوه في الحيــاة الــدنيا ، ولو بمقدار لحظة.

[41] (**وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ**)

إنّ الأمم السابقة قد استهزأت بالرسل ، فاذا بتلك الرسالات التي استهزءوا بها تتحول الى حقائق أليمة تحيط بهم وتنتقم منهم. ولا يخفى إنّ ذلك إضافة إلى التعذيب البدني عذابا نفسيا للكافرين.

ولكن هل الرسالة الالهية بذاتها عذاب؟ وهل هي التي تؤدي الى الضرر الوخيم الذي يصبّ المعاندين في جهنم؟

بالطبع ـ كلّا ـ فالرسالة بما فيها من أفكار إنّما هي تعبير عن الحقيقة ، وحينما يستهزئ أحد بها فإنه يستهزئ بالحقّ ذاته ، فحينما أقول لا تأكل هذا الطعام لأن فيه جرثوما ، فان هذه الكلمة تعكس حقيقة واقعية ، وعند ما تخالف وتأكل منه ، فان الجرثوم وهو تلك الحقيقة الواقعية ، سيحيط بك ويوقعك في الألم والمعاناة ، لذلك يعبر القرآن عن هذه الحالة تعبيرا دقيقا ، ويقول :

(**فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ**)

القرآن في هذه الآية كما في أكثر آيات سورة الأنبياء ، يكثر من الحديث عن اللعب ، واللهو ، والاستهزاء والسخرية ، فلما ذا؟

السبب هو إن الحديث فيها ، يدور حول المسؤولية ، وهذه الأشياء نقيض لها ، فاللعب ، ولهو القلب ، والاستهزاء بالرسالة ، والسخرية من الرسل ، وبالتالي من الحقائق ، هذه كلها تقتل احساس الإنسان بمسؤوليته في الحياة.

ولا يسمع الصمّ الدعاء :

[42] (**قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ**)

إنّ تدبير الحياة بيد الله كما إنّ تقديرها بيده سبحانه ، فمن الـذي يحفظنا ليلا ونهـارا من أخطـار الحيـاة سـوى الرحمن؟

فهو الـــــــذي يحفظنا بنعمه عن بلائه ، وبرحمته عن غضـــبه. لأنّه جـــلّ شـــأنه قد كتب على نفسه الرحمة ، والـرحمن هو الـذي يكلؤنا ولكن نحن لا نقـدّر هـذه النعمة فنكفر به وبآياته ونعرض عن ذكره.

(**بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ**)

الله هو الـذي يـربيهم ، وهو الـذي لا يـزال يكمل لهم النعم ، وينزل عليهم البركـات ، ومع ذلك تـراهم يكفـرون به ويستهزئون برسالاته.

وما دام العـــذاب الالهي في الـــدنيا لا رادع عنه ، (إلّا من قبل الله نفســه) ، ولا أحد من الآلهة المزعومة تقـدر على دفعه إن حلّ بقوم ، فلنعرف إنّ الآلهة ليست بشيء ، وإنّها لا تضر ولا تنفع ، وانها لا تقــــدر على دفع عـــذاب الآخرة أيضا.

[43] (**أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا**)

الله لم يقطع عن أياديه سـاعة فلما ذا نكفر بـه؟! إذا لم يعطك أبوك نقـودا ، ولم يـدعك تنـام في الـبيت ، ولم يهتم بك ، فســـوف تبحث عن صــــديق أو عن جهة من الجهات تؤمن لك ضرورات حياتك ، ولكن الله ــ والأمثـال تضـرب ولا تقـاس ــ لم يغلق عليك الأبـواب ، ولم يبعث عليك العـذاب حـتى تتركه وتتوجه الى آلهة غـيره تؤويك الى كنفها!

ونقـرأ في الأدعية تعـابير دقيقة ، وفي نفس الـوقت مثيرة لأحاسيس الإنسـان الفطرية في هـذا الاتجـاه : فما دام الله سبحانه وتعالى لم يغير عادة الإحسان إلينا ،

فلما ذا نفتش عن غيره؟! وما دام ربنا قويا قـاهرا فلما ذا نخدع أنفسنا بالالتجاء الى الضعفاء من عبـاده؟! نقـرأ في دعاء عرفة للإمام الحسـين عليه السـلام : [ما ذا وجد من فقـدك ، وما الـذي فقد من وجـدك. لقد خـاب من رضي دونك بدلا ، ولقد خسر من بغى عنك متحـولا. كيف يـرجى ســـواك ، وأنت ما قطعت الإحســـان. وكيف يطلب من غيرك ، وأنت ما بدّلت عادة الامتنان]. [1]

(**لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ**)

تلك الآلهة لا تســـتطيع أن تنصر نفســـها فكيف تنصر غيرها.

(**وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ**)

لا نعتـــبرهم أصـــحابا ، لا نعطيهم القـــوة ، ولا هم يمتلكون القوة الذاتية.

[44] (**بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ**)

إنّ السبب الـذي يريد في نسـيان هـؤلاء هو اسـتمرار النعم عليهم ، لـذلك تـراهم مع مـرور الـزمن وتطـاول السـنين يتزايد غـرورهم ، ومع تزايد الغـرور تتزايد النقم التي تأتي مع النعم ، في سلسلة متوازية.

(**أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُـها مِنْ أَطْرافِها أَفَهُمُ الْغالِبُونَ**)

في كـلّ يـوم يهلك الكثـير من المجتمعـات بسـبب أعمالهم الفاسـدة ، ولأن جـزاءهم قد آن أوانه ، فلما ذا لا نعتبر؟! وهنا يوجّهنا القرآن الحكيم الى نوعين من الاعتبار :

1 ـ الاعتبار بمن مضى من الأمم.

---

(1) مفاتيح الجنان / ص 273.

2 ـ الاعتبار بمن نعاصرهم من الأمم التي تتحطم وتهلك بسبب أعمالها.

إن على الإنسان أن يعتبر بالماضي من آبائه الذين ماتوا وانقرضوا ، وكذلك لمن حوله من أترابه ، الذين يموتون كلّ يوم ، كذلك حال المجتمعات [1] ، ولكن المشكلة الأساسية هي التي يشير إليها القرآن في الآية الأخيرة :

[45] (**قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ**)

المشكلة هي إنّ الإنسان قد أصيب بالصمم ، ولهي قلبه ، فجعل يستهزئ بالحقيقة ، لذلك حينما يرى العبر فانه لا يستفيد منها شيئا.

(1) هناك تفسيرات أخرى لهذه الآية. منها إنّ نقصان الأرض بموت العلماء. وبه جاءت الروايات. وهو تفسير عميق لا يتنافى مع ما ذكرنا آنفا إذ إنّ موت المجتمعات إنّما هو بنقصان علماءها «راجع تفسير نور الثقلين / ج 3 ـ ص 429».

وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَـةٌ مِنْ عَـذابِ رَبِّكَ لَيَقُـولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (46) وَنَضَعُ الْمَـوازِينَ الْقِسْـطَ لِيَـوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَـيْئاً وَإِنْ كـانَ مِثْقـالَ حَبَّةٍ مِنْ خَـرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِـبِينَ (47) وَلَقَـدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ (48) الَّذِينَ يَخْشَـوْنَ رَبَّهُمْ بِـالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّـاعَةِ مُشْفِقُونَ (49) وَهذا ذِكْرٌ مُبـارَكٌ أَنْزَلْنـاهُ أَفَـأَنْتُمْ لَـهُ مُنْكِـرُونَ (50) وَلَقَـدْ آتَيْنا إِبْـراهِيمَ رُشْـدَهُ مِنْ قَبْـلُ وَكُنَّا بِهِ عـالِمِينَ (51) إِذْ قـالَ لِأَبِيـهِ وَقَوْمِـهِ ما هـذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي

---

46 [نفحة] : أي الوقعة اليسيرة التي تقع ـ كنفخ الطيب الذي هو شيء يسير من ريحه.
47 [القسط] : العدل.

أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ (52) قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ (53) قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبـاؤُكُمْ فِي ضَـلالٍ مُبِينٍ (54) قــالُوا أَجِئْتَنا بِــالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (55) قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَــرَهُنَّ وَأَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّــاهِدِينَ (56) وَتَاللــهِ لَأَكِيــدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُـدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُـذاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58)

---

52 [عاكفون] : مستمرّون دائمون على عبادتها.
57 [وتالله] : حلف بالله لتأكيد ما يقول ، والتاء للتعجّب.
58 [جذاذا] : أي قطعة قطعة ، وأصله من الجذ بمعنى القطع.

نفحات العذاب علائم المسؤولية

هدى من الآيات :

في سياق حديث القرآن الحكيم عن مسئولية الإنسان في الحياة ، المرتكزة على الجدية والهدفية ، تذكرنا آيات هذا الدرس ، بأن من علائم المسؤولية هي نفحات العذاب ، التي يتعرض لها البشر بسبب سوء أفعالهم ، فلكي تعرف الآخرة ، وما فيها من عذاب أو ثواب ، لا بدّ أن تتفكر في الدنيا وما فيها من آثار العذاب والثواب ونفحاتهما! إلّا إنّ الموازين القسط التي تحسب كلّ صغيرة وكبيرة فيجازى الشخص بها ، مؤجلة الى يوم القيامة ، حيث لا تظلم نفس شيئا ، حتى ولو كان بوزن خردلة.

ولقد جاءت رسالات الله تترى لتعطي الناس ميزانا يفرق به بين الحقّ والباطل ، وضياء يهتدى به في ظلمات الحياة ، ويذكر المتقين ليزدادوا إيمانا وعزما.

فمن أبرز غايات الرسل تذكير النـاس بيـوم القيامة ــ حيث المـــوازين القسط ـــ ، ولكن المتقين هم الـــذين يخشون ربهم بالغيب ويخافون أهوال الساعة.

وهـذا الكتـاب هو الآخر ذكر مبـارك أنزله الله لـذات الغاية.

والسؤال ما الذي يحجب الإنسان عن الأخذ بالفرقـان ، والإيمـان بالرسـالات الالهية الـتي تـذكّر بـالآخرة ، وتنبّه الغافلين عن نومهم في الدنيا؟

إنّه وكما يتضح من القـرآن التقليد ، وتبعية الآبـاء من دون تبصّر ولا تدبّر. هكذا يضرب لنا القـرآن مثلا من حيـاة إبـراهيم (ع) الـذي وقف أمـام قومه الـذين اتبعـوا منهج آبـائهم ففقـدوا إحساسـهم بالمسـؤولية ، وصـرخ في وجوههم قائلا : ما هذه الأصنام الـتي تتمسـكون بعبادتها ، وتلازمونها على الدوام؟! فلم يكن عنـدهم جـواب منطقي يـردّون به على هـذه الصـرخة ، إلّا أن قـالوا : إنّما وجـدنا آباءنا يعبدونها فحذونا حذوهم.

ولكي يثبت لهم إمكان تحدي الإنسان لتاريخه الباطل بقـوة إرادته ، أخذ معـولا وذهب الى معبـدهم في يـوم عيـدهم ، وحطم الأصـنام ، واحـدا تلو الآخر ، ثمّ وضع المعـول في عنق أكبرها حجما ، وذهب الى بيته ، بانتظـار أن يعـودوا ، فـيروا إنّ التماثيل قد حطمت ، فيكـون ذلك نقطة بـدء لهم لكي ينفصـلوا عن تـاريخهم السـيء المنحـرف ، ويعيشـوا واقعهم بعقلية متفتحة وبصـيرة مستنيرة.

بينات من الآيات :

[46] إن الدنيا مزيج من الجنة والنار ، ولقد خلق الله سـبحانه وتعـالى دارا لأوليائه ، جعل فيها من كـلّ ما لـذّ وطاب من النعم ، دون أن يشوبها خوف أو

حزن ، وخلق داراً أخـرى للمعانـدين ، وجعل فيها من كـلّ عذاب أشدّه وآلمه ، دون أن يكـون فيها مكـان للرحمة أو مجال للنعمة ، وخلق داراً ثالثة تجمع صـفات تلك الـدارين ، فيها ضغث من الجنة وضغث من الجحيم ، وهي الــدنيا ، ثمّ جعل ما فيها من ثــواب ونعم شــاهدا على ما في تلك الـــدار من ثـــواب ونعمة ، وما فيها من عقـــاب ونقمة ، شــاهدا على ما في الجحيم من أليم العــذاب. وهــذا هو مضـمون حـديث مفصل مـروي عن أمـير المؤمـنين علي (ع).

وفي هذه الآيات يؤكد السياق ذلك ، فلكي تعرف إنّك مسـئول في الآخـرة تـدبر في نتـائج أعمالك في الـدنيا ، ولكي تعـرف حقيقة العـذاب والثـواب في الآخـرة جربهما في الدنيا.

لذلك تجد الصحابي أبا ذر ـ عليه السلام ـ يـذهب الى الصـحراء ، يعـرّي جسـده ، ويلقي بنفسه على الرمضـاء حيث تصـهره الشـمس ويكويه الحصى ، ويقـول لنفسه يا أبا ذر ذق حرارة الـدنيا لكي تبعد نفسك عن نـار الآخـرة ، فان نار جهنم أشدّ حرا. وفي الحديث الشريف : «**تذكّروا بجوعكم وعطشـكم ـ في شـهر رمضـان ـ جـوعكم وعطشكم في يوم القيامة**».

إنّ كـــلّ ما نواجهه في حياتنا الـــدنيا من صـــعوبات ومشـــاكل ومخـــاطر ، هو نفحة من عـــذاب الله تـــذكرنا بحقيقة العذاب الموجـود في الآخـرة ، ويصـيبنا إن لم نتبع الفرقان الذي أنزله إلينا ربنا ، والـذي يفـرق لنا بين الحـقّ والباطل ، وبين الحلال والحرام ، وبين الخير والشر.

(**وَلَئِنْ مَسَّـتْهُمْ نَفْحَـةٌ مِنْ عَـذابِ رَبِّكَ لَيَقُـولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ**)

أول ما يبــــدأ عــــذاب الله عز وجل بـــالنزول على المعرضين والمعانـدين ، ينـزع عنهم السـكرة الـتي كـانت مسـيطرة على عقـولهم ، والـتي جعلتهم يغـترون بالـدنيا الفانية ، وعند ذلك يعــودون الى رشــدهم ، ويقولــون لقد عرّضنا أنفســنا الى الهلاك بإرادتنا واختيارنا ، حينما فرّطنا في المسؤولية ، وتهاونّا في أداء الأمانة.

[47] (**وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً**)

تلك كـانت النفحة ، أما الجــزاء فسـيجدونه في يــوم القيامة حيث الحساب ، الدقيق والعسير ، إن خيرا فخير ، وإن شرّا فشرّ ، وتعالى الله أن يظلم أحدا شيئا.

والمــوازين القسط هم الرجــال الربــانيون الأنبيــاء والأوصياء [1] الذين يتخذ منهم الربّ شـهداء على النّـاس ، والــذين لا بــدّ أن يقيس الإنســان أعماله بهم وبنهجهم وسيرتهم.

(**وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها**)

الخردل : نبات له حبات بالغة في الصـغر والخفة ، لو إنّ الإنسان أحسن وعمل عملا بوزن هذه الحبة ، وفي أيّ مكـــان على وجه الأرض ، وعلى أية درجة من السّـــريّة والكتمــــان ، فــــان الله ســـيأتي به ـــــ بقدرته وعلمه اللامحدودين ـ مثبتا ومسجلا ، يعرضه على صاحبه في يوم القيامة ، ثمّ يعطيه جزاءه العادل عليه.

(**وَكَفى بِنا حاسِبِينَ**)

ولا نحتاج الى من يعيننا في عملية الحساب هذه.

---

(1) تفسير نور الثقلين / ج 3 ـ ص 430.

حجج المسؤولية :

[48] لأن الله لا يظلم أحـدا شـيئا ، سـبحانه! ، ولأنه رحيم بعباده ، ولأن الحساب هناك دقيق وعسير ، وبالتالي لأنّ المسؤولية باهضة. فقد منّ على عباده برسالاته الـتي هي :

أولا : الفرقـان بين الحـقّ والباطل ، بين ما ينبغي وما لا ينبغي من الأفعال.

ثانيا : ويضـيء قلـوبهم بنـور الإيمـان حـتى يتحمّلـوا مسئولياتهم ويؤدوا ما عليهم.

ثالثا : يذكر المتقين منهم حتى لا يعتريهم النسيان.

هكـــذا أكمل الـــربّ حجة على عبـــاده ، فلم يحمّلهم عبء المسؤولية دون توفير وسائل تحقيقها لهم.

(**وَلَقَـدْ آتَيْنا مُوسى وَهـارُونَ الْفُرْقـانَ وَضِـياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ**)

الفرقان : هو ما يفرق بين المتناقضات الموجودة في الحيـاة ، وبه نعـرف الحـقّ من الباطل ، ونعين الحـدود الفاصلة بينهما ، وقد يكون الفرقان هو التـوراة كما تشـير إليه هذه الآية ، وقد يكون واحدا من الكتب الالهية الأخرى ومنها القـرآن ، كما انه يسـتطيل ليشـمل الأشـخاص كالأنبيـاء والأئمة (ع) ومن يقـوم مقـامهم ويمثّل امتـدادا حقيقيا لهم.

والضـياء : هو النـور الـذي يشع في القلب ، ويمكّن المؤمـنين من السـير في دروب الحيـاة المدلهمة بثقة واطمئنان.

أمّا الذكر : فهو ما يثـير دفينة العقل ، ويمنع الإنسـان من الركـون الى الغفلة والنسـيان ، ويتمثل في المواعظ البليغة التي يستفيد منها المتقون الذين يخافون الله

ويراقبونه بأعمالهم.

الساعة والغيب :

[49] (**الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ**)

الإيمـان بـالغيب هو الـذي يـدفع الإنسـان الى تجـاوز الشهود ، فتراه ـ حينما يرى شيئا ـ لا يقف عنده ، بل يعبر من خلاله الى الشــــاطئ الآخر للحقيقية أي الى حكمته وسببه ودلالته ، وبكلمة : الإيمـان بـالغيب هو : أن نصـدّق بما لا نراه انطلاقا ممّا نراه ، وهذا الأمر الـذي يتفق تماما مع العقل والمنطق ، هو الــــــذي يقودنا الى معرفة ربّنا اللطيف الذي لا تدركه الأبصار ، من خلال ما نراه من آثار خلقه وبديع صنعه ، وبالتالي نخشاه كأننا نراه ، ونقف بين يدي جبروته المطلق بخشوع ووجل ، وهذا الشعور سوف ينعكس على أعمالنا ، وأقوالنا ، وســــائر تصــــرفاتنا ، فيصقلها ويهذّبها ويوجّهها الى الوجهة السليمة في الحيـاة.

كما يقودنا الإيمان بالغيب الى الشفقة من الساعة.

(**وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ**)

أي يخشون قيام الساعة.

والإشــــفاق حالة من الخشـــية المقرونة بـــالترقب والانتظــار ، ذلك لأن المتقين يعيشــون بين الخــوف من البعث (لأنهم لا يعلمون نتـائج أعمـالهم) وبين انتظـاره (إذ يرجون جزاء حسناتهم).

[50] (**وَهـذا ذِكْـرٌ مُبـارَكٌ أَنْزَلْنـاهُ أَفَـأَنْتُمْ لَـهُ مُنْكِرُونَ**)

إنّ أكثر الكفـار ، ينكـرون الرسـالات والكتب الالهية ، لأنهم يشككون أنفسهم

في الــذي أنزلها ، ولــذلك يقــول الله في هــذه الآية : «أنزلناه» ليقطع عليهم سبيل الإنكار والتكذيب.

وكما إنّ التـوراة كـانت فرقانا وضـياء وذكـرا .. فـان القــرآن كــذلك ذكر (وهو أعلى صــفات التــوراة الثلاث). ومثلما أصبح كتاب موسى بركة على بني إسرائيل ، كذلك هذا الكتاب سيكون (وفعلا كان) مباركا على من اهتدى به ، يخــرجهم من الظلمــات الى النــور ، ويعطيهم تكــاملا معنويا وماديا.

إبراهيم يحطم الأصنام جميعا :

[51 ـ 53] (**وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْـراهِيمَ رُشْـدَهُ مِنْ قَبْـلُ وَكُنَّا بِــهِ عــالِمِينَ* إِذْ قــالَ لِأَبِيــهِ وَقَوْمِــهِ ما هــذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عـاكِفُونَ* قـالُوا وَجَـدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ**)

الضــمير في «رشــده» يعــود الى إبــراهيم (ع) ، ولم يقل ربنا «رشدنا» مثلا ، وفي ذلك إيحاء الى أن الله خلق الإنسان راشدا ـ عـاقلا ـ نقي الضـمير ، ولكنه يتبع آبـاءه على غير هدى فتنحرف فطرته ويضيع رشده.

ولقد أدى إعراض قوم إبراهيم عن رشــدهم المركـوز في فطــرتهم ، الى أن يــردوا على حجته القوية المنطقية بــذلك الجــواب السـخيف الأحمق فقـالوا : إنّما نعبد هـذه الأحجار لأننا رأينا أسلافنا يفعلون ذلك ..

[54] (**قـالَ لَقَـدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبـاؤُكُمْ فِي ضَـلالٍ مُبِينٍ**)

لقد نسف إبراهيم بكلمة واحدة عقيـدتهم المهـزوزة ، وتركهم في حـيرة من الأمر ، والآية التالية تـدل على إنّهم لم يكونوا على شيء في دينهم.

[55] (**قالُوا أَجِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ**)

لقد أصـابتهم كلمة إبـراهيم في الصـميم ، فطرحـوا عليه هذا السؤال كمن يعطي نفسه فرصة لإعـادة تـرتيب أوراقه ولملمة خواطره المتناثرة.

[56] ولكن إبـــراهيم واصل حجته القوية المنطقية ، وأطبق عليهم بهــذه الحقيقة الصــارخة الــتي لا ســبيل لانكارها :

(**قــالَ بَــلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّــماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ**)

لا أحد من آلهتهم كــان يــدعي أنه خلق الســماوات والأرض ، أو أنّه خلقهم. ولــذلك فلا بــدّ أن يكــون الإله الحقيقي لهذا الكون غير الأصنام الصّـماء البكمـاء. وهكـذا أصـرّ إبـراهيم عليه السـلام إنه ليس لاعبا ، وليس حديثه من نـوع حـديث المـراهقين الـذين يشـكون لضـعف في عقولهم ـ حاشاه ـ ، بل إنه يدعو وبجد الى ربّ السماوات والأرض ، وهو شـاهد على صـدق دعـواه ، بثبـات قوله ، وشـجاعة طرحه ، واسـتعداده للتضـحية ، وسـلامة نهجه وصدق مواقفه ، وسعادته وفلاحه.

وهنا دحض حجتهم بالكامل ، وانقطعوا عن أيّ جـواب ، ولكن النفس البشرية ليست من البسـاطة بحيث تـؤمن بـالحق أول ما تـراه ، فهنـاك عوامل معقـدة ومتشـابكة اجتماعية وثقافية واقتصادية ، تنشأ عنها مصالح واعتبارات يخيل نظريّا للإنسـان بأنّه لا يسـتطيع التخلّي عنهـا. إنهم عرفـــوا الحقيقة وانجلت أمـــام أعينهم ، ولكن إتباعها يتطلب منهم أن يضـحوا بـالكثير من مكاسـبهم المادية ، كالجاه والسلطة والثروة وغيرها. ولذلك لم يبادروا بإعلان قبولهم بالحقّ وخضوعهم له ، بل انهم لاذوا بالصمت كمن ينحني لتمرّ العاصفة بسلام ، ثم يواصل دربه.

[57] ولكن إبـــراهيم لم يســـكت ، ولم يفسح لهم المجـال للاسترسـال في الصـمت والتقليد والخـوض في الباطل مع الخائضين ، بل قال :

(**وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ**)

أي سـأحطمها بعد أن تـذهبوا لحضـور اجتماعـات عيـدكم. وكـان هـذا القيد الزمـني بسـبب إن إبـراهيم (ع) كـان فـردا واحـدا فلم يكن من الممكن أن يكسر تلك الأصنام مع وجود أعداد كبيرة من المشركين عندها.

[58] ثمّ شفع تهديده الكلامي بالتنفيذ العملي ..

(**فَجَعَلَهُمْ جُـذاذاً إِلَّا كَبِـيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْـهِ يَرْجِعُونَ**)

حطم تلك الآلهة المزيفة شر تحطيم ، وتـرك واحـدا منها ، كـانوا يعدّونه أعظم أصـنامهم ، وعلّق معوله في صـدره ، ليـترك لهم مجـالا أكـثر للتفكـير في حقيقة هـذه التماثيل الحجرية الـتي لا تضر ولا تنفع ، وذلك لأنه كـان لديه تصور مسبق لما سـيحدث بعد ذلك من إلقـاء القبض عليه ومسـائلته بعد اكتشـاف قومه للأمر ، وكـان يريد أن يكسر جدار الصمت ويوقف مسيرة الاسترسال مع الوضع الفاسد ، ولكي يجد فرصة جماهيرية ليـبيّن لهم بـأن هـذه الأصنام لن تسبب لهم الضرر إن كانت مكسّـرة ، كما إنّها لن تنفعهم إن ظلت قائمة على منصـاتها ، فما ذا عسى ينفعهم هـذا الصـنم الكبـير عند ما يرجعـون إليه ويلـوذون به؟!

قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59)
قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ (60)
قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ (62)
قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ (65) قالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (67)
قالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (68)
قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ (69)
وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) وَنَجَّيْناهُ

وَلُوطــاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعــالَمِينَ (71) وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنا صالِحِينَ (72) وَجَعَلْنــاهُمْ أَئِمَّةً يَهْــدُونَ بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكـاةِ وَكـانُوا لَنا عابِدِينَ (73)

---

72 [ويعقوب نافلة] : أي زائدة ، إذ لم يكن يعقوب حسب دعاء إبراهيم وإنما كان لطفا محضا من الله عليه.

وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ

هدى من الآيات :

كما إن نفحة العذاب في الدنيا ، شاهدة على العـذاب المركز في الآخرة ، كـذلك الثـواب الـدنيوي دليل على ما وراءه من ثواب عظيم في الآخرة.

وكما إن الإنسـان حينما تسـتعبده أصـنام التـاريخ ، أو أصـنام المجتمع ، فانه يلاقي جـزاءه في الـدنيا والآخـرة ، حيث تتحـول تلك الأصـنام الـتي تعبد من دون الله الى نقمـات تحيط به ، كـذلك فـان الإنسـان الـذي يتحـرر من عبـادة الأصـنام التاريخية أو البشـرية ، يبـني حياته بشـكل سليم ويجازيه الله سبحانه وتعالى جزاء حسنا.

فهذا إبراهيم قد حطم ـ أولا وقبل كلّ شيء ـ الأصنام التي كـانت تسـتعبد النـاس آنئذ ، حيث انفصل عن عبـادة الآباء ، وتحدى ضغوط المجتمع ، ولم يكتف بعدم الخضوع لأبيه (آزر) الـذي كـان يتخذ موقفا متشـددا ، بل حـاول أن يجعل أباه يتبعه ويطيعه ، لأنه على يقين.

كما تحرر من الخضوع لطاغوت المجتمع ، وللسلطة السياسية الفاسدة ، بما تملك هذه السلطة من وسائل البطش والإرهاب ، فكان ذلك الإنسان الذي خلقه الله على الفطرة الإيمانية ، وأصبح عبدا مؤمنا صالحا كما أراده خالقه.

إنّ الإنسان المتحرر عن عبودية الطاغوت ، وعبودية الآباء ، وعبودية الشهوات ، وسائر العبوديات ، يصبح مستقل الشخصية ، لا يخضع إلّا لخالق الكون العزيز الحكيم ، وهكذا بدأ إبراهيم حياته بداية سليمة ، فأعطاه الله سبحانه بدل ذلك المجتمع الفاسد مجتمعا صالحا ، وبدل ذلك الإرهاب والطغيان أمنا وحرية ، وبدل ذلك التاريخ الفاسد جعله منطلقا جديدا لبناء تاريخ صالح.

لقد عوضه الله عن كلّ بلاء صبر عليه بنعمة ، فبتحرره من قيد الطاغوت أعطاه الله سبحانه نعمة القيادة وجعله إماما ، وعند ما تحرر من قيد المجتمع المشرك أعطاه مجموعة من المؤمنين يتبعونه ، وأعطاه الأولاد وجعل ابن خالته لوطا يتبعه ، فأنشأ ذلك المجتمع النظيف. وتحرر من قيد التاريخ المنحرف ، فجعله الله سبحانه وتعالى نقطة البدء لتأريخ جديد مجيد ، وجعل أولاده أئمة للناس ، كما زودهم برسالة متكاملة بإزاء ذلك المنهج الفاسد الذي يتبعه الطاغوت والمجتمع الخاضع له .. برسالة تدعو الى الخير ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وعبادة الله وحده ، دون الخضوع لهذا أو ذاك.

هذا هو بعض ما يمكن أن نستوحيه من هذه الآيات الكريمة.

بينات من الآيات :

[59 ـ 60] (**قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ* قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ**)

من الذي حطّم الأصنام؟

لا بدّ إنّ الذي حطمها ظـالم لنفسه لأنّه عـرّض نفسه لانتقامنا.

بلى هنـاك شـخص يـدعى «إبـراهيم» يـذكر الأصـنام بالسوء ، ويرفض أن يعبــدها ويخضع لها ، فمن المؤكد أنّه هو الذي حطمها.

[61] وتحطيم الأصنام لم يكن يدل فقط على تحطيم الأحجـــار ، وإنّما كـــان يـــدل أيضا على تحطيم الأنظمة الاجتماعية والتقاليد الفاســدة ، وتحطيمها يعــني التحــرر منها ، لـذلك تجد إن مجتمع الطـاغوت (نمـرود) لم يكتف بمحاولة تعـذيب إبـراهيم ، وبإعدامه ، إنّما أراد أن يكـرس تلك التقاليد والقيم الفاسدة عن طريق فعل كلّ ذلك عبر تظاهرة اجتماعية صاخبة ، ليكون عبرة للآخرين الـذين قد تحدثهم أنفسهم باتباع منهجه التوحيدي.

(**قـــالُوا فَـــأْتُوا بِـــهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ**)

يمكننا أن نفهم من هـذه الآية : بـأن ذلك المجتمع قد دبّت اليه أفكـار الـرفض ، حيث كـان هنـاك آخـرون غـير إبراهيم يدعون الناس الى التحرر من عبادة تلك الأصنام ، وقد سـبق أن اسـتوحينا من آية أخـرى مثل ذلك تلك الآية هي «**قالُوا أَجِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ**».

[62] (**قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ**)

إبراهيم لم ينكر انه فعله أو لم يفعله وإنّما :

[63] (**قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هـذا فَسْـئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ**)

لا شك إن هذا أسلوب ساخر أراد به إبراهيم (ع) أن يلفت به أنظارهم إلى حقيقة معتقداتهم الفاسدة ، وإلّا فهم يعلمون مسبقا إن هذه أحجار لا تنطق لأنهم هم الذين صنعوها بأيديهم.

[64] (**فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ**)

أول صدمة نفسية أصيب بها هؤلاء هي انهيار مكانة الأصنام في أنفسهم والتي كانت رمزا لإيمانهم بالتاريخ الفاسد ، وبالخضوع للحاكم الظالم المتجبر ، واعتقادهم بالأساطير ... إلخ.

فرجعوا الى أنفسهم وقال كلّ منهم لنفسه : أنا الظالم ، أنا المخطئ الذي رضيت أن أعبد هذا الصنم ، الذي لا ينطق ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه.

[65] (**ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ**)

ولكنهم باعتبارهم بشر ، وباعتبار إن البشر لا يستطيع تحدي واقعه الفاسد بسهولة ، أخذتهم العزة بالإثم ، وركبوا مطية الغرور برغم أنهم عرفوا الحقيقة وأدركوا بطلان أفكارهم وزيف معتقداتهم فقالوا مكابرين :

(**لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ**)

أي كيف تطلب منا أن نسألهم ، وأنت تعلم إنّهم لا يتكلمون ، أتسخر منا أم ما ذا؟!. وإذا كانت الأصنام لا تنطق ولا تتكلم فهي لا تستطيع أن تهدي من يعبدها سواء السبيل ، وإذن ما الفائدة منها؟

إنّ أهم صفة للاله الذي يعبد هي : أن يكون قادرا على هداية الإنسان ، لأنّ

أهم حاجة للبشر هي حاجته الى الهداية ، ثمّ إن أبـــــرز مـــيزة في الإنســـان هي العقل والإدراك ، فكيف يرضى بعبادة ما لا يعقل.

[66] لذلك فقد حطم إبـراهيم (ع) في أنفسـهم هيبة الأصـنام ، وأفهمهم إنّ المحـور هو محـور الهـدى ومنطق الحقّ ، لا محور الضلال ومنطق القوة.

(**قالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَـيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ**)

[67] وأمام موقفهم الجاهلي المتغطرس ، يـواجههم إبـراهيم (ع) بمنطق العقل ، بكـلّ هـدوء وثبـات ليسـتثير عقـــولهم الـــتي حجبها الكـــبر والغـــرور ، وعند ما يـــرى إصرارهم يلجأ الى الهجوم قائلا :

(**أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُـــــدُونَ مِنْ دُونِ اللـــــهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ**)

ومرة أخرى أكـدّ إبـراهيم (ع) على فضـيلة العقل في الإنســـان ، وضـــرورة اهتمامه بها واســـتخدامها من أجل مصلحته وتكامل ذاته.

[68] فلما ادينوا ، ودحضت حجتهم الباطلة :

(**قالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ**)

وهـذا كـان آخر كلامهم ، وهو : إن إبـراهيم (ع) يجب أن يحـــرق ، وأن ينتصـــروا للآلهة ما دام عنـــدهم القـــوة والقدرة ، والرجولة والشجاعة.

فأعدّوا منطقة واسعة من الأرض جمعوا فيها الحطب لمدة أربعة أشهر ، ليس فقط من أجل حرق إبـراهيم (ع) وإنّما أيضا من أجل إعـــادة هيبة الأصـــنام ، فالطـــاغوت يعيش على الهيبة والإرهـاب ، وإذا فقد هما لا يبقى عنـده شيء يسيطر به على النّاس.

وكـان لهم فلسـفة أخـرى وهي إشـراك النـاس في جريمة حرق النبي عن طريق دعوتهم للاشـتراك في جمع الحطب وإعـداد مكـان لاحراقه ، حـتى لا تتحـرك فيهم المشـاعر الانسـانية والفطرية ، ويثـوروا على الطاغية نمـرود ، تماما كما فعل ابن زيـاد الـوالي الأمـوي بأهل الكوفة حيث بعث كلّ أهل الكوفة لحرب الامـام الحسـين (ع) حـتى يشـركهم في جريمة قتل الامـام المفـترض الطاعة ، وبالتالي يأمن سخطهم وثورتهم مستقبلا.

وصنعوا لنمـرود مكانا عاليا يجلس عليه ويتفـرج على عملية حرق إبراهيم ثمّ توقفوا .. ما ذا نفعل؟ النـار كـانت من الشـدّة بحيث تحـرق كـلّ من يقـترب منهـا! فـأوحى الشيطان إليهم بمكيـدة فجـاءوا بـالمنجنيق ، ووضـعوا فيه إبـراهيم مغلـولا ، ثمّ قـذفوا به الى تلك النـار المسـتعرة قذفا.

يد الرحمة :

[69] (**قُلْنا يا نـارُ كُـونِي بَـرْداً وَسَـلاماً عَلى إِبْراهِيمَ**)

حينما قال الله سبحانه وتعالى «**يا نارُ كُونِي بَـرْداً**» أخذ إبـراهيم يرتجف من شـدة الـبرد ، ولكن سـرعان ما قـال ربنا «وسلاما» فاعتـدلت درجة الحـرارة وقد جـاءت قصة مفصلة في تفسير علي بن إبراهيم نذكرها فيما يلي لمزيد العبر التي فيها :

تقول الرواية ـ فيما تقول ـ فجلس إبـراهيم وجمع له الحطب ، حـتى إذا كـان اليـوم الـذي ألقى فيه نمـرود إبراهيم في النار برز نمرود وجنوده وقد كان بـني لنمـرود بنـاء ينظر منه إلى إبـراهيم (ع) كيف تأخـذه النـار ، فجـاء إبليس واتخذ لهم المنجـنيق لأنه لم يقـدر أحد أن يتقـارب من النار ، وكان الطائر إذا مرّ في الهـواء يحـترق ، فوضع إبراهيم في المنجنيق وجاء أبـوه فلطمه لطمة وقـال له : إرجع عما أنت عليه ، وأنزل

الـربّ تبـارك وتعـالى ملائكة الى السـماء الـدنيا ولم يبق شـيء إلّا طلب الى ربه ، وقـالت الأرض يا ربّ ليس على ظهري أحد يعبدك غيره فيحرق؟! وقالت الملائكة : يا ربّ خليلك إبــراهيم يحــرق؟! فقــال الله عــزّ وجل : إنّه إن دعاني كفيته ، وقـال جبرئيل : يا رب خليلك إبـراهيم ليس في الأرض أحد يعبـدك غـيره سـلطت عليه عـدوه يحرقه بالنـار؟ فقـال : اسـكت إنّما يقـول هـذا عبد مثلك يخـاف الفوت ، هو عبـدي آخـذه إذا شـئت ، فـان دعـاني أجبته ، فدعا إبـراهيم (ع) ربه بسـورة الإخلاص ، يا الله يا واحد يا أحد يا صـمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفـوا أحد نجني من النـار برحمتك ، قـال : فـالتقى معه جبرئيل في الهواء وقد وضع في المنجنيق ، فقال : يا إبـراهيم هل لك إليّ من حاجة؟ فقـال إبـراهيم (ع) أما إليك فلا ، وأما الى ربّ العـالمين فنعم ، فـدفع إليه خاتما مكتـوب عليه لا إله إلّا الله محمد رسـول الله (ص) ألجـأت ظهـري الى الله وأسندت أمري الى الله وفوضت أمري الى الله ، فـأوحى الله عـزّ وجل الى النـار : كـوني بـردا فاضـطربت أسـنان إبـراهيم من الـبرد حـتى قـال ، وسـلاما على إبـراهيم ، وانحط جبرئيل (ع) وجلس معه يحدثه في النــــار ونظر نمــرود فقــال : من اتخذ إلها فليتخذ مثل إله إبــراهيم ، فقال عظيم من عظماء أصحاب نمرود : إني عزمت على النــار أن لا تحرقه ، فخــرج عمد من النــار نحو الرجل فأحرقه ، فآمن له لوط فخرج مهاجرا الى الشـام ، ونظر نمرود الى إبـراهيم في روضة خضـراء في النـار مع شـيخ يحدثه فقال لآزر : يا آزر ما أكرم إبنك على ربّه. [1]

[70] (**وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ**)

هـذه عـبرة لي ولك ، تحـدّ الطـاغوت وتحـدّ المجتمع الفاسد المنحرف ، وتحدّ الأصنام التي تعبد من دون الله ، وفي لحظة المواجهة تدركك رحمة الله سبحانه ، فلا

(1) نور الثقلين / ج 3 ـ ص 432.

تخف ، لأن أهم شــيء يربطك بعجلة الانحــراف هو حبائل الخوف وأغلال الرهبة ، فـاقطع هـذه الحبـال وتلك الأغلال حتى تتحرر ، وتكون أنت الفائز وأعداؤك الأخسرين.

الهجرة في سبيل الله :

[71] (**وَنَجَّيْنــاهُ وَلُوطــاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ**)

بدل هـذه الأرض المحكومة بالطـاغوت ، أعطـاه الله أرضا حرة ومباركة هي فلسطين.

[72] (**وَوَهَبْنا لَـهُ إِسْـحاقَ وَيَعْقُـوبَ نافِلَـةً وَكُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ**)

وأعطاه الله سبحانه أيضا إسحاق ، ومن بعده يعقوب ، ومن بعد يعقــوب جيلا من المؤمــنين الملــتزمين الــذين يدعون بالأسباط ، حيث عوضه الله بهم عن ذلك المجتمع الفاسد الذي اصطدم به في دعوته التوحيدية.

وأنت أيها المؤمن أيضا .. هاجر ولا تقل هذا أبي وهذا أخي وهـذا صـديقي .. إلخ ، اتـرك كـلّ ذلك وهـاجر من المجتمع الفاسد إذا لم تستطع أن تصـلحه ، وآنئذ يعوضك الله تعالى بأفضل منهم.

[73] (**وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا**)

جعل الله الذين هاجروا أئمة وهـذه من نتـائج الهجـرة في سبيل الله.

(**وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْـلَ الْخَيْـراتِ وَإِقـامَ الصَّـلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ**)

هذا هو برنامجه : أعمال الخير ـ الزكاة ـ الصلاة ..

(**وَكانُوا لَنا عابِدِينَ**)

والتحرر الكامل عن سلطة الشرق والغـرب ، والادانة بالعبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى فقط.

إنّ هـذه القيـادة والامامة تجسـدت في إبـراهيم عـبر أكثر من خمسة آلاف سنة والى يومنا هذا ، في ذلك اليوم جاءه حامية ظاهرا وأقرب النـاس إليه وهو عمه آزر ــ لما غلّوا يديه ليلقوا به في النار ـ فبصق في وجهه وقال : ألم أنهك يا إبراهيم فلما ذا فعلت ، هذا هو جزاء فعلتك .. بلى في تلك الأرض لم يكن أحد يدافع عن إبراهيم ، ولكن الى الآن والأجيـال الـتي بعـدنا ، تلهج ألسـنتهم بـذكر إبـراهيم ومدحه ، وكـلّ واحد يبحث عن طريقة إبـراهيم ليقتـدي به فيها ، وهذا جزاء من أحسن عملا ، في الدنيا ، أمّا الجـزاء الأكبر فهو ينتظر المحسنين في الآخرة.

وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ (74) وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) وَنُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (77) وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَكُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فاعِلِينَ (79)

---

78 [الحرث] : الزرع.
[نفشت] : النفش بمعنى فرار الإبل أو الغنم ليلا ليرعى بدون راع.

وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ (80) وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ (81) وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ (82)

---

80 [صنعة لبوس] : اللبوس هو السلاح الذي يلبس كالدرع.

هكذا ينصر الله رسله بالغيب

هدى من الآيات :

هنا لك سـؤالان يتبـادران الى الـذهن عند ما يقـرأ الإنسان القرآن ، وهما :

أولا : لما ذا يكثر القرآن من قصص الأنبياء في آياته؟

ثانيا : لما ذا يـذكر القـرآن قصص الأنبيـاء بصـورة متفرقة وفي سور مختلفة؟

الجواب على السؤال الأول هو :

أـ لكي يبين لنا بـأن رسـالات جميع الأنبيـاء تسـير في خط واحد ، وتدعو في جوهرها الى شـيء واحد وهو منهج التوحيد.

ب ـ لكي يكـرس كـونهم قـدوة وأئمة لنا ، وبالتـالي نستفيد من أقوالهم وأفعالهم ومواقفهم ونطبقها في واقع حياتنا العملي الذي نعيشه.

والجواب على السؤال الثاني باختصار :

أــ إن القصص الـتي يوردها القـرآن ليست هـدفا في حدّ ذاتها حتى يسردها مرة واحدة.

ب ــ إن تكــرار القصة في مواضع متعــددة يشــعر بأهميتها ، ويلفت النظر الى ضرورة التفكر فيها ودراسـتها جيدا ، ومن ثمّ الاقتداء بأخلاق الأنبياء ومواقفهم فيها.

ج ـ عند ما يكرر القرآن ذكر القصة الواحــدة ، فانه لا يكــرر جزئياتها ، وإنّما في كـلّ مــرة ينقل جانبا معينا منها يتناسب مع المواضـــيع الـــتي يعالجها الســـياق ، وهـــذا الأسلوب يلقي أضواء كاشفة على أحداث القصة ، ويظهر العبر المطلوبة منها ، وكـذلك يجعلها شـيئا فشـيئا تتكامل في الأذهـان لتكـون ــ بالتـالي ــ برنـامج عمل في الحيـاة بالنسبة الى المؤمنين.

وفي سـورة الأنبيـاء يضـرب القـرآن الحكيم مثلا من واقع مسئولية الإنسان في الحياة ، وهي على جانبين :

الأول : مســئولية أعماله الســيئة ، ويقابلها العقــاب الصارم ، كما حدث لقوم لوط ونوح.

الثــاني : مســئوليته تجــاه أعماله الحســنة ، ويقابلها الثواب الجزيل ، كما حدث للوط ونوح ومن آمن بهما.

كما يــبين لنا أن الأنبيــاء كــانوا في ســاعات الشــدة يتوجهون الى ربهم بالـدعاء فينجيهم من بطش أعـدائهم ، وهذا يكشف لنا إن حياة الأنبياء ـ أساسا ـ لم تكن

مفروشة بـــالورود ، بل كـــان ملؤها الآلام والمشـــاكل ، ولكنهم انتصـروا عليها بـإذن الله ، مما يعطينا شـحنة من الأمل والاندفاع في مواجهة صعوبات حياتنا وتحـدياتها ، إذ ســـنكون على يقين من إنّه ، إن عجـــزت قـــدراتنا عن الصمود أمامها فان هناك من يمدنا بالعون اللازم وهو الله العزيز القدير.

بينات من الآيات :

نجاة لوط :

[74] (**وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً**)

أهم نعمة يسبغها الربّ لعبده هي نعمة الهدى ، الـتي تــؤدي الى معرفة الحقيقة ، وغاية الهــدى النبــوة ، وقد أعطى الله لوطا «حكمـــا» أي نبـــوة ، والنبـــوة : ليست مجـــرد علم غيـــبي بالحقـــائق ، بل هي أيضا إذن من الله بالاستخلاف في الأرض وبالتالي إمامة الناس.

ولعلّه لـذلك اختلفت معـاني كلمة «الحكم» ومـوارد اســتعمالها في الكتــاب ، فحينا تســتعمل في الرســالة ، وحينا في القضـــاء ، وحينا في العقل ، والجميع ينتهي الى ذات المنصب الالهي الذي يجمع كلّ تلك الفضائل.

وعلما : أي معرفة الحقائق التفصيلية.

والى جـــــانب الحكم والعلم أعطى الله لوطا : نعمة أخرى وهي نجاته من الأخطـار المادية والمعنوية المحيطة به ، حيث نجاه من القرية التي كان أهلها يقومون باللواط ، وقطع الطـرق ، وكثـير من المنكـرات وأنقـذه من أذى قومه السيئين والخارجين

عن أمر الله والمبعدين عن دينه وشريعته.

(**وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ**)

ونسب السـياق المنكـرات الى ذات القرية ، إشـارة الى أنّ جميع أهلها كـانوا كـذلك ، حـتى وكـأن القرية ذاتها كانت تعمل الخبيث.

(**إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ**)

كـانت أخلاقهم سـيئة ، وكـان عملهم فسـقا ، ومثل هـؤلاء لا يتوقع منهم إلّا الشر والأذى والاعتـداء على رسل الله ، وعلى كلّ من يرفع صوته مناديا بالصلاح والتغيير.

[75] (**وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ**)

شبّه الرحمة بالبيت الـذي يدخله الإنسـان ، فيحيط به من جميع جوانبه ويحفظه من الأخطـار الخارجية ، ويمـده بأسـباب الراحة والاطمئنـان في الـداخل ، وقد أدخل الله عز وجل نبيه لوطا في رحمته الخاصة ، لأنه كـان من الصـالحين ، أي كـان سـليم النية مخلص القلب عـالي الأخلاق.

هكذا استجاب الله لنوح (ع):

[76] (**وَنُوحـاً إِذْ نـادى مِنْ قَبْـلُ فَاسْـتَجَبْنا لَـهُ فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**)

هذه الآية تبين أهمية الـدعاء وعظمة شـأنه ، إذا كـان مستكملا لاركانه وشرائطه ، فنوح (ع) صـبر واسـتقام في أداء رسالته ، وأخلص الطاعة لربه وخالقه ،

فلما تعرضت الأمة المنحرفة لخطر الطوفـــان الـــرهيب الذي لم يكن ليصمد أمامه شـيء ، ولم تكن حـتى سـفينة نوح كافية للافلات من غضبة الأمواج الهـادرة ، طلب نـوح (ع) من ربه النجـــاة ، فجاءته الاســـتجابة الالهية الكريمة لتشمله هو ومن كان معه بـاللطف والعناية ، وتشـير الآية الى أنّ هناك شرطين أساسيين للدعاء :

أـــ العمل في مسـير الـدعاء ، أي أن يكـون الـدعاء مصحوبا بما يتمكن عليه الإنسـان من العمل والسـعي في اتجـاه الهـدف المطلـوب ، لا أن يكـون وسـيلة للقعــود والتهـــرب من المســـؤولية ، ونوحا إنّما دعا ربّه بعد 950 عاما من الدعوة والجهاد.

ب ـ الخشوع والتضرع الى الله سبحانه ، بحيث يتمثل الإنســـان نفسه واقفا بين يـــدي ملك الملـــوك جبـــار الســـماوات والأرض ، أمّا أن يــدعو ربه ، ويكــون فكــره مشغولا بمواضيع دنيوية أو متعلقا بأشخاص آخرين ، فهـذا ليس من أدب الدعاء وليس طريقا للاستجابة أبدا.

والدعاء الصحيح يحوّل الإنسان من حضيض البـئر الى ملك يجلس على عـــرش مصر ، كيوسف (ع) ، ومن رجل مطارد يلقى به في أتـون النـار الملتهبة الى إمـام للنـاس يصبح بداية تاريخ ، كإبراهيم (ع) ، ومن شـاب مغمـور الى ملك مهـاب ، كـداود (ع) ، أو من رجل قد أحـاط المـرض والفقر به الى إنسان سوي ثري ذي أهل وأولاد وجــاه في المجتمع ، كـــــــــأيوب (ع) (على نبينا وآله وعليهم أفضل الصلاة والسلام) ، وكلّ ذلك جرى بالقدرة الالهية الغيبية ، وبواســطة الألطــاف الرحمانية الــتي شــملتهم ، بســبب إخلاص طاعتهم وتوجيههم لخالقهم.

وهذا هو معـنى المسـؤولية ، حيث إنّها لا تقتصر على العمل وتحمّل الأذى والصــــــعاب فقط ، وإنّما تمتد الى انتظار الفرج ، وتوقع الثواب من قبل الربّ الغني

الحميد ، الـذي يعجل بجـزء من رحمته لعبـاده الصـالحين في الــدنيا ، ويؤجل الأعظم منها الى الحيـــاة الأبدية في الدار الآخرة.

[77] (**وَنَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا**)

إنّ إنقــاذ الإنســان من مجتمعة الفاسد قضــية هامة تركز عليها هـذه الآيـات بل كـلّ سـورة الأنبيـاء ، وإنّ من الأصنام المجتمع الذي إن لم يقـدر على إصلاحه فعليه أن ينقذ نفسه منه باللجوء الى الله ، فان البلاء إذا نـزل عمّ ، وهكـذا أنقذ الله نوحا من (**الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيـاتِ اللهِ**).

(**إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ**)

كــانت أعمــالهم منحرفة ونفوســهم خبيثة ، لــذلك أغــــــرقهم الله ، ولم يبق أحد منهم على الأرض ، حيث استجاب الربّ دعاء نـوح فيهم حين دعـاه قـائلا : «**رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً**».

سليمان والقضاء الفصل :

[78] (**وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ**)

من مظاهر رحمة الله بعبـده الـذي يبحث عن الهـدى ويجاهد من أجله ، إنّ الله سـيهديه. وسـورة الأنبيـاء تؤكد في مواضع مختلفة على هـــذه الفكـــرة وهي : إن العقل والهـــدى أفضل نعمة يتمتع بها الإنســـان ، وقد وهب الله هذه النعمة لداود وسـليمان حيث كانا يحكمـان في قضـية معقـدة وقعت على عهـدهم حيث إنّ قطيعا من غنم قـوم دخل حقل كــرم لقــوم آخــرين ، وأفسد الزراعــة. ولعلنا نستوحي من هذه القصة إنّ

مجتمع داود كــان ينقسم الى قســمين : مجتمع زارعي ، ومجتمع رعـاة ، وكـانوا يختلفـون ، حيث إنّ الرعـاة كـانوا يأتون بأغنامهم الى المدينة ويطلقونها فاذا جنّ الليل تهيج الأغنـام فتـدخل في الحقـول المزروعة وتعبث بها ، وكـان أصحاب الحقول يطالبون بدفع تعويضات عن خسارتهم.

قال تعالى :

(**إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ**)

إنَّ الغنم ترعى في الليل بشكل غـير منتظم ، وهكـذا حين دخلت على مزرعة النـــــاس أهلكتها ، فلما جـــــاء المزارعون رأوا أنّه لم يبق من كرومهم شيء ، لا العناقيد ولا الأوراق ، فحكم داود ـ كما جـاء في بعض النصـوص ـ أن يكــون الغنم من نصـيب صـاحب الحقل ، ولعل حكمة هـذا القضـاء تكمن في أن على أصـحاب الماشـية حفظها ليلا بينما على صاحب الزرع حفظها نهـارا ، حيث جـاء في حــديث مــأثور عن رســول الإســلام محمد بن عبد الله (ص) : «**إنّه قضى بحفظ المواشي على أربابها ليلا ، وقضى بحفظ الحرث على أربابه نهارا**» [1]

وحسب ما جاء في الحديث : «**كان سـليمان جالسا عند والـده ، فقـام ، وقـال : لا يا أبتـاه ليس الحكم كما ذكرت ، قال : فما هو الحكم؟ قـال : الحكم هـو أن نعطي البساتين التي أتلفت بسبب نفش الغنم ، لأصحاب الأغنام ليقوموا بإصلاحها ، ونعطي الأغنام لأصـحاب البسـاتين يسـتفيدون من لبنهـا وصـوفها ونتاجها حتى تصلح بساتينهم ، ثمّ يرجـع كـلّ شـيء لصــاحبه ، فيكــون أصــحاب الغنم قــد دفعــوا ثمن إهمالهم وتفريطهم ، ويكون أصـحاب البسـاتين قـد عوضوا عن**

(1) مجمع البيان / ج 7 ـ ص 58.

الإضرار التي لحقت بمزروعاتهم».

[79] (**فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ**)

لقد أعطى الله الحكم لسليمان حيث كان وصي داود ، وكان شديد الاهتمام بتحمل مسئوليته ، وكان يسعى نحو تطبيق العدالة ، فوهب الله له حكما.

(**وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً**)

داود أيضا كان على حقّ ، وهنا نتعرض للسؤال التالي : إذا كـان داود نبيا كسـليمان ، فكيف اختلف قضـاؤهما ، وهل كـان كلا الحكمين صـحيحا ، كما نسـتوحي من هـذه الآية ، إذا كيف يكون لواقعة واحدة حكمان مختلفان؟

الجواب :

أولا : جـاء في النصـوص ما يـوحي الى أنّ الحكم الثاني كـان بمثابة النسخ ، حيث يسـأل أبو بصـير عن أبي عبد الله (ع) قـال قلت له : قـول الله عز وجل : «**وَداوُدَ وَسُـلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمـانِ فِي الْحَـرْثِ**» قلت : حين حكما في الحـرث كـان قضـية واحـدة؟ فقـال (ع) : «إنّه كـان أوحى الله عز وجل الى النبيين قبل داود الى أن بعث الله داود : أيّ غنم نفشت في الحرث فلصاحب الحرث رقـاب الغنم ، ولا يكـون النفش إلّا بالليل ، فـان على صـاحب الزرع أن يحفظه بالنهار ، وعلى صاحب الغنم حفظ الغنم بالليل ، فحكم داود بما حكمت به الأنبيـاء (ع) من قبله ، وأوحى الله عز وجل الى سـليمان (ع) : وأيّ غنم نفشت في زرع فليس لصـاحب الـزرع إلّا ما خـرج من بطونها ، وكـذلك جـرت السـنة بعد سليمان (ع) وهو قـول الله عز وجل : (**وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْمـاً**) فحكم كـلّ واحد منهما بحكم الله عز وجل» [1]

---

(1) نور الثقلين / ج 3 ـ ص 442.

ثانيا : جــاء في حــديث مــأثور : «**إنّ الله أراد أن يكشف للنــاس فضل ســليمان ، وإنّه وصــيّ أبيه وخليفته من بعده**» [1]

ثالثا : إن داود لم يحكم إنّما كـــان ينـــاظر ابنه في الحكم ، وبذلك أيضا وردت نصوص شرعية.

رابعا : إن قيمة ما أتلفه الغنم في حقل القـوم كـانت بقيمة الغنم ، وكانت هناك طريقتان لاسـتيفاء هـذه القيمة : الأولى أخذ الغنم ، والثانية أخذ نتاجها لعـــام واحد ، وقد حكم كلّ نبي بطريقة معينة ، وقد قال داود لسـليمان بعد الحكم ، فكيف لم تقض برقـــاب الغنم ، وقد قـــوّم ذلك العلماء من بـني إسـرائيل فكـان ثمن الكـرم قيمة الغنم ، فقـال سـليمان إن الكـرم لم تجتث من أصـله وإنّما أكل حمله وهو عائد في قابل [2]

النعمة والمسؤولية :

(**وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبـالَ يُسَـبِّحْنَ وَالطَّيْـرَ وَكُنَّا فاعِلِينَ**)

هناك تفاسـير مختلفة وردت في هـذه الكلمـات لعـلّ أقربها ـ والله العالم ـ إنّ الله سبحانه وتعالى سخر لـداود (ع) الجبـال بما فيها من معـادن وإمكانـات ، وسـخر له الطيـور بما تملك من قـدرات على الطـيران ، فما بـال الإنسـان يتمـرد على ربه ، وهو يسـتخدم المعـادن من الجبـال ، ويسـخّر الطيـور ، فيا أيها الإنسـان : إن الحديد المسـخر لك ليس ملكك إنّما هو بيـدك لفـترة محـدودة ، وهذه الآلة الحديدية التي تستخدمها قد تـأتي يـوم القيامة وتقول : إلهي أنت سخرتني لفلان فما فضـله عليّ ، فـاذا استطعت

(1) المصدر / ص 443.
(2) المصدر.

أن تثبت ـــ يــوم القيامة ـــ بأنك كنت إنســانا ، وتحملت مسئوليتك في الحياة فأنت أفضل من الحديد.

إنّ الطيــور والجبــال والأشــياء كلها لله وليست لنا ، ولكن كلما ســخرنا الأشــياء ، كلما ازدادت مســئوليتنا وكبرت ، ويـوم القيامة نحاسب حسـابا عسـيرا. إذا كـانت هنـــاك أرض (مـــوات) وكـــان من الممكن إصـــلاحها واستصلاحها بنـاء أو زارعة أو رعيا أو أيّ شـيء آخر ، ولم تصلحها ، فان هـذه الأرض قد تـأتي يـوم القيامة لتشـتكي عند الله قائلة : إلهي أنت ســـخرتني من أجل النـــاس ولكنهم لم يستفيدوا مني.

إنّ المسـؤولية بالنسـبة للإنسـان دقيقة وشـاملة فهو مسـئول عن كـلّ ما يحيط به ، كما هو مسـئول عن نفسه وأهله ومجتمعة.

إنّ داود لم يكن بالـذي يسـخر الجبـال بقوته الذاتية ، والبشر ليسـوا بالـذين يسـخرون الحديد والنـار بطاقـاتهم الذاتية ، بل الله يفعل كـــلّ ذلك بقدرته ويســـخرها لهم بفضله ، فلو نامت البشرية ليلة ثمّ اسـتيقظت وقد سـلب الله منهم العقل لأصـبحوا وحوشا بكمـاء ، فهل يقـدرون على شــيء من حضـارتهم؟ كلا .. ولا تشـغيل سـيارة أو إنـارة مصـباح فلما ذا لا يشـكرون الله بعمل الصـالحات ، وتحمل المسؤولية؟

[80] (**وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُـوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِـنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ**)

اللبــوس : كـلّ أداة حربية يلبســها الإنســان من درع وجوشن وغيره ، والبأس الحرب.

لقد كــانت حركة داود إصــلاحية في الأرض ، تتطلب صدّ هجمات الأعداء والمعارضـين ، ولـذلك فقد ألهمه الله طريقة صـــنع الـــدروع ، وألان له الحديد ، وهنـــاك نكتة ظريفة في الآية وهي : إنّ الله لم يعلمه صـــــناعة آلات حربية هجومية مـــدمرة ، بل اقتصر على الآلات الدفاعية ولعلّ ذلك يوحي بأن الرسـالات الالهية لا تـدعو الى القتل والـدمار ابتـداء ، وانما هي تـدعو الى الإصـلاح والسـلام ، ولــذلك فهي بحاجة الى الــدفاع عن نفســها في مواجهة أعداء الإسلام والانسانية.

[81] (**وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ**)

كـانت الـريح تحمل سـليمان (ع) بـأمر الله سـبحانه لتنقله الى أيّ مكان شاء في مدة قصيرة ، وقد يأتي يــوم يكتشف فيه علمــاء التــاريخ والآثــار إن الطــائرة كــانت مصـنوعة من أيـام سـليمان (ع) ، حيث كـانت تنقله يوميا بين القدس وقلاع بعلبك ليشرف على أمور مملكته.

[82] (**وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ**)

الى الآن لم يصل العلم هــذا المســتوى ، ولكن ليس من المستحيل أن يسـتخدم البشر الشـياطين في يـوم ما ليقوموا ببعض الأدوار ، إنّ البشر الآن يسـتخدم أنواعا من الحيوانات كالدلافين في أعمال الانقاذ أو عملية التجسس ، والكلاب لاكتشــاف المجــرمين ، والحمــام الزاجل لنقل الرسـائل ، وهكـذا .. ولكنه في المسـتقبل ينبغي أن يصل الى درجة استخدام الأرواح والشياطين.

الغــوص كـان أصـعب الأعمـال حيث لم يكن أحد من البشر في تلك الأيام يسـتطيع القيـام به ولكن الشـياطين كانوا يقومون به بكلّ سهولة بالاضافة الى أعمال

أخرى أيضا ، مثل البناء ..

إن الـــذاهب الى بعلبك يــــرى تلك القلاع الضــــخمة المبنية من صـخور هائلة والـتي لا يعـرف البشر الى الآن كيف جيء بها إلى هنـاك من أمـاكن بعيـدة ، حيث إنّ تلك الصـخور لم تكن موجـودة في تلك الأرض ، من أتى بهـذه الصخور ، ومن بنى تلك القلاع؟ يبدو أنّ الشـياطين فعلـوا ذلك.

(**وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ**)

إنّ هــذه الطاقة الهائلة المتمثلة بالشــياطين لم تكن فالتة الزمـام ، بل كـانت محفوظة في إطارها المرســوم من قبل الله سبحانه وتعالى ، وهذه إشـارة للإنسـان بـأن توجهه الى الله وتوكله عليه يعطيه إمكانية لتســــــــخير الأشياء ، وحل المشاكل في الحياة.

وَأَيُّوبَ إِذْ نــادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّــنِيَ الضُّــرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِـهِ مِنْ ضُـرٍّ وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَـةً مِنْ عِنْـدِنا وَذِكْـرى لِلْعابِـدِينَ (84) وَإِسْـماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْـلِ كُـلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85) وَأَدْخَلْنــاهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (86) وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِــباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلــهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْـتَجَبْنا لَـهُ وَنَجَّيْنــــاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَــــذلِكَ نُنْجِي الْمُــــؤْمِنِينَ (88) وَزَكَرِيَّا إِذْ نــادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَـذَرْنِي فَـرْداً وَأَنْتَ خَيْـرُ الْوارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا

لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ (90) وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ (91)

وحدة الرسالات والأنبياء

هدى من الآيات :

في الــدرس الســابق بيّنا إنّ الأنبيــاء عليهم الصــلاة والســلام هم قــدوات للبشر وإنّما تتكــرر قصصــهم في القرآن الحكيم ــ المـرة بعد الأخـرى ــ وبأسـاليب مختلفة لكي تتكـرس قيـادتهم للبشـرية ، ولا تـزال آيـات القـرآن الحكيم تؤكد هــذه الفكــرة ، فبعد أن تــذكر قصص بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، تبين إنّ هؤلاء جميعا كـانوا يتبعـون خطا فكريا واحـدا هو التوحيد ، ولـذلك يجب على الإنسان أن يتبعهم ويتخذهم قدوات في حياته ، وإن أفعال الأنبيـاء (ع) وصـفاتهم وسـيرتهم ، وإن اختلفت صـورها ، فانها واحدة في المحتوى ، وإنّ وحـدة الأفعـال والصـفات والسير عندهم هي بقدر يكفي الإنسان للاقتداء بهم.

وبــالرغم من إنّ القــرآن الكــريم في هــذه الســورة بالذات لم يبيّن جوانب عديدة من حياة الأنبياء ، إنما أشار الى أسمائهم والى أبرز صفاتهم إشارة خاطفة ، لكنه مع

ذلك يقـــول في نهاية قصصـــهم «**إِنَّ هـــذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**» ، لما ذا؟

لكي يقــول لنا بــأن هــذه المجموعة هي المجموعة «القــدوة» وهي المجموعة «الامــام» بالنســبة إليكم أيها البشر.

ولتأكيد هذه الفكرة تشير هذه الآيات والتي قبلها الى هؤلاء وتـأتي بأسـمائهم متتالية بـالرغم من إنّهم كـانوا في عصــور مختلفة وأمصــار متفرقة ، حــتى إنّ القــرآن أتى بأسمائهم بصورة غير مرتبة تاريخيا.

فيـذكرنا بموسى ثمّ بـإبراهيم ثمّ بنـوح ، ثمّ بسـليمان وأيــوب ، ثمّ بــإدريس ، وبين هــؤلاء آلاف الســنين ، وإن أحـــدهم قبل أو بعد الآخر ، وذلك لكي لا يقـــول فـــرد أو مجتمع ما إنني أتبع النـبي الأخـير ولا أتبع النـبي الأول ، أو إنــني أؤمن بــالنبي الأوسط أو الأول دون الأخــير ، فكلهم نور واحد ، ويجب علينا أن نقتدي بهم جميعا.

والقـرآن الحكيم يتبع ببيانه للقصص والأحكـام والعـبر والأمثـــال ، خطا واحـــدا هو خط التوحيد ، والتوحيد هو : صبغة القرآن التي يضعها على كلّ قصة ، وعلى كلّ عبرة ، وكلّ حكم تشريعي ، وكلّ رؤية وبصيرة.

وإنّ لله سـبحانه أسـماء حسـنى ويهـدينا الـذكر الى أســماء ربنا العزيز ، ومن هنا تجد وكـأن كـلّ ســورة من ســور القــرآن قد خصصت لبيــان اسم من أســماء الله الحسنى ، وهذه السورة بالـذات تـبين اسم المجيب حيث إنّ الله قـريب من الإنسـان ، يسـتجيب له ويسـمع نـداءه والأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام بعد أن توكلـوا عليه في أشد لحظات حياتهم ، فاذا به يستجيب لهم وينصــرهم ، ويعطيهم أكثر مما طلبوا.

وهـذه من خصـائص فضل الله سـبحانه وتعـالى ، إذا فتحت أبــواب رحمته فانها تفيض من كــلّ جــانب لكثرتها وتنوعها حتى تكون حياتك أضـيق من اسـتيعاب كـلّ رحمة الله ، كما إذا فتحتت أبــواب الســماء بــالمطر كيف نــرى الأرض عاجزة عن استقبال أمطار الســماء حــتى أنها تعيد الزائد منها الى البحار مرة أخرى.

بينات من الآيات :

قصة النبي الصابر :

[83] أصيب بالمرض ومات أهله ، ونفـذت مواشـيه ، وكان عزيزا في قومه فـافتقر ، فابتعد عن النـاس بسـبب فقــره ومرضه ، وكــانت زوجته الوفية هي الــتي تخدمه ، وتنفق عليه وذلك بقيامها بالخدمة في بيوت الناس بعد أن كــــانت ملكة في قريتها ، وحينما يطفح به الكيل يبـــــدأ بالدعاء ، ذلك هو النبي الصابر أيـوب عليه السـلام ، ولكن انظر كيف يدعو؟

[83] (**وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ**)

لأنّ الله عالم بما أصاب أيوب ، فلا بدّ أن يكون نداءه استعطافا ودعاء وكأنه يقــول يا رب إنّ الضر قد بلغ مــني غايته ، ولعلّ التعبـير ب (النـداء) هنا للدلالة على إنّ الضر قد دفع بــأيوب إلى أن يعلو صــوته ويصــرخ ، مع أنّ الله قريب يناجي وليس ببعيد حتى ينادى.

(**وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**)

أرحم الراحمين ، فإليك أتوجه بالدعاء لترفع عني هذا الضر.

[84] (**فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ**)

هذه عبرة لنا نحن الذين نعبد الله لكي نعلم ، أيّ رب رحيم نعبده ، وكيف إنّه يستجيب دعاءنا ، فلا يكشف السوء عنا فقط ، إنّما ويزيدنا من فضله أيضا.

ويبقى سؤال : لما ذا ابتلى الربّ أيوب وهو النبي العظيم المكرّم عند ربّه؟

وما ذا كانت بليته ، وما الذي نعتبره من قصته؟

للاجابة عن هذه الأسئلة وغيرها أنقل هنا نص حديثين مأثورين عن أئمة الهدى عليهم السلام :

1 ـ الحديث الأول مأثور عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عن أبيه الباقر (ع) يفنّد فيه الإمام المزاعم التي كانت رائجة وتدعي أن أيوب ابتلي بسبب ذنب ارتكبه ، وأنه قد بلغ به البلاء حدا نبذه النّاس ، يقول الامام (ع) : «إنّ أيوب (ع) ابتلي بغير ذنب ، وأن الأنبياء معصومون لا يذنبون ولا يزيغون ولا يرتكبون ذنبا صغيرا ولا كبيرا» وقال (ع) : «إنّ أيوب مع جميع ما ابتلي به لم تنتن له رائحة ، ولا قبحت له صورة ولا خرجت منه مدة من دم ولا قيح ، ولا استقذرة أحد رآه ، ولا استوحش منه أحد شاهده ، ولا تدود شيء من جسده ، وهكذا يصنع الله عز وجل بجميع من يبليه من أنبيائه وأوليائه المكرمين عليه ، وإنما اجتنبه الناس لفقره ، وضعفه في ظاهر أمره ، لجهلهم بما له عند ربه تعالى ذكره من التأييد والفرج [1] ، وقد قال النبي (ص) أعظم الناس بلاء الأنبياء ، ثمّ الأمثل فالأمثل ، وإنّما ابتلاه الله بالبلاء العظيم الذي يهون معه على جميع الناس لئلا يدعوا له معه

---

(1) في المصدر (القرح) وأظنه خطأ.

الربوبية [1] إذا شاهدوا ما أراد الله تعالى ذكـره أن يوصـله إليه من عظائم نعمه متى شاهدوه ، ليسـتدلوا بـذلك على إنّ الثـــواب من الله تعـــالى على ضـــربين : اســـتحقاق واختصاص ولئلا يحقّروا ضعيفا لضعفه ، ولا فقيرا لفقـره ، ولا مريضا لمرضه ، وليعلموا أنّه يسقم من يشاء ويشــفي من يشاء ، متى شاء كيف شـاء بـأيّ شـيء شـاء ، ويجعل ذلك عبرة لمن يشاء ، وشقاوة لمن يشــاء ، وهو عز وجل في جميع ذلك عـــدل في قضــائه ، وحكيم في أفعاله ، لا يفعل بعباده إلّا الأصلح لهم ولا قوة إلّا بالله.

» [2] هكذا يؤكد هـذا الحـديث : إن حكمة ابتلاء أيـوب (أو لا أقل العبرة التي نستوحيها منه) عدم جعل البلاء في الدنيا دليلا على غضب الله ، بل قد يكون دليلا على قــرب صاحبه من الله.

2 ـ أما الحـديث الثـاني المـروي عن أبي بصـير عن الامام الصادق (ع) فانه يفصّل القـول في بلاء أيـوب كيف كان ، ومتى طفح كيل الصبر عنده :

إنّما كانت بلية أيوب التي ابتلي بها في الــدنيا ، لنعمة أنعم الله بها عليه فــأدى شــكرها ، وكــان إبليس في ذلك الزمــان لا يحجب دون العــرش ، فلما صــعد عمل أيــوب بــأداء شــكر النعمة ، حســده إبليس ، فقــال : يا رب إن أيـوب لم يـؤد شـكر هـذه النعمة إلّا بما أعطيته من الـدنيا فلو حلت بينه وبين دنياه ، ما أدى إليك شكر نعمة ، فقـال : قد ســلطتك على دنيــاه ، فلم يــدع له دنيا ولا ولــدا إلّا أهلك كلّ شيء له ، وهو يحمد الله عز وجل ، ثمّ رجع إليه فقال : يا رب إن أيوب يعلم إنّك

(1) كـــذا في النص وأظنه خطأ والمعـــنى لكي لا ينســـبوا أيـــوب الى الربوبية ، هذه الفكرة مذكورة في نصوص أخرى أيضا.
(2) المصدر / ص 447.

سـترد إليه دنيـاه الـتي أخـذتها منه ، فسـلطني على بدنه تعلم إنّه لا يــؤدي شــكر نعمة ، قــال الله عز وجل : قد سـلطتك على بدنه ما عـدا عينه وقلبه ولسـانه وسـمعه ، فقال أبو بصـير : قـال أبو عبد الله (ع) : فـانقض مبـادرا ، خشــية أن تدركه رحمة الله عز وجل فتحــول بينه وبينه ، فنفخ في منخريه من نـار السـموم ، فصـار جسـده نقطا نقطا [1] ، فلما اشـتد به البلاء وكـان في آخر بليته جـاءه أصـحابه فقـالوا : يا أيـوب ما نعلم أحـدا ابتلي بمثل هـذه البلية إلّا لسريرة سـوء ، فلعلّك أسـررت سـوء في الـذي تبدي لنا ، قال : فعند ذلك ناجي أيـوب ربّه عز وجل : رب ابتليتـني بهـذه البلية وأنت تعلم إنّه لم يعـرض لي أمـران قط إلّا لزمت أخشـنهما على بـدني ، ولم آكل أكلة قط إلّا وعلى خـواني يـتيم ، فلو أن لي منك مقعد الخصم لأدليت بحجتي [2] قال : فعرضت سحابة فنطق فيها ناطق فقال : يا أيـوب أدل بحجتك ، قـال : فشد عليه مـأزره وجثا على ركبتيه وقال : ابتليتني وأنت تعلم إنّه لم يعرض لي أمـران قط إلّا لــزمت أخشــنهما على بــدني ، ولم آكل أكلة من طعام إلّا وعلى خواني يتيم ، قال : فقيل له : يا أيوب من حبب إليك الطاعة؟ قال : فأخذ كفا من تراب فوضعه في فيه ثم قال : أنت يا ربّ.

[3] ونستوحي من هذه الرواية عدة حقائق :

أــ إنّ شـكر أيـوب كـان عظيما فامتحنه الله سـبحانه بأعظم البلاء ليعرف النـاس أن الشـكر ليس عند الرضـاء في منطق الأنبيــــاء ، بل وأيضا عند البلاء ، وإنّ أيــــوب وسليمان في الشكر سواء.

---

(1) الى هنا ينقطع الحـديث المـأثور عن كتـاب علل الشـرائع عن أبي بصير ، ويستمر بعدئذ حديث آخر مشابه له مأثور في الإمام موسى بن جعفر (ع). انظر المصدر.

(2) ادلى لحجته : طرحها وأصبح بها

(3) المصدر / ص 447 ـ 448.

ب ـ إن حكمة النبوة تتنافى مع التغييـر ، ولـذلك فـان الله لا يـدع أنبيـاءه عليهم السـلام يتعرضـون للشـماتة بل يستجيب دعاءهم.

ج ـ إنّ أيـوب ذلك العبد الصـابر وذلك النـبي الكـريم عند الله ، تاب الى ربه فور ما صـدر منه ما يبـدو أنه نـوع من الفخر بعلمه ، بالرغم من إنّ صبره وشكره واجتهـاده كان كلّ ذلك عظيما غاية العظمة.

صبر الأنبياء :

[85] (**وَإِسْـماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْـلِ كُـلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ**)

يـذكر الله سـبحانه إدريس وذا الكفل وإسـماعيل (ع) معا بالرغم من إن ترتيبهم الزمني كان هكـذا : إدريس ثم إسـماعيل فـذا الكفل ، وذلك لكي يـبيّن صـفة يجب أن نقتدي بهم منها وهي صفة (الصبر).

لقد صبر إدريس على دعوة قومه فلم يسـتجب له إلّا قليل حتى رفعه الله إليه.

أما إسماعيل فقد ابتلاه الله حين أمر والده بأن يتركه وأمه بـواد غـير ذي زرع عند بيت الله الحـرام ، فـذاق العطش والغربة ، وكان فيهما صابرا ، حتى إذا بلغ أشده ، أمر والده بذبحه فأسلم لله صابرا محتسبا.

وأما ذا الكفل فقد كان مرسلا الى قومه يتبع شـريعة داود (ع) وقد كفل مجموعة من الأنبيـاء يقـال : إنهم سـبعون ، فـأطلقهم وبقي مسـجونا في بـئر عميقة وضع على رأسـها صـخرة كبـيرة ، وظل صـابرا ، الى أن أهلك الله الطاغوت فأطلق سراحه بعد ذلك.

[86] (**وَأَدْخَلْنـــــــاهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ**)

فلأنهم كـانوا من الصـالحين أدخلهم الله في رحمته ، ونحن أيضا يجب أن نصبح من الصـابرين الصـالحين حـتى يدخلنا الله معهم.

دعاء يونس :

[87] (**وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً**)

إن كلمة «ذا النون» تعني لغويا صـاحب الحـوت وهي تشير الى نبينا يونس بن متى (ع) ، وقصـته تلخص في أنه دعا على قومه حيث لم يسـتجيبوا للرسـالة وذلك قبل أن يكون وقت الـدعاء عليهم ، ثمّ خـرج من قريته الـتي تضم حـوالي (120) ألف شـخص وهـاجر عنها وهو يحسب أنّه خـرج من ضـيق قومه حيث ابتعد عن الـذين أصـروا على عدم قبول دعوته ، رغم إنّه بذل في إقناعهم جهودا كبيرة ، ولكنه انتقل من مكان ضـيق الى ما هو أضـيق منه ، في بطن الحـــوت ، الـــذي ابتلعه فمكث هنـــاك وهو في حالة كرب شديدة.

(**فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ**)

أي اعتقد أنه سيتجه الى الحرية ، بينما كـان يتجه الى السجن الرهيب.

ذهب الى شـاطئ البحر حيث جـاءت سـفينة فـركب فيها ، وإذا بحـوت ضـخم يهـاجم السـفينة ليبتلعها ، فقـال أهل السفينة دعونا نقترع فنأخذ واحدا من ركاب السـفينة ونلقي به الى الحـــوت فيـــترك الســـفينة تواصل رحلتها ، وهكذا فعلوا فوقعت القرعة عليه كما قـال ربّنا سـبحانه : «**فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ**» (الصافات).

لما اقترعوا ثلاث مرات خـرج اسم يـونس فيها جميعا ، وهذا كان من تقدير الله سبحانه ، لسجن نبيه عبرة لنا ، فــالقى في البحر حيث يســارع ذلك الحــوت الى ابتلاعه وغاص به في الأعماق فأصبح يونس في ظلمـات متراكمة ، وهنا أدرك خطأه فأخذ يستغفر ربه ويناجيه ، تائبا معتذرا معترفا بكمال الله تعالى وبنقصانه هو :

(**فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ**)

إن الأنبيـاء معصـومون ، ولكنهم يشـعرون أمـام الله سـبحانه بالـذنب والتقصـير ، وحـتى عبـادتهم لا يعتبرونها عبادة لفرط إيمانهم بالله ، وتجلي نور الله في أفئــدتهم ، ويعتـــبرون عبــادتهم نوعا من التقصـــير بحق الله ، لأنها بالتالي عبادات بشر ضعفاء عاجزين لذلك يقول

سبحانك

أنت النزيه المقـدس ، أما نحن فبشر نتصف بـالنقص والجهل والعجز.

(**إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**)

لأنـــني من البشر ، وأنا شخصـــيا أتحمل مســـئولية خطئي ولا أحمله ربّي أو الأقدار.

[88] (**فَاسْـتَجَبْنا لَـهُ وَنَجَّيْنـاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَـذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ**)

إن كلمة «**نُنْجِي الْمُـؤْمِنِينَ**» تعطينا الأمل بأننا مهما فرّطنا في جنب الله فـان بـاب الاسـتغفار مفتـوح أمامنا ، ورحمة الله قابلة لأن تسعنا فلا داعي لليأس والقنوط.

دعاء زكريا :

[89] (**وَزَكَرِيَّا إِذْ نـادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَـذَرْنِي فَـرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ**)

يقول : يا ربّ أنت الإله ، وأنت الوارث ، ولكني أحتاج الى من يرثــني ، وزكريا (ع) لم يكن يطلب من الله وارثا يرث أموره المادية ، إنّما كان يطلب وارثا يـرث رسـالته ، حسبما يبدو لي.

[90] (**فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا لَـهُ زَوْجَهُ**)

أي جعلنا له أسرة مثالية.

فيحــيى كــان نبيا منذ الطفولة ، وزكريا الــذي قضى عمــرا في تبليغ الرســالة والــدعوة إليها ، وكــان شــيخ المرســلين وكــانت زوجته صــالحة ، فكوّنــوا جميعا تلك الاسرة المتكاملة.

(**إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ**)

هــذه الأســرة قــامت على أســاس المســارعة في الخيرات ، وإنّ كـلّ تجمع يـدور حـول محـور معين ، وذلك المحور يعتبر روح التجمع ، والاسرة الفاضـلة هي الأسـرة التي تتجمع وتتعاون ويندفع أفرادها الى أعمال الخير التي تعود عليهم وعلى مجتمعهم بالازدهار والتقدم.

(**وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً**)

والصفة الاخـرى لهـذه الأسـرة هي المزيد من التوجه الى الله سبحانه ، والعمل

بمنهجه ، والتمسك بـروح العبـادة وجـوهر العبـادة ، ولبّ الإيمان وهو الدعاء ، لأنه حبل متصل بين المرء وربّه.

وإذا خافوا من شيء دعوا الله ، وإذا أرادوا شيئا دعوا الله ، ولذلك جـاء في محتـوى الحـديث الـذي يخـاطب به الله موسى : «ادعني لملح طعامك».

(**وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ**)

الخشــــوع : هو صـــدق التوجه الى الله ، وعميق المعرفة بالنفس وعجزها وتقصيرها.

مريم نموذج المرأة الفاضلة :

[91] (**وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا**)

إن الله قد خلق لكـلّ الأجيـال ولكـلّ الأفـراد ولكـلّ الطبقات ، ولكلّ الحالات البشرية نموذجا يقتدى به ، ومن النمـاذج المطلوبة في كـلّ زمـان وخصوصا في وقتنا الحاضر ، «المرأة القدوة» وكانت تلك المرأة القـدوة هي (مريم بنت عمران) عليها السلام.

لقد اعتصـمت من الرذيلة فأعطاها الله سـبحانه عيسى ، وذلك بعد أن نفخ جبرئيل في جيبها فحملت من دون أن يمسها بشر.

(**وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ**)

أن تحمل امرأة عذراء لم تـتزوج ولم يمسـها أيّ بشر ، وتلد طفلا سويا ـ معجزة عظيمة ـ جعلها الله للنّاس في جميع الأجيـال آية دالة على هيمنته على الكـون وتـدبيره المباشر لما يجري فيه من أحداث.

إِنَّ هـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِـدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُـدُونِ (92) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُـونَ (93) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُـؤْمِنٌ فَلا كُفْـرانَ لِسَـعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ (94) وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (95) حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُـلِّ حَـدَبٍ يَنْسِـلُونَ (96) وَاقْتَـرَبَ الْوَعْـدُ الْحَـقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَـدْ كُنَّا فِي غَفْلَـةٍ مِنْ هـذا بَـلْ كُنَّا ظـالِمِينَ (97) إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ

---

96 [حدب] : أي مرتفع من الأرض ـ كالجبال والآكام ..
97 [شاخصة] : الشاخصة هي العين التي لا تطرف من شدّة الهول.

اللــهِ حَصَــبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ (98) لَــوْ كــانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَكُـلٌّ فِيها خالِـدُونَ (99) لَهُمْ فِيها زَفِــيرٌ وَهُمْ فِيها لا يَسْــمَعُونَ (100) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَـدُونَ (101) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَهُمْ فِي مَا اشْـتَهَتْ أَنْفُسُـهُمْ خالِـدُونَ (102) لا يَحْـزُنُهُمُ الْفَـزَعُ الْأَكْبَـرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَـدُونَ (103) يَـوْمَ نَطْـوِي السَّـماءَ كَطَيِّ السِّـجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَـدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ (104)

---

98 [حصب] : الحصب كل حجر يرمى به ، ولذا قيل للأحجـار الصـغيرة حصباء.

102 [حسيسها] : صوتها الذي يحسّ به.

104 [السّجلّ] : السجل هو ما يسجّل فيه.

الجزاء مصير حتمي

هدى من الآيات :

تـذكرنا الآيـات بـالجزاء ، وإنّ كـلّ قرية أهلكت جـزاء لأفعالها في الــدنيا ، ســتعود الى الآخــرة لتلقى جزاءها العادل ، متى؟ حين تجيء أشراط الساعة ، فتفتح السـبل أمام اجتياح أقـوام «يـأجوج ومـأجوج» حيث يتـدفقون من كلّ حدب كالسيل ، هنالك يقـترب البعث ذلك الوعد الحق ، فتظل أبصــار الكفــار شاخصة من هــول القيامة ، وهم يقولـــــون : قد كنا في غفلة عن هـــــذا «ثمّ يعـــــترفون بمسـؤوليتهم عن هـذه الغفلة الـتي شـملتهم بـالرغم من النذر المتواترة» فهم كانوا ظالمين. ويأتيهم الجـواب : إن جزاءكم اليوم أن تنبـذوا في نـار جهنم ، أنتم والآلهة الـتي زعمتم أنها تشفع لكم ، وتخلصكم من الجزاء.

ثمّ تقول : إن كانت تلك آلهة فعلا إذا ما دخلت النــار! بلى الكل في النـار خالـدا فيها ، لهم فيها زفـيرـ من شـدة العذاب وهم فيها لا يسمعون.

بينما الذين هداهم الله بعيــدون عنها ، الى درجة أنهم لا يسـمعون حـتى حسيسـها ، وهم فيما اشـتهت أنفسـهم خالدون!

لا يخشون من الفـزع الأكـبر ، حيث تتلقـاهم الملائكة بالبشــرى والترحــاب قائلة : (**هــذا يَــوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**).

وفي ذلك اليوم الـرهيب يطـوي الـربّ السـماء ، كما يطوي الكتاب الأوراق ، كـذلك يعيد الله الخلق كما بـدأه ، إنّه وعد الله الذي ألزم به نفسه سبحانه.

وحدة الرسالات والأنبياء

بينات من الآيات :

[92] بالرغم من ان الناس يختلفون في انتمـاءاتهم ، وولائهم ـ كـلّ يـدعي انتمـاء لرسـول وولاء لإمـام ـ فـان المهم في الملأ الأعلى ، ليست هـذه الانتمـاءات النظرية والولاءات الصورية ، وانما المهم هو العمل الصـالح الـذي يكون خالصا لوجه الله سبحانه وتعالى ، تحت ظل الانتماء والولاء المشروع. إنّ العمل هو الـذي يفـرق بين أخـوين ، كما يجمع بين رجلين غريـــبين ، يختلف كــلّ شـــيء في حياتهما باستثناء (العمل الصالح).

فالصــبر يجمع بين إســماعيل وإدريس وذي الكفل ـــ كما بينّا في الدرس السـابق ـ بـالرغم من إنّ إدريس في بلد آخر ، وربما في عصر ما قبل التـاريخ المكتـوب ، بينما ذو الكفل كان في عصر متأخر ، وفي بلد ثان.

ويعـود القـرآن الى التأكيد على فكـرة المسـؤولية ، وتحطيم الأصنام النفسية ، التي تحول دون إيمان الإنسان بمسؤوليته ، ومن تلك الأصنام (صنم الطائفية).

بعض النـاس يتهربـون من مسـئولياتهم في الحيـاة ، اعتقادا بأن دينهم الـذي يلـتزمون به ويتمسـكون بعقائـده أفضل من دين الآخرين ومن عقائدهم ، وأن نـبيّهم أفضل من سـائر الأنبيـاء ، وأن إمـامهم أفضل من سـائر الأئمة ، ويحســــبون أن ذلك يغـــــنيهم عن العمل ، وعن تحمل مسئوليتهم الجدّية في الحياة ، ويأتي القرآن ، ليهدم هـذه العقــدة النفســية ، ويــبين بــأن الأنبيــاء هم أمة واحــدة ويشكلون القدوة الحسنة للبشرية. فاذن ، لا مجـال هنـاك لإيجاد خلاف بين الأنبيـاء ، لكي نقـول : إنّا ننتمي الى هـذا فنحن أفضل منكم. كلّا! إنّ الـــذي ينتمي الى محمد (ص) ينتمي الى عيسى (ع) وموسى (ع) وإبراهيم (ع) وإدريس (ع) ونـوح (ع) ، وجميع الأنبيـاء والصـديقين عليهم الصـلاة والسـلام ، ومن ينتمي إليهم صـادقا فهو ينتمي الى محمد (ص) ، والانتماء الحقيقي هو العمل الصـالح ، لـذلك يربط القرآن بين فكرة وحدة الأنبيـاء وفكـرة الجـزاء ، وفـور ما يحدثنا عن وحدة الأنبياء ، يقول الله تعالى :

(**إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**)

ويحــدثنا في آيــات تالية عن الآخــرة ، وعن أشــراط الساعة ، لان الاقتصار على الولاء النظـري الجامد إنّما هو صنمية يجب أن تحطم في نفـوس البشر لكي لا يلجأ إليها الإنسان خشية تحمله المسؤولية ، ذلك لأن القـرآن يعـالج الفكرة الخاطئة بأمرين :

أولا : يكشف القرآن الحكيم زيف الفكرة الـتي يعتمد عليها البشر ، ويـــــبرّر بها لا مســــئوليته ، ولا جدّيته في الحياة.

فمثلا يقــول : إن الهــروب الى ظل التفرقة الطائفية والمذهبية ، للتخلص من ثقل المســؤولية خطأ ، ذلك لان الرسالات الالهية إنّما هي واحدة.

ثانيا : يقتلع الجــذر النفسي الــذي تعتمد عليه هــذه الفكرة.

لما ذا يهرب الإنسان الى ظل الطائفية ، والمذهبيــة؟ ولما ذا يريد أن يفرق بين الله ورسـله؟ لأنه لم يسـتوعب حقيقة الجزاء بصورة جدّية.

فـاذا عـرف الإنسـان : إنّ عمله سـوف يجـازى عليه جـزاء حقيقيا مؤكـدا وإنه لا يسـتطيع أن يهـرب من جدّية الحيــاة وتحمل مســئولياتها فانه لا يــبرر تقاعسه بهــذه الأفكار الخاطئة ، وهكذا استخدم السـياق القـرآني هـذين الاسلوبين كما سوف نرى.

والآية تـدعو الى وحـدة الأمة الإسـلامية ، أما ما نـراه اليوم من تعـدد الـدول الإسـلامية وتعـدد الأنظمة الحاكمة فيها فهو خلاف المنهج القــرآني القــويم وهو السر في تخلفنا وشقائنا.

(**وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ**)

بــدل أن يقـول القـرآن وتقطعـوا رسـالاتهم قـال : (**وَتَقَطَّعُــوا أَمْــرَهُمْ**) ، لعلّه لكي يوضح بأنّه حــتى ولو اختلف الناس في الدين ، فان الـدين لا يختلف لأنه واحد ، وعند ما يتقطع الناس أمـرهم ، ويختلفـون في الرسـالات والرسل ، انطلاقا من أهــوائهم ومصــالحهم المادية في الدنيا ، فهذا سيضعهم أمام مسئولية خطيرة بين يدي الله سبحانه وتعالى يوم القيامة.

(**كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ**)

الجميع يعودون إلينا ، ولكن لا نقيسـهم بـأمرهم ، إنّما نقيسهم بأمرنا (أي برسـالاتنا) ورسـالاتنا واحـدة ، وحكمنا واحد.

[94] وحينما يقول الإنسان : أنا مسلم ، نسـأله أولا : ما هو عملـك؟ ، أو يقـول : أنا أنتمي الى السـيد المسـيح (ع) ، نقول له : المسيح يجازى بعمله وأنت تجازى بعملك وحدك.

(**فَمَنْ يَعْمَـلْ مِنَ الصَّـالِحاتِ وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ**)

اعمل أيّ شـيء من الصـالحات قليلا كـان أو كثـيرا فانك ستراه وستشكر على سـعيك ، وتعطى عليه الجـزاء المناسب ، إن كنت مؤمنا.

(**وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ**)

ما دام القلم بيد الله ، والسـجل بيـده ، فهو لا ينسى عملك ، فلا تقل : إن هـــذا العمل لا أحد يعلم به ، فما الفائدة من القيام به؟ ، ونجد في كلمة «من الصـالحات» إشارة الى إن على الإنسان أن لا يستصغر أيّ عمل يكون فيه خير ، لأنّ أعمـال الخـير الصـغيرة عند ما تتجمع فانها سـتكون أعمـالا عظيمة ، يظهر أثرها في المجتمع على المدى القريب أو البعيد.

دع هـذا الاحسـاس ينمو عنـدك : بـأن الله يراقبك ويسـجل كـلّ كبـيرة وصـغيرة من أعمالك الحسـنة ، آنئذ تندفع الى العمل بروح عالية وأمل مشرق.

[95] (**وَحَـرامٌ عَلى قَرْيَـةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ**)

إن تلك القـرى (أي الأمم والمجتمعـات الـتي يـدمّرها الله بسبب كفرها وأعمالها المنحرفة) لن تعود الى الحياة أبدا ، وهذا ما يؤيـده حـديث منقـول عن الامـام أبي جعفر الباقر (ع) حول القيامة الصـغرى [1] ، وهنـاك معـنى آخر للآية الكريمة قاله بعض

---

(1) راجع تفسير نور الثقلين / ج 3 ـ ص 460.

المفسرين :

إن القرية التي تهلك تعود الى الجزاء ، وهـذا المعـنى يفهم من سائر الآيات القرآنية أيضا ، فتكون الآية مشـيرة الى أنّ هناك سـاعتي هلاك للأمم الظالمة : سـاعة خاصة بها ، وساعة للكـون كله ، وهي السـاعة العظمى والقيامة الكبرى.

نهاية الحضارات :

[96] (**حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَـأْجُوجُ وَمَـأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ**)

أي إنّ الطريق أمـــام يـــأجوج ومـــأجوج قد انفتح ، فيندفعون مسـرعين من الأمـاكن المرتفعة ليغـزوا بلـدان العـالم ــ أما ذلك السد الـذي ذكـره القـرآن في سـورة الكهف ـ فيكون آنذاك قد أنهـار ، ويـأجوج ومـأجوج الـذين هم رمز الخـراب يكونـون قد جـاؤوا ، يقـول بعض علمـاء الحضارة : بـأن الحضـارة أشـبه ما تكـون بشـجرة إذا مـرّ عليها الزمـان تتسـوّس من داخلها ولكنها تبقى قائمة الى أن يأتي من الخارج من يقوم بتحريكها حركة بسيطة فتقع على الأرض ، وهكـذا الحضـارات يعيث بـداخلها الفسـاد ولكنها تبقى الى أن تـــــــأتي موجة بربرية من أطرافها فتقضي عليها قضاء نهائيا ، وهذه نهاية كلّ الحضارات في التاريخ.

ولعلّ هذه الآية تلمح الى إنّ نهاية الحضارات البشرية تجـري هكـذا ، باعتبـار إنّ يـأجوج ومـأجوج قـوم برابـرة همجيون ، يهجمون على هذه المجتمعات وينهونها.

ويبـدو إنّه قبل قيـام السـاعة سـتكون هنـاك موجة بربرية ، وإنّ الله سبحانه شاء أن ينهي حيـاة الإنسـان بيد الإنسـان نفسه ، أو ليس الظـالم سـيفه ينتقم به ، وينتقم منه.

الوعد الحقّ :

[97] (**وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُ**)

إذا جاء هـؤلاء فـاعلم بـأن السـاعة بـاتت قريبة ، وإذا جـاءت السـاعة فالإنسـان لا يعـرف ما ذا يعمل ، انه يفقد إرادته ويسـيطر عليه الخـوف ، وتـرى عينه قد وقفت في اتجاه محدد لا تتحول عنه يمنة أو يسرة من هول الموقف وشدة الرعب ، لذا يقول القرآن :

(**فَـإِذا هِيَ شاخِصَـةٌ أَبْصـارُ الَّذِينَ كَفَـرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا**)

تـرى هـؤلاء يقولـون : إنهم كـانوا غـافلين عن هـذا ، ولكنهم سـرعان ما يتـذكرون إن غفلتهم كـانت منهم أنفسهم ، ولذلك لا تكون مـبررة لرفع المسـؤولية عنهم ، فقالوا :

(**بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ**)

[98] وهذه الأصـنام الـتي تعبد من دون الله ، ويعتقد الإنسـان انها تكفيه المسـؤولية ، هي والـذين يعبـدونها سـوف يصـبحون وقـود جهنم ، ويخلـدون فيها مهـانين ، فكيف تعبد أيها الإنسان هذا الصـنم الـذي ينبذ في الجحيم ، ويحـترق في النـار ، وتعتقد أنه سـوف ينصـرك من دون الله؟!

(**إِنَّكُمْ وَما تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللـهِ حَصَـبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ**)

[99] (**لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها**)

لأنّ الآلهة لا يعقل أن تدخل جهنم.

(**وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ**)

الذين عبدوا والذين عبدوا من دون الله راضين بذلك.

والـولاءات الـتي يعتقد الإنسـان انها تكفيه مسـئوليته في الحياة نوعان :

1 ـ الولاء للصـالحين ولكن بصـورة خاطئة اتخـاذ هـذا الـولاء بـديلا عن العمل ، فمن يـوالي رسـول الله محمد (ص) ولا يعمل بسنته وتعاليمه ، فانه لن يستفيد شـيئا من ولائه.

2 ـ الولاءات المنحرفة من أساسها ، كـالولاء لـرئيس العشيرة ، لـرئيس التجمع ، للطـاغوت ، لصـاحب المـال ، لصاحب الجاه ، من دون تقوى.

هذه الـولاءات خاطئة من أساسـها ، لأنّ الله سـبحانه لم يـأذن للإنسـان باتبـاع أحد ، إلّا أولئك الـذين عينهم في القرآن الكريم أو عرفهم عبر بصائر الذكر الحكيم.

[100] (**لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ**)

إنّهم لا يملكـون سـوى الصـراخ ، ولكنهم من شـدة العذاب والألم لا يسمعون صراخ بعضهم.

الذين سبقت لهم الحسنى :

[101] إن المؤمنين الصادقين بعيدون عن نار جهنم ، وهم في شـغل فـاكهون يتنعمـون في الجنة ، بينما هنـاك أناس يحترقون بالنيران الملتهبة ، وقد صمّت آذانهم

من شدة زفيرها حـتى فقـدت حاسة السـمع ، تلك النعمة العظيمة الـــتي لم يشـــكروا الله عليها في الـــدنيا ولم يستعملوها في طاعته.

(**إِنَّ الَّذِينَ سَـبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْـنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ**)

والحسنى هي الرسالة الحسـنة .. الفكـرة الحسـنة .. السـيرة الحسـنة .. وهـؤلاء وفقهم الله لها في الـدنيا ، وبالتالي فهم مبعدون عن نار جهنم في الآخرة.

[102] (**لا يَسْـــمَعُونَ حَسِيسَـــها وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ**)

من نعيم مقيم وحور وولدان.

[103] (**لا يَحْـزُنُهُمُ الْفَـزَعُ الْأَكْبَـرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**)

في الآيـــات القرآنية تأكيد على هـــذه الفكـــرة : إنّ الإنسان في الآخرة ينعم بألوان النعم ، وهـذا يكفيه جـزاء لأعماله الصـــالحات ولكن الله يعطيه نعمة ثانية ، بـــأن يرسل اليه الملائكة ليستقبلوه أحسن استقبال وينقلـوا له شكر الله على أعماله وسلامه عليه ، وهذا تكـريم معنـوي عظيم.

[104] (**يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ**)

السـجل : هو الغلاف ، والكتب : هي الأوراق المكتوبة ، فـالغلاف يجمع الأوراق المكتوبة وبعد فتح الغلاف تنتشر الأوراق ، هكذا يطوي الله السماوات فتنتهي الدنيا وتقـوم الساعة ويأتي يوم الحساب.

هكذا تكون عظمة الساعة ، ولكن مع ذلك يعطي الله السكينة والبشرى للمؤمنين.

ولعل الآية تشير أيضا الى فكرة أخرى هي :

إنّ إفناء السماوات والأرض وإعادة خلقها عند الله هو من السـهولة مثل الـذي يغلق فيها أحـدنا كتابا ثمّ يفتحه مرة أخرى ، وهذا المثال إنّما هو لتقريب الأمر الى أذهاننا لا على سبيل المطابقة.

إنّ تصور هيمنة الله سبحانه على الكون يجعلنا أقرب الى واقعيـات الحيـاة ، وبالتـالي الى جدّية الحيـاة ومسئولياتنا فيها.

(**كَما بَـدَأْنا أَوَّلَ خَلْـقٍ نُعِيـدُهُ وَعْـداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ**)

هذه الآية تشير الى فكرة علمية وهي أن بداية الخلق دليل على نهايته ، وهـذه البداية وتلك النهاية شـاهدان يكشـفان طبيعة وتفاصـيل عـودة الخلق ، لأنّ الخليقة وتطوراتها تسير على سنة واحدة لو فهم الإنسان تطبيقها على ظاهرة فانه سيفهم تطبيقها على بقية الظواهر.

كلمة أخيرة :

إن المشـكلة النفسـية هي الأسـاس ، ومن دون معالجتها سوف تستمر الأفكـار الباطلة عند الفـرد ، هكـذا تجد القـرآن في آخر سـورة الأنبيـاء يـذكرنا بـاليوم الآخر ويصور لنا مشـاهده ، ويثـير فينا قـوة الخيـال ، وهي قـوة هامة عند البشر ، وعلى الإنسـان أن يسـتفيد منها في تربية ذاته ، فيقـول للإنسـان تصـور وقوفك أمـام الله ، وتصور لحظة

قيـام السـاعة ، وتصـور حينما ينفتح الطريق أمـام يـأجوج ومأجوج؟! كـلّ ذلك لتهـتز نفسـية الإنسـان ، ويلين قلبه ، ويكون مسـتعدا لإصـلاح قناعاته ، وإسـقاط حجب التـبرير عن نفسه.

وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ (105) إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ (106) وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ (107) قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ (109) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ (110) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (111) قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (112)

---

106 [لبلاغا] : أي كفاية في البلوغ إلى القصد وهو الحق.
109 [آذنتكم] : أعلمتكم.
[وإن أدري] : أي وما أدري.

رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِ

هدى من الآيات :

لأن الإنســان مســئول عن أفعاله ، فقد منّ الله على الصالحين من عباده بوراثة الأرض ، هكذا كتب في الزبـور من بعد الذكر.

بهـذا الأمل العظيم يبـدأ الـدرس الأخـير من سـورة الأنبيــاء الــتي حفلت ببيــان كرامة الله للمرســلين (ع) واستجابة دعائهم ونجاتهم من قومهم الظالمين.

ويكفي هذا الحديث بلاغا للعابدين.

إن رسالة الله الى النبي محمد (ص) رحمة للعـالمين (لا لقـوم أو عصـر) ، وهـذه الرسـالة ذات اتجـاه واحد ، يتلخص في عبادة الربّ الواحد ، وهي رسالة الإسلام.

أمّا إذا تولوا فأنذرهم وأنبئهم ـ يا رسول الله ـــ إني لا أدري متى يصـيبكم ما أنـذرتكم به عـاجلا أم آجلا ، وهكـذا تتجلى مسئولية المجتمع عن أفعاله ، ولا أحد

يقدر على الهـروب منها الى ظل الكتمـان إذ الله سـبحانه محيط علما بما يجهرون وما يكتمون من أقوالهم ، (فيعلم مدى كذبهم في ادعاءاتهم التبريرية).

وهم يعتمدون على ما أوتوا من إمكانات ، ولكنها فتنة وبلاء ، وهي موجودة إلى حين.

ويلجأ الرسول الى كهف القدرة الالهية ليحكم بـالحقّ ، وربنا المستعان على تبريراتهم ودعاياتهم.

بينات من الآيات :

[105] يبشر الله عباده الصـالحين ، بـأنهم هم الـذين يرثـون الأرض وما عليها ، ثمّ يقـول : إنّ هـذا إبلاغ لأولئك الذين عبدوا الله وسـلّموا أمـورهم لـربهم ، ما هي العلاقة بين الآيتين؟

الواقع ليست الحقيقة غامضة ، بل لها دلائل وشـواهد عدة ، ولكن الإنسان عادة يصاب بعقدة أو عقيـدة فاسـدة ، أو غفلة مطبقة ، وعليه أن يبـــــــذل المزيد من الجهد لإصلاح نفسه من عقدها وعقائدها الفاسـدة ، وكـذلك من غفلتها.

إنّك مـــتى ما خلّصت نفسك من عقـــدها وعقائـــدها الفاسدة ، وأيقظتها من غفلتها ، آنئذ يمكننا أن نحكم بأنك فهمت الحقيقة ، وليس ذلك فحسب ، بل إنّ الحقيقة صارت بالغة الوضوح في نفسك.

ويســـــمي الله ســـــبحانه قوله : (**أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبـادِيَ الصَّـالِحُونَ**) بلاغا ، لأنّ الإنسـان بعد ما يصـفّي نفسه من رواسب العقد والعقائد الفاسـدة ، ويوقظها من غفلتها ، يكــون مســتعدا لتلقي هــذه الحقيقة وهي وراثة الصالحين الأرض جميعا ،

كيف؟

لأنّ الحيـاة مبنية على أسـاس الصـلاح ، وليس على أساس الفساد ، فلو كان الكون فاسدا لتحطم وزال.

ثمّ نتساءل ما هي علاقة هذا الأمر بحـديثنا في قوله : (**عِبادِيَ الصَّالِحُونَ**)؟

الإنسان الصـالح هو الـذي يسـير وفق سـنن الله ، ولا بدّ أن يسير منسجما مع مسيرة الكون ، ولا بـدّ أن يلتقيها في يـوم من الأيـام ، أما الإنسـان الفاسد الـذي لا يسـير وفق سـننه ، فانه من الطـبيعي أن يفـترق مع مسـيرة الكون ، وتكون بينهما هوة تتسع مع الزمن ، والذي يسـير وفق بـرامج الحـقّ لا بـدّ أن يلتقي مع الكـون ، أما الـذي يسير وفق أهوائه فانه سوف يكـون إمّا وبـالا على الكـون فينشر فيه فسـادا ، أو يكـون الكـون وبـالا عليه فيهلكه أو يدمره.

إنّ سنن الله في الكون تطبق شئنا أم أبينا ، وإن من يسير وفقها لا بدّ أن يلتقي معها ، بينما الذي يسـير ضـدها لا بدّ أن ينتهي ، وعنوان هذه السنن هو الصلاح ، وقد بـني الكون على الصلاح ، والصالحون من عبـاد الله هم الـذين يرثون الأرض ، لأنهم يطبقون سنن الله فيها.

(**وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الـذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ**)

ما هو الزبور والذكر ، ولما ذا خصهما الـرب بالـذكر ، أو ليست هذه سنة إلهية نوهت بها رسالات الله جميعا؟

بلى ، ولذلك احتمل بعض المفسرين أن يكـون الـذكر هنا هو القرآن بينما الزبور

كلّ كتاب هبط قبله ، فيكون إذا معنى (من بعد) الـذكر ما يساوي قولنا بالاضافة الى القرآن.

ولكننا نستظهر من لفظة الزبـور نفس معناها عند ما استخدمت في موردين ، وأيد بها كتاب داود.

بينما نستوحي من آية سـبقت في هـذه السـورة : إن الـذكر يطلق على التـوراة ، ويبقى السـؤال إذا بما ذا اختص داود (ع) من بعد موسى (ع) بهذه البشرى؟

والجواب ـ كما يبدو لي ـ :

إنّ الله أنقذ بني إسـرائيل ، ذلك القـوم المستضـعف من سلطة فرعون ، وعلى يد النبي موسى (ع) ، وأورثهم أرض الظالمين.

كما أعطي لداود حكما وهيّأ له أسباب القدرة ، فكـان من المناسب أن يـذكرهما ، بـأن وراثة كـلّ الأرض تكـون للصـالحين : أولا لكي يكـون ما تحقق فعلا على عهـدهما شـاهدا على ما يتحقق في المسـتقبل جريا على نهج القـرآن في الارتقـاء بالقـارئ من الحقـائق المشـهودة الحاضـرة ، الى الغيب الأوسع مـدى ، وثانيا وليعلم كـلّ مؤمن بأن الله سوف يـورث الأرض للصـالحين من عبـاده كما فعل في عهد داود وموسى ، فيكـون ذلك أملا يبعثه الى المزيد من النشـاط ، وبصـيرة كونية لمعرفة حركة الكائنات التي تنتهي الى وراثة الأرض جميعا.

هكذا نستوحي من الآية فكرتين :

أولا : إن كلّ مجموعة مؤمنة تعبد الله بحـقّ ، وتكـون صالحة ، تستحق أن ترث أرضها.

ثانيا : إن كــلّ الأرض ســوف تســعد بحكومة عادلة ، إلهية ، وهــذه هي الــتي نجــدها فيما يســمى ب (مزامــير داود) والذي بالرغم من وجود تحريفات في كتب العهــدين حفظت لنا الكثير من حقائق الوحي ووصايا الأنبيــاء ، فاننا نقرأ في بعضها ما ترجمته :

«**إن الله يعلم أيّـــام الصـــالحين ، وســـيكون ميراثهم أبديا**». [1]

ولذلك جاءت النصوص الإسلامية عن الرســول صــلى الله عليه وآله تـــترى وتبشر بأنه لو لم يبق من الـــدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليــوم حــتى يبعث رجلا من أهل البيت يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا.

وجاء في حــديث مــأثور عن الامــام أبو جعفر (ع) في تفسير هذه الآية : هم أصحاب المهدي في آخر الزمان [2]

الصلاح بين تخلفنا وتقدم الغرب :

الصــلاح مطية التقــدم ، ذلك لأنه يعــني التوافق بين عمل الإنسان وسنن الخلائق ، ونتساءل : إذا لما ذا تخلفنا وتقدم الغرب الكافر ، هل هم صالحون فعلا؟

نقــول بلى إنهم قد اكتشــفوا بعض ســنن الله وعملــوا بها مثل (السعي ـ النظام ـ التخطيط ــ العطــاء) فتقــدموا علينا.

إلّا إنّهم لا يملكــون خلفية عقائدية صــحيحة وبالتــالي إطارا سليما لنشاطهم ،

---

(1) هناك نصوص كثيرة نقلت في تفسير (نمونه) في هــذا الحقل راجع ج 13 ــ ص 521 ، وهــذا النص نقله الكتــاب المزبــور من الترجمة الفارســية لكتــاب العهد القــديم ، الــذي تــرجم في عــام 1878 تحت إشراف مراجع الكنيسة.

(2) تجد هــذين النصــين ونصــوص أخــرى في «نــور الثقلين» ج 3 ــ ص 464 ـ 465.

ولم يهتدوا الى الصراط القويم ، فكانوا كمن يجـدّ السـير على غـير الطريق الصـحيح فـتراه يـركض ، ويملك من العزيمة على السـير ، ووسـائل التحـرك ما يسـاعده على الوصـــول الى الهـــدف ، إلّا إنّه أضل الطريق فلا يغنيه السعي والنظام والتخطيط والعطاء شيئا.

هؤلاء (الغرب) حققـوا جـزء من الشـرط الثـاني دون الشـــرط الأول والأهم لوراثة الأرض وهو عبـــادة الله ، فلذلك لن يكونـوا المبشـرين بوراثة الأرض ، لأنهم ليسـوا عباد الله الصالحين ، بلى انهم يملكـون من الصـلاح نسـبة يجزيهم الله عليها بتقدمهم المحدود والموقت في الـدنيا ، وعندنا ـ نحن المسلمين ـ نسبة من الفساد نتخلف بسببها في الدنيا.

إذا لا بدّ من تطبيق كلّ الدين حـتى نكـون صـالحين ، وكلّ الدين هو الذي يجعلنا نتعايش مع سنن الكون ونبشر بوراثة الأرض بقدر تسخيرها في سبيل الله.

[106] (**إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ**)

إذا لم يكن الإنسان عابدا فإنه لن يصل إلى الحقيقة.

[107] (**وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ**)

إن الصـيغة العامة لرسـالات الله جميعا ، ورسـالة الإسلام بالذات ، هي الرحمة ، لأنها تهدي النـاس الى نعم الله ، والطريق القـويم الى الانتفـاع بها ، والنهج السـليم لبلـوغ الأهـداف السـامية ، ولـذلك جـاء في الحـديث عن الرسول إنه قال : «**إنّما أنا رحمة مهداة**» [1]

(1) نور الثقلين / ج 3 ـ ص 466.

وتتميز رسـالة نبينا الأكـرم (ص) بأنها رحمة للعـالمين جميعا ســواء الأبيض أو الأســود ، العـــربي والأعجمي ، والفقير والغني ، والرجال والنسـاء ، وأنها ــ كما السـحب الهطــول ، كما أشـعة الشــمس ، كما سـائر نعم الله ـــ تشمل الجميع بلا استثناء.

ولأنها رحمة للعــالمين ، فــان الله ســبحانه وتعــالى يريدها تسـود العـالم جميعا حـتى تكـون وراثة الأرض كـلّ الأرض للصالحين التابعين لهذه الرحمة .. وهـذه بشـرى لا بدّ أن يسعى كلّ مؤمن لتحقيقها.

وهنـاك تفسـير آخر لهـذه الآية جـاء به الأثر الشـريف وهو : إنّ الرسل من قبل ســـــيدنا محمد (ص) بعثــــــوا بالتصــريح فــاذا كـذب الواحد منهم أنــزل الله على قومه العـــــذاب ، بينما بعث نبينا بــــالتعريض فلا يأخذ الله أهل الأرض في عهده بالبلاء الماحق ، ويـدلّ على ذلك ما جـاء في حـــديث عن أمـــير المؤمــــنين (ع) وجهه الى بعض الزنادقة : وأما قوله لنبيه (**وَما أَرْسَــلْناكَ إِلَّا رَحْمَــةً لِلْعــالَمِينَ**) وانك تــرى أهل المال المخالفة للايمـان ومن يجـري مجـراهم من الكفـار مقيمين على كفرهم الى هـذه الغاية ، وانه لو كـان رحمة عليهم لاهتدوا جميعا ونجوا من عذاب السعير ، قال : فان الله تبارك اسـمه إنّما عـنى بـذلك انه جعله سـبيلا لإنظـار أهل هــذه الــدار ، لأنّ الأنبيــاء قبله بعثــوا بالتصــريح لا بـالتعريض ، وكـان النـبي (ص) منهم إذا صـدع بـأمر الله وأجابه قومه سلموا وسلم أهل دارهم من سـائر الخليقة ، وان خــالفوه هلكــوا وهلك أهل دارهم بالآفة الـتي كـانت بينهم يتوعـدهم بها ويتخـوفهم حلولها ونزولها بسـاحتهم ، من خسف أو قـــذف أو رجف أو ريح أو زلزلة وغـــير ذلك من أصناف العذاب الـذي هلكت به الأمم الخالية ، إنّ الله علم من نبينا ومن الحجج في الأرض الصـــــبر على ما لم يطق من تقدمهم من الأنبياء الصبر على مثله ، فبعثه الله

بـــــالتعريض لا بالتصـــــــريح ، وأثبت حجة الله تعريضا لا تصريحا. [1]

[108] لما ذا كـــانت رســـالات الله رحمة ، وما هو جوهر هذه الرحمة الالهية؟

إنّ جــــوهر الرحمة الــــدعوة الى توحيد الله ، ونبذ الشــركاء من دونه ، ذلك لأن تحــرر الإنســان من عبــادة الهوى ، وتمرده على الضـغوط ، وخلاصه من نـير الطغـاة والمستكبرين ، وارتفاعه الى مستوى (عبـادة الله وحـده) هو قمة الاستقلال والحرية والكرامة.

إنّ حب الاســتقلال والحرية والكرامة غريــزة فطرية عجنت بها طينة البشر ، ولكن لم يتخلص الناس عمليا من الظلم والاستعباد ، لماذا؟

لأنّ البشر بحاجة الى من يوقظ هذه الفطـرة ويثيرها ويبعثها ويعطيه عزمة إرادة ومنهج عمل وضــــــياء أمل ، وليس ذلك إلّا عند الرسل ، فهم ومن ســـار على نهجهم من عباد الله الصالحين يحررون ـ بـإذن الله ـ البشر من القهر والاستعمار وسيطرة الأقوياء.

(**قُلْ إِنَّما يُـوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلـهٌ واحِـدٌ فَهَـلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**)

إنّها دعـــوة بالغة الصـــراحة الى الاســـتقلال والحرية والكرامة ، وانها لعهد بين الرســـول ومن أرسل إليهم بأنه لا يريد اســـــتعبادهم ، بل تحريـــــرهم ، ولكنه يطـــــالبهم بالتسليم للحقّ لكي ينجيهم من عبودية الباطل.

[109] ولا يطــالبهم الرســول بــأجر ، ولا يــدعوهم لمصــلحة عنــده انما يمنّ الله عليهم إذ ينــذرهم بعــذاب عظيم هم غافلون عنه ويقطع عذرهم بالجهد لهم بالإنــذار ، وهو

(1) المصدر / ص 446.

سواء معهم في انه مخاطب أيضا بالإنذار كما ان القــريب والبعيد منهم شرّع سواء.

(**فَـإِنْ تَوَلَّوْا فَقُـلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَـواءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ**)

إيـذان شـامل لكـلّ النـاس وإنـذار مـبين من الله رب العـالمين لا دخل للرسـول بتفاصـيله ، فهو أيضا لا يـدري مـتى يـأمر الله بالعـذاب ، وإذا لم يكن رسـول الله حامل الإنذار يدري فمن ـ يأتري ـ يدري؟ لا أحد ، ولقد قرأنا في سورة طه قوله : «**إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْـعى**» ، فجـاءت الرواية تفسـير الآية : أكاد أخفيها من نفسي لان الله لم يحدد للساعة وقتا.

يا هـول المفاجـأة ، السـاعة آتية بما فيها من فظـائع الهول ، وعظائم الأحداث ، ولا يعرف أحد متى!!

إنّ إخفاء علم الساعة أبلغ أثرا لكي تحسس الإنسـان بالمسـؤولية ، فلو حـدد الله ميقـات السـاعة أو ميقـات المـوت ، لتكاسل الإنسـان عن واجبه متعللا بأنه سـيتوب قبيل موته ، مثلما قـــال عمر بن ســـعد عند ما أراد قتل الحســين عليه السـلام ، وبعد أن عرضت عليه السـلطة الأموية : (ملك الري) إن هو قتل الحسين (ع) ، قـال وهو يناجي نفسه ويحاول تبرير قراره الاجرامي :

ووالله لا أدري وإني لحــائر	أفكر في أمـــــــري على خطـــــــــــرين
أأتــرك ملك الــريّ والــريّ منيــــــــــــتي	أم أرجع مأثوما بقتل حســــــــــــين
حسين ابن عمي والحوادث جمّة	ولي في الــريّ قــرّة عين
يقولون : إنّ الله خالق جنّة	ونــار وتعــذيب وغل يــدين
فـإن صـدقوا فيما يقولـون إنــــــــــــــي	أتـــوب إلى الـــرحمن من ســــــــــــنتين

وإن إله الكــون يغفر زلتّي	وإن كنت فيها أرذل الثقلين
وإن كـــــذّبوا فزنا بــــــدنيا عظيمة	وملك عظيم دائم الحجلين

إنّ الله سبحانه ينسف هذه الفكرة بإخفـاء السـاعة ، فمن يقـول إنك تعيش الى سـنتين حـتى تتقـرب فيها الى الله.

وهكـذا نقـرأ في وصـية أمـير المؤمـنين علي ابن أبي طالب لابنه الحسن (عليهما السلام) :

«... **واعلم يا بـــني إنك إنّما خلقت للآخـــرة لا للدنيا وللفناء لا للبقاء ، وللموت لا للحياة وانك في منزل قلعة ـ أي لا يـدري سـاكنه مـتى ينتقل عنه ـ ودار بلغة ـ أي يؤخذ منه الكفاية للآخـرة ـ وطريق الى الآخرة ، وانك طريد الموت الذي لا ينجوها ربه ، ولا يفوته طالبه ، ولا بـــدّ انه مدركه ، فكن منه على حـــذر أن يـــدركك وأنت على حـــال ســيئة ، قد كنت تحدث نفسك منها بالتوبة ، فيحول بينك وبين ذلك ، فاذا أنت قد أهلكت نفسك.**» [1]

إنّ وفاة الإنسان كما وفاة المجتمعـات غـير معلومة ، وهكذا الساعة.

[110] وبإزاء جهلنا نحن البشر بيوم الحسرة وسـاعة قيام الناس للحساب يعلم الله ما ظهر منا وما بطن.

(**إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ**)

ولعـلّ الإنسـان يخفي غـير ما يقـول ، ويـبرر جرائمه بشتى الاساليب ، فالله محيط علما بما يكتمه ولذلك عليه ألّا يظن انه يخدع ربه أو يلتف على قوانينه ويتهرب من

(1). 31 / وصايا أمير المؤمنين (ع) نهج البلاغة 400.

مسـئولياته الشـرعية إنّما عليه أن يطهّر قلبه من الأفكـار الباطلة ، ووسـاوس الشـيطان وتسـولات النفس الأمـارة بالسوء.

[111] أما نعم الحيـــاة الـــتي يرفل بها الظـــالمون المسـتكبرون اليـوم ، ويحسـبون انها تخلـدهم ، بل يـزعم بعضـــهم انها دليل رضا الله عنهم ، فانها قد تكـــون فتنة وبلاء ولعلّ متاعها قليل والى أمد قريب.

(**وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ**)

[112] الحـقّ محـور خلق الكائنـات وقد أمهل الـرب برحمته عبــاده ، فلا يأخــذهم بما يكســبون اليــوم ، ولو أخذهم لما ترك على ظهر الأرض من دابة.

بيد ان الحقّ بالتـالي مقيـاس أعمـال النـاس ومـيزان جزائهم ، إليه يعودون آجلا أم عاجلا.

(**قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الـرَّحْمنُ الْمُسْـتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ**)

بالله الرحمن يستعين الرسول ومن يسـير على نهجه على الأقاويل الباطلة ، والتــــــــبريرات الزائفة والحجج الواهية.

ونستوحي من الآية فكرتين :

1 ـ إنّ الله يحكم بالحقّ ، اسـتجابة لـدعاء الرسـول ، حيث جاء في الأثر إنه (ص) كـان يـدعو بهـذا الـدعاء كلما خاض معركة ضد المشركين ، مما يدل بأن على الإنســان ألّا يتكاسل عن الجـــدّ والجهـــاد ثمّ يكتفي بالـــدعاء .. والعكس غير صحيح أيضا فلا يصح أن يعتمد الإنسـان على عمله فلا يدعو ربّه.

2 ـ وهو الذي يرزق عباده الصالحين ـ إذا دعوه ـ نورا يمشـون به بين النـاس ، ويمـيزون به الحـقّ عن الأباطيل الــتي يصــفها الكفــار ، ويعطيهم قــوة لردّها ، ومقاومة الاعلام المضلل الذي يدعم الطغاة والكفرة.

الفهرست

سورة مريم

سورة طه

سورة الأنبياء